رواية
أماني الصغير
أجمل إنه أنت
By: Shaimaa Gad

أجل.. إنه أنت!

أماني الصغير

* ١ *

*** ظلمةٌ غريبة.. ومكانٌ أغرب..

تعلم أنها هنا وحدها، لكنها تلفتت حولها عبثًا..

دق قلبها خوفًا..

تاهت أفكارها فيما عليها فعله..

تحركت مبتعدة.. فلاحقها الظلام ووحشة المكان..

توقفت.. ظلت حيث هي، فداهمها خوفها أشد وأقسى..

وعلى الرغم منها دافعتها الدموع..

لحظتها مر بقلبها وعقلها، وتمنت لو كان معها الآن..

خطت خطواتٍ يائسة لا تعرف إلى أين، لكنها لدهشتها لمحته!!

يقف هناك بعيدًا.. بعيدًا..

لم ترَ وجهه، لكنها شعرت أنه هو..

حاولت الاقتراب لكنه ابتعد، فهتفت.. هتفت بكل قوتها: كلا.. انتظر.

وكأنما سمعها فتوقف والتفت..

تهدج صوتها وهي تقول: أرجوك لا تذهب..

وقف حائرًا كمن لا يتوقع النداء، ووقفت تنتظره لا تعرف ماذا تفعل..

أتهتف تناديه مرةً أخرى؟

وإن نادته.. هل سيلبي نداءها، أم يتركها ويذهب؟

اعتصرتها لوعةٌ بقدر مشاعرها نحوه وتقاذفتها أمواج الاحتمال..

كم تحتاجه.. كم تشتاق لقربه..

رأته يقترب فخفق قلبها ارتياحًا..

صار أمامها.. لم يتكلم، ولم تتكلم..

تطلعت إليه.. وعند عينيه توقفت عيناها.. توقفت كثيرًا، وكأنها تسأله.. أتيت من أجلي؟

لم يُجب.. بل اقترب أكثر وابتسم..

مد يده نحو يدها فاستكانت له..

وأخيرا أنارت ابتسامتها وجهها و....

وتلاشت في نفس اللحظة وذلك الصوت الحاد يتصاعد بغتة مخترقًا أذنها..

تلفتت حولها بانزعاجٍ تبحث له عن مصدر، فلم تجد..

عادت بعينيها إليه فلم تجده هو الآخر، بينما الصوت يتصاعد أكثر وأكثر..

من أين يأتي هذا الصوت اللعين؟!

لوّحت بذراعها في عنف فشعرت به يرتطم بشيءٍ ما، اقتلعته ضربتها ليسقط على الأرض بدويّ مزعج جعلها تنتفض وتفتح عينيها وهي تهب جالسةً على فراشها..

حدقت منى للحظاتٍ في معالم غرفتها وذلك المنبه الملقى أرضًا والذي مازال يواصل رنينه على نحوٍ مستفز، قبل أن تزفر بقوة وتقول بصوتٍ ناعس: منبهٌ مزعج!

اضطرت إلى أن تغادر دفء فراشها لتلتقطه وتسكت رنينه، ثم تثاءبت في كسلٍ وقالت وهي تلقي نظرةً على عقاربه المضيئة: السابعة؟ حسنا.. مازال الوقت مبـ... ماذا.. السابعة؟!!

صاحت بالكلمة الأخيرة في انفعالٍ مفاجئ، ثم اندفعت نحو النافذة مكملةً في سخط: لقد تأخرت كثيرًا.. يا لي من حمقاء.

فتحتها في حذرٍ غير مباليةٍ بتيار الهواء البارد الذي اندفع في وجهها وأنفها الدافئين، وعبر فرجةٍ صغيرة وقفت تطالع الشارع الواسع الذي تطل عليه النافذة والذي كان خاليًا تقريبًا من المارة في هذا الوقت المبكر من النهار..

ظلت تراقب الطريق لدقائق عدة وعلى وجهها ترقبٌ يوحي بأنها تنتظر ظهور أحدهم.. كانت تعلم أنها قد تأخرت لكنها تمنت أن تظفر ولو ببضع لحظات..

تحرك بصرها إلى المنزل المقابل، فدفعها مرأى السيارة الكائنة أمامه إلى التحلي ببعض الصبر..

دقائق أخرى مرت من الانتظار شعرت بعدها بالضيق والإحباط، وكادت تلوم نفسها مرةً أخرى على تأخرها في النوم عندما...

عندما لمحته..

وعلى الرغم من أنها تتوقع ظهوره بل وتنتظره، فاجأها قلبها بخفقةٍ مضطربة فتنفست بقوة وتركت له العنان..

كان يعدو بسرعةٍ متوسطة عائدًا إلى منزله.. وقبل أن يصله بقليل، هدأ من سرعته حتى أصبحت خطواته الراكضة مشيًا..

ابتسمت وهي تراه يرفع ياقة زيه الرياضي ليغطي عنقه وذقنه، ويضع يده في جيبه وأنفاسه المتلاحقة تكثف الهواء أمامها، ثم غمغمت وكأنما تخاطبه: الجو باردٌ عليك حقًا.

جاوبتها عطسةٌ قويةٌ منها تنبئها أن الجو ليس باردًا عليه فقط بل عليها أيضًا، لكنها تجاهلت ذلك وواصلت متابعته ببصرها حتى غاب داخل منزله المقابل لها تمامًا..

لحظتها أغلقت النافذة واتجهت شاردةً نحو فراشها لتندس تحت أغطيته الثقيلة وأسبلت جفنيها لتواصل نومها، فمازال أمام ميعاد استيقاظها المعتاد ساعةٌ كاملة..

كانت تريد فعلًا مواصلة النوم لكن الابتسامة التي حملتها شفتاها وقلبها الذي يدق شغفًا اشتراكا مع عقلها ليتمرد عليها، فشرد يسترجع ذكرياتٍ قريبة..

****

*** قبل شهر..

في آخر أيام عطلة منتصف العام الدراسي..

وقفت منى أمام نافذة حجرتها تتنسم الهواء الطلق في انتعاش، وعلى الرغم من برودته أعجبها الجو كثيرًا، لهذا قررت الجلوس على مقعدها الأثير بجوار النافذة وقراءة كتابٍ ما..

همت فعلًا بإحضار ما تقرؤه عندما لمحت تلك السيارة السوداء الأنيقة حديثة الطراز، فتنهدت في ضيق.. لقد أصبحت تراها كثيرًا متوقفةً بجوار المنزل المواجه للبناية التي تقطن فيها، والكائنة بإحدى المدن الجديدة..

لم تكن السيارة بالطبع سبب ضيقها، لكنها حقيقة أن ذلك المنزل أصبح له سكانًا..

كان منزلًا أنيقًا أشبه بفيلا صغيرة مكونة من طابقين تحيطها حديقةٌ صغيرة، لكن أجمل ما فيه كان كونه خاليًا، لهذا كانت تفتح نافذة حجرتها بحرية.. كان هذا قبل أن تدب مظاهر الحياة فيه فجأةً منذ وقتٍ قصير.. أصبحت أنواره تُضاء ليلًا وزرعت حديقته وامتلأت أزهارًا، وظهر ذلك الشخص الذي يعتني بالحديقة ويروح ويجيء على المنزل.. وأخيرًا ظهرت تلك السيارة..

لم يثر الأمر اهتمامها، بل بالعكس، ضايقها كثيرًا لأنه حجّم عليها فتح نافذة حجرتها الوحيدة..

وبضيق، تنهدت مرةً أخرى وغمغمت في سخط: هذا ما كان ينقصني!

- وتتحدثين إلى نفسك أيضًا!

التفتت منى مندهشةً لتجد صديقتها بسمة تطالعها بوجهها البيضاوي المحبب وعينيها البندقيتين وقد وقفت بجوار باب غرفتها بينما تكمل: لماذا لا يصدقني أحدٌ إذًا عندما أقول إنك مجنونة؟!

ضحكت منى وقالت وهي تصافحها بحرارة: ومن يحتفظ بعقله ولديه صديقةٌ مثلك!

ثم أردفت وهي تقودها للداخل: افتقدتك كثيرًا بسمتي.

قالت بسمة مازحةً ومتظاهرةً بعدم التصديق: حقا!! لكننا كنا سويًا منذ يومين!!

ابتسمت منى قائلة: أنا افتقدك دائمًا.

سحبت بسمة مقعدًا صغيرًا وجلست قائلة: لم يتبق سوى يومين ونعود لنقضي نصف يومنا سويًا حتى نمل.

جلست منى قبالتها وقالت: آه.. ذكرتني بانتهاء عطلة منتصف العام.. لا أصدق أن مرت الأيام بهذه السرعة..

ثم أردفت بتنهيدةٍ حارة: ولست أدري من أشار عليّ بدخول كلية الصيدلة من الأساس.

أطلقت بسمة ضحكةً خافتة وقالت: أتتساءلين الآن ونحن في السنة النهائية! بضعة أشهرٍ ونُنهي هذه المأساة.. لا تقلقي.

تصنعت منى الغيظ وقالت: لا أستطيع منع نفسي من حسد زملاءنا في الكليات الأخرى، فقد تخرجوا منذ هذه الـ "بضعة أشهر".

هزت بسمة رأسها في أسفٍ مصطنع وهمت بقول شيءٍ ما عندما أردفت منى بحماسٍ مفاجئ: ما رأيك لو دللنا أنفسنا بعض الشيء؟

عقدت بسمة حاجبيها وقالت: ماذا تعنين؟

استقامت منى واقفة وأشارت بيدها بذات الحماس: ماذا لو تجاهلنا الجامعة لبضعة أيامٍ إضافية؟

بدا على بسمة الاستنكار، فاستطردت منى بسرعة: أسبوعٌ واحدٌ فقط.

عادت بسمة تضحك وضربت يدًا بيد وهي تقول: يبدو أنك قد جننت فعلًا.

قالت منى معترضة: وما الجنون في ذلك؟

طالعتها بسمة بصمتٍ دام للحظات، قبل أن تسألها بدهشة: منى.. هل أنت جادة؟

أومأت منى برأسها بقوة، فعاودها استنكارها وقالت: هل ستتركين محاضراتك ودروسك العملية بدون سبب؟

قوست منى شفتيها كالأطفال وقالت: أريد أن أرتاح.. هل هناك سببٌ أقوى من ذلك؟

قالت بسمة بغيظ: هذا ليس سببًا.. هذا كسلًا.

عقدت منى ذراعيها أمام صدرها وهي تقول في عناد: فليكن.

هزت بسمة رأسها باستسلام، فغمزت منى بعينها قائلة: وماذا عنك؟ ألن تشاركيني جنوني؟

رفعت بسمة كفها ضاحكة وقالت: أنا؟ لا.. مستحيل.. أنا لن أترك محاضراتي أبدًا.

ابتسمت منى ولم تعلق، لتستطرد بسمة: أعيدي التفكير في الأمر وتحلي ببعض التعقل.. واثقةٌ أنا من أنك ستغيرين رأيك.

هزت منى كتفها بمعنى ألا تأمل في ذلك كثيرًا، فتنهدت بسمة وقالت: حسنًا يا منى.. يا صديقتي المجنونة.. يا من ستودين بآخر أبراج عقلي حتمًا في يومٍ ما.. يا من.....

قاطعتها منى ضاحكة: كفى.. كفى.. هل ستؤلفين فيَّ قصيدة! اذهبي أنت أيتها المجتهدة واتركيني أنعم بعطلتي، ولكن ابقي على اتصال.

- في أحلامك.. إذا أردت معرفة شيءٍ فاذهبي واعرفيه بنفسك.

قالتها بسمة في عناد، ثم أردفت: والآن أنا ذاهبة.

قالت منى في اعتراض: ماذا؟ لقد أتيت لتوك.. هيا.. تخففي من حجابك ودعينا نجلس قليلًا.

عدلت بسمة من وضع حجابها لتخفي خصلات شعرها الكستنائية دائمة الانزلاق، ثم نهضت قائلة: ربما في وقتٍ لاحق فقد كنت ذاهبةً للتسوق من الأساس، لكني عندما مررت أمام منزلكم المبجل اكتشفت كم افتقدتك بعد يومين من الفراق، فأتيت لإلقاء السلام.

ضحكت منى بمرح، فعادت بسمة تقول وهي تلوح بكفها وتسبقها إلى الباب: إلى اللقاء.. أراك بعد يومين.

تبعتها منى قائلة: قلت لك إنني لن....

قاطعتها بسمة بزفرة غيظ، لكنها لم تلبث أن ابتسمت وغمزت بعينها: أتراهنين؟

بدا على منى التساؤل، فهمست: ستأتين إلى الجامعة في أول أيامها.

همست منى بدورها: تخسرين إذًا.

****

*** أوت منى إلى فراشها مساء آخر أيام العطلة وبدت متضايقةً وحائرة..

لا تشعر هي بالراحة لقرارها الخاص بتجاهل أيام الدراسة الأولى..

بعيدًا عن الدراسة، لقد افتقدت الجامعة بالفعل.. افتقدت صديقات وزميلات الدراسة.. افتقدت تجمعهن المعتاد أمام مبنى المحاضرات وثرثرتهن أثناء الدروس العملية.. افتقدت في الواقع كل شيء..

ترى.. ماذا عليها أن تفعل؟!

انهمكت في التفكير لبرهة، لكنها لم تهتدِ لقرار.. فغمغمت وهي تستسلم للنوم: فلندع ذلك للغد.

في الصباح، استيقظت مبكرًا على غير عادتها في الأيام السابقة.. شعرت بالنشاط والحماس فقامت وهي تحدث نفسها: يبدو أنك ستربحين الرهان للأسف يا بسمة.

انتقت من ثيابها أفضل ما يناسب قوامها المعتدل وبشرتها الخمرية، وأخذت وقتها في لف حجابها الأنيق وضبطه بمنتهى الدقة كعادتها، ولم يخلُ الأمر من بضع لمساتٍ بسيطة من

الزينة منحت بها عينيها الواسعتين السوداوين ما تستحقه.. ولم تمضِ ساعةٌ واحدة، حتى كانت تدخل الجامعة في أبهي صورها وكامل تأنقها..

مع بلوغها ساحة الكلية، لمحتها بسمة، فتألقت عيناها في ظفر و انتظرت اقترابها لتقول: كنت متأكدة..

صافحتها منى بحرارةٍ بينما تكمل: أنك ستخسرين الرهان.

حركت منى سبابتها أمام وجهها نافيةً وقالت: لا لّا.. لا تخطئي فهمي.. أنا هنا اليوم للنزهة فقط!

قالت بسمة ضاحكة: هكذا إذًا.

تلفتت منى حولها ترمق زميلاتها المنتشرات في تجمعاتٍ متفرقة بساحة الكلية وقالت: مالي أرى الجميع هنا؟ هل قررتم جميعًا تجاهل المحاضرات مثلي؟

أجابتها بسمة بلهجةٍ مسرحية: شاء القدر أن يمنحنا - نحن بؤساء الدراسة - عطلةً أسبوعيةً صغيرة متمثلةً في يومٍ خالٍ من المحاضرات والدروس العملية، والذي تصادف أن يكون اليوم.

هتفت منى بفرح: حقًا؟! هذا أفضل خبرٍ سمعته حتى الآن.

اقتربت منهما أمل صديقتهما وقالت: أهلًا منى.. طالما تبتسمين بهذه السعادة فمن المؤكد أنك عرفت بخبر اليوم.

ضحكت بسمة وقالت: وأي سعادة.

انضمت إليهن باقي الصديقات وتوزعن متجاوراتٍ على مقاعد متقاربة يتبادلن الحديث..

بقيت إحداهن ولم تجد لها مكانًا لتجلس، فاندفعت تحشر نفسها حشرًا بين منى وبسمة قائلة: افسحا قليلًا.

لكزتها منى وقالت مازحة: زاد حجمك مؤخرًا يا دعاء.

أدارت دعاء بصرها بينها وبين بسمة، فتجهم وجهها فجأةً وقالت: ما الذي فعلته بنفسي! أنقذيني يا أمل.

مدت يدها بالفعل إلى أمل لتجذبها من بينهما، بينما تكمل: لحظةٌ واحدة إضافية وكانت ستصيبني العدوى.

نظر إليها الجميع باستغراب، فأردفت: عدوى الاجتهاد في الدراسة بالطبع!

انفجر الجميع في الضحك ومضى الوقت مرحًا ممتعًا..

في طريق العودة، وبعد مرحلة التنقل السخيفة بين وسائل المواصلات والتي تفرض عليهما قطع مسافةٍ لا بأس بها سيرًا على الأقدام، كانت منى وبسمة تواصلان طريقهما إلى منزلهما مشيًا وقد تأبطت منى ذراع بسمة - رغم أنها الأقصر طولًا - وهي تقول: لا يمكنك أن تتخيلي كم كنت بحاجةٍ إلى مثل هذا اليوم.

بنظرةٍ جانبية سألتها بسمة: أيعني هذا أنك قد صرفت النظر عن موضوع الأسبوع الإضافي هذا؟

قالت مبتسمة: نعم.

قالت بسمة وهي ترفع يدها إلى السماء وكأنها تبتهل: حمدًا لله.. الآن اطمأننت إلى أن فترة جنونك قد انتهت.. مؤقتًا.

أطلقت منى ضحكةً خافتة ولم تعلق، فاستطردت بسمة وهي تنظر تجاه منزل منى والذي لاح من بعيد: ما هي أخبار جيرانكم الجدد؟

- تقصدين جارنا الجديد.

- معقول؟! أيسكن كل هذا المنزل شخصٌ واحد؟!

أومأت منى برأسها إيجابًا، فعادت تسأل: وكيف عرفت؟

أجابتها منى بهدوء: سمعت أمي تسأل أبي نفس السؤال، فأجابها أن صاحبه طبيب يدعى... آه.. لقد نسيت اسمه.. المهم أنه يسكن فيه وحده بعد أن اشتراه من مالكه الأصلي.. أبي يقول أنه مشهور إلى حدٍ ما وله عيادةٌ خاصة في وسط المدينة.

بهزة رأسٍ علقت بسمة: هذا جيد.

ردت منى بضيق: كلا.. ليس جيدًا على الإطلاق.. فإلى جانب أني لم أعد أستطيع فتح النافذة وقتما أريد، أصبتُ بالإحباط.. كنت أتمنى أن تكون هناك عائلة، فيكون من الممكن أن تنشأ بيننا وبينهم علاقةٌ وجيرة.. تعرفين كم أن هذا نادرٌ في المدن الجديدة.

بتعجبٍ قالت بسمة: وما الذي يمنع ذلك الطبيب من هذا.. ربما أصبح يومًا صديقًا لوالدك.

- لا أظن ذلك.

- ولماذا يا عبقرية؟

هزت منى كتفها قائلة: لست أدري.. أراهنك أنه عجوزٌ في الخمسين من عمره على الأقل، فكل الأطباء لا ينعمون بالحياة الرغدة إلا قرب الخمسين.. ظل يدرس طوال عمره حتى فاته قطار الزواج فأصيب بعقدةٍ نفسية جعلته يفضل العيش منعزلًا عن جميع العلاقات الاجتماعية، ويبدو....

تعلق بصر وانتباه بسمة بشيءٍ ما فلم تنتبه إلى بقية حديث صديقتها، إلا أنها لم تلبث أن قاطعتها: يبدو أنك ستخسرين كالمعتاد يا صديقتي العزيزة.

تساءلت منى في دهشة: أخسر ماذا؟!

أشارت بسمة برأسها إلى ما أمامها وهي تبتسم قائلة: الرهان !

التفتت منى تنظر إلى حيث تشير بسمة لتغمرها الدهشة.. فعلى بعد أمتار، كانت سيارة من كانت تتحدث عنه قبل لحظاتٍ تتوقف لتوها أمام منزله..

لم تكن السيارة بالطبع مبعث دهشتها.. بل كان صاحبها !

ذلك الذي وصفته منذ قليل بأنه رجلٌ عجوزٌ معقد!

ذلك الذي لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن يوصف بهذا الوصف!

شابٌ أسمر في أواخر عقده الثالث ربما، طويل القامة ذو بنيةٍ رياضية، أنيقٌ للغاية، ووسيمٌ بشكلٍ ملفت خاصةً بذلك الشعر الأسود الناعم الطويل نسبيًا والمصفف بعناية.. تحمل ملامحه هدوءًا وقوة لا تدري كيف يجتمعان معًا.. تحمل تعبيرًا بالبساطة جعلها تشعر بارتياحٍ غريب.. وفوق هذا كله، ابتسامةً هادئةً بسيطة!

ولثوانٍ، ظلت تحملق فيه وشعورها بالدهشة يزيد مع كل ثانيةٍ تمضي، حتى غاب داخل منزله..

انتبهت لحظتها أنها قد توقفت وأن بسمة قد سبقتها ببضع خطوات، لكنها لم تلبث أن عادت وجذبتها من ذراعها وهي تقول: ماذا هناك؟ لمَ توقفت؟

ردت شاردة: لا شيء.

قالت بسمة في مرح: أهذا جاركم ذو الخمسين عامًا؟! لابد أنه يتناول إكسير إعادة الشباب بانتظام!

عقدت منى حاجبيها ولم ترد، فقالت بسمة وهي تلوح لها بيدها مودعة: لكن ليس هذا هو المهم.. المهم أنه...

غمزت بعينها مستطردة: وسيم!

هزت منى كتفها بلا مبالاةٍ ولوحت بيدها بدورها قائلة: أراك غدًا.. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

صعدت لمنزلها بينما أكملت بسمة طريقها فمنزلها يلي منزل منى بمسافة عشر دقائق أخرى من السير.

وفي ضيق لم تدرِ له سببًا، مطت شفتيها مغمغمة: ربما ليس عجوزًا ولكنه بالتأكيد مغرور.

ما إن دخلت ورأت والدها حتى سألته قبل حتى أن تلقي عليه السلام: أبي.. ما اسم ذلك الطبيب قاطن المنزل المقابل؟

ألقت السؤال في لهفةٍ أصابتها هي بالدهشة قبل والدها الذي تساءل في استغراب: ولماذا تسألين هكذا فجأة.. لقد دخلت لتوك؟

ابتسمت بارتباكٍ وقالت: سألتني بسمة منذ قليلٍ فأثارت فضولي.

قال والدها: د. عمرو فؤاد.

قالت متظاهرة بالتذكر: آه.. أجل.. لقد أخبرتني من قبل لكني نسيت.. حسنًا يا أبي.

طبعت قبلةً سريعة على وجنته ثم اتجهت إلى غرفتها.

لا تدري لماذا شعرت بفضولٍ لمعرفة المزيد لكنها استوقفت نفسها في حزم " كفى.. الأمر كله لا يعنيني "

لكنها لم تدرك أن الأيام القادمة ستحمل لها الكثير.

****

*** في يومها التالي، ذهبت إلى الجامعة مبكرًا.. يوم مكدسٌ بالمحاضرات والدروس العملية وكأنما ينتقم منهم من نظم جدول الدراسة لتمتعهم بيوم عطلةٍ إضافي.. لقد دارت عجلة الدراسة بالفعل ولا شيء سيوقفها سوى انتهاء العام..

وفي يومٍ متخم كهذا لا يجد المرء وقتًا حتى للشرود.. ولكن ماذا عن هذا الاختبار الكيميائي الذي تجريه في معمل الكيمياء الطبية.. إن مراقبة ذلك السائل وهو يغلي داخل أنبوب

الاختبار مملةٌ حقًا.. مازال أمامه خمس دقائق أخرى من الغليان.. مئات الفقاعات تتصاعد، تكبر، تتلاشى، ثم تعود لتتكون من جديد.. كم أن هذا ممل.. مملٌ للغاية..

إنها تشرد..

مازالت عيناها تنظر إلى الأنبوب، لكن ذهنها أصبح بعيدًا.. بعيدًا عن هذا الزمان والمكان..

لقد عاد إلى الأمس.. إلى ذلك الرجل ذو الابتسامة المدعو عمرو..

كم هي رائعةٌ تلك الابتسامة الصغيرة الواثقة.. لم تكن شفتاه فقط اللتان تبتسمان، بل ملامحه كلها..

شعرت أنها تتأمل ملامحه من جديد، فابتسمت هي الأخرى.. شعرت بـ.....

بووووووم

انتفضت في ذعر وأنبوب الاختبار ينكسر بفرقعةٍ مكتومةٍ مزعجة جعلت كل من حولها يلتفت إليها متسائلًا وقلقًا، فقالت في توتر: لم أنتبه إلى أن اللهب كان عاليًا.

لحسن الحظ كان الأستاذ المنوط بالشرح العملي خارج المعمل ولم تصيبها شظايا الأنبوب، فزفرت في ضيق وهي تلقي ببقايا الأنبوب بعيدًا بينما عاد الآخرون للتركيز في عملهم وتجاربهم..

اقتربت منها بسمة وهي تسألها في دهشة: ما كان هذا؟!

قالت في عصبية: لست أول واحدةٍ تكسر أنبوبًا!!

- لم أقصد هذا.. لكنك كنت تبتسمين في سعادة والسائل يتبخر أمامك !

هتفت في استنكار: أنا؟!

وضعت بسمة الأنبوب الذي تحمله جانبًا بحرص، ثم واجهتها قائلة: أجل.. ظننتك تقصدين تركيزه، وعندما لاحظت أنه تبخر تمامًا وأنت مازلت تعرضينه للهب ناديتك، فلم يبدو عليك أنك قد سمعتني وأنت تواصلين الابتسام.. هل كنت تلهين بالتجربة؟!

ردت منى بلهجتها المستنكرة: مطلقًا.. لقد كنت شاردةً فحسب.

لم يبدُ على بسمة الاقتناع وقالت في غيظ: وفيمَ كنت تشردين وجعلك تبتسمين هكذا وتنسَين الدنيا من حولك؟

طالعتها منى بدهشةٍ مرددة: أنسى الدنيا؟!

ثم تنهدت في عمقٍ وقالت: كان مجرد شرود.

نظرت لها بسمة في شك، ثم قالت بعد فترةٍ من الصمت: حسنًا.. حاولي ألا تشردي مجددًا فالأستاذ قادم، وهو كما تعلمين لا يعترف بالشرود أثناء التفاعلات الكيمائية.

لم تستطع التركيز بعدها أبدًا.. حاولت وفشلت..

الأستاذ يتحدث.. يشرح نقاطًا بعينها وهي تحاول الانتباه ، ثم تكتشف أن جزءًا من كلامه قد نسيته أو ربما لم تسمعه أصلًا.. لا تدري..

ولهذا لم يكد وقت المعمل ينتهي حتى زفرت في قوة وقالت في ضيق: يا لها من تجارب سخيفة.

قالت لها بسمة: ماذا دهاك؟ إن عملنا اليوم كان سهلًا للغاية.

- لست أدري.. يبدو أنني متعبة.

- هل تحبين أن نستريح بالخارج قليلًا؟

- كلا.. دعينا نغادر سريعًا.

غادرتا سويًا كما تفعلان دائمًا.. وعلى الرغم منها، لم تستطع منى منع تلك اللهفة التي تصاعدت في أعماقها وهي تقترب من منزلها.. إنه نفس الموعد تقريبًا الذي رأته فيه أمس..

كانت تتحدث إلى بسمة بينما ترقب عيناها ظهور سيارته في أي لحظة!

لكنها لم تأت..

شعرت حقًا بالضيق، وضايقها شعورها هذا أكثر!! وبدا على ملامحها على نحوٍ جعل بسمة تلحظه وتدرك أن هناك أمرًا ما..

همت بسؤالها لكنها أحجمت.. شعرت أنه من الأفضل أن تنتظر حتى تخبرها بنفسها.. لهذا قالت مداعبة: يا إلهي.. تبدين كمن مشى فوق رأسه فأر.. يبدو أنه من الأفضل فعلًا أن تصعدي إلى منزلك بأقصى سرعة.

ابتسمت منى على الرغم منها وقالت: هكذا إذًا! حسنًا.. أنا مضطرةٌ إلى تحمل دعاباتك الثقيلة.

قالت بسمة وهي تبتعد: أريد أن أراك غدًا مشرقة.. اتفقنا؟

لوحت منى بيدها مودعةً وهي تقول: أنا دائمًا مشرقة!

صعدت إلى منزلها بإرهاقٍ واضحٍ.. منذ تلك التجربة في المعمل ومزاجها غير رائقٍ على الإطلاق ولا تدري لماذا..

وفي غرفتها، استلقت على فراشها محاولةً الاسترخاء..

لحظاتٌ تمضي ثم.. لا فائدة..

نهضت لتقف أمام النافذة، وشردت مرةً أخرى..

لم تنتبه إلى السيارة السوداء التي توقفت، ولا إلى قائدها الذي غادرها.. لكنه عندما أغلق بابها بذلك الصوت المميز لأبواب السيارات، انتبهت لتجده واقفًا بجوار سيارته..

بدا عليها الضيق للحظة، لكنه لم يلبث أن تلاشى وهي تتأمله..

ها هو ذا.. بأناقته الملفتة و.. وابتسامته..

كيف يستطيع الاحتفاظ بهذه الابتسامة الـ... الرائعة.. إنها تبدو وكأنها لا تفارق شفتيه..

ابتسمت هي الأخرى دون أن تشعر..

ومن مكانها أخذت تراقبه في شغف..

كان يتحدث في مرحٍ مع أحدهم عبر هاتفه الخاص، وقبل أن يغيب داخل منزله، كان آخر ما سمعته هو صوت ضحكاته..

أغلقت النافذة وبدأت في تبديل ملابسها، لكنها عندما نظرت لصورتها في المرآة أدهشتها تلك الابتسامة التي مازالت على شفتيها، وأدهشها أكثر ذلك السرور الذي بدا على ملامحها..

- ماذا دهاني؟!

قالتها لنفسها في خفوت.. وبتنهيدةٍ عميقة أردفت وهي تبتعد عن المرآة: أنا لم أعد أفهم!

لكنها أيقنت من داخلها أنها الآن مسرورة.. مسرورةٌ فعلًا..

في المساء.. اخترعت حديثًا طويلًا عريضًا مع والدها لم يهمها منه هو سوى إجابته عن أسئلتها المتلهفة عنه والتي حشرتها حشرًا في سياق الحديث..

أخبرها والدها أنه يعمل أخصائيًا لأمراض القلب بإحدى المستشفيات الاستثمارية الكبرى إلى جوار عيادته الخاصة والتي تمتلك قدرًا وافرًا من الشهرة، وأنه ما زال يدرس لينال درجة الدكتوراه، يعيش وحده لكن هناك من يتردد على منزله ليعتني به وبالحديقة..

أخبرها أيضًا أنه التقاه مرتين أو ثلاثًا وتبادل معه بعض الحديث..

أحست منى من حديث والدها أن تلك المحادثات القصيرة بينهما قد تركت انطباعاتٍ جيدة للغاية عند والدها..

لم يشبع هذا فضولها كثيرًا لكنها - وعلى الرغم من ذلك - ظلت ساهرةً حتى وقتٍ متأخر من الليل..

حاولت النوم.. لكن صورته كانت تقتحم أفكارها لتطير النوم بعيدًا..

وفي نفسها تساءلت..

تُرى.. هل أُعجبت به؟!

ولماذا هو بالذات؟!

ماذا يوجد فيه ولا يوجد في أي شخصٍ قابلته أو تعاملت معه من قبل؟!

طوال سنوات دراستها في الجامعة وهي تتعامل مع الكثيرين ممن هم على نفس المستوى بل وأعلى، لم يلفت أيهم حتى نظرها..

وإن كانت قد أعجبت به فعلًا، لماذا بهذه السرعة؟!

لا بد وأن هناك تفسيرًا ما، لكنها لا تعرفه..

وربما ليس هناك أي تفسيراتٍ أو أسباب.. لقد أعجبت به و.. وحسب..

ومن يبحث عن الأسباب!!

حين يتكلم القلب لابد وأن يعلو صوته على جميع الأسباب والمبررات، بل وعلى المنطق نفسه..

إنه يحكم بمنطقه هو الذي هو في حد ذاته.. اللامنطق!!

حقًا.. لا يوجد أي منطقٍ في أن تشعر أن كل رجال العالم شيء، وهو بالذات شيءٌ آخر!!

أن كل ما في الدنيا شيء، وابتسامته هو شيءٌ آخر!!

****

***** بدت في اليوم التالي حقًا مشرقةً متألقة.. تمامًا كما أرادتها بسمة، لكن لأسبابٍ مختلفة..**

لقد رأته في الصباح وهو ذاهبٌ إلى عمله..

ومرةً أخرى تشعر بنفس الشعور..

وتوالت الأيام..

وفي كلٍ، كانت ترى أو تسمع منه ما يزيد إعجابها به..

وخلال شهرٍ تقريبا، كانت منى قد أدمنت رؤيته بمعنى كلمة الإدمان.. إن اليوم لا يستحق أن يكون يومًا إلا إذا رأته خلاله.. أما إذا لم تستطع رؤيته يومًا، فالأسبوع يستحق عن جدارة أن يكون ستة أيامٍ فقط!!

شعورٌ غريب يغمرها لا تعرف له تفسيرًا..

لا تعرف حقًا إن كان إعجابًا أم شغفًا بمراقبته.. أم ربما رغبةٌ في رؤيته وحسب..

لكنه داخلها، ينمو ببطءٍ لكن.. بثقة..

إنه داخلها، يشعرها بالسعادة.. وهذا يكفيها!

لقد حفظت عن ظهر قلب معظم مواعيده، وبمراقبته المستمرة اكتشفت شيئًا آخر مهمًا للغاية..

إنه يتريض كل يومٍ ولمدة نصف ساعة من السادسة والنصف إلى السابعة صباحًا.. يركض حول المنزل أو بطول الشارع الفاصل بين منزليهما عدة مرات، يذهب بعدها إلى عمله..

كان هذا يسعدها للغاية.. إنه يمنحها نصف ساعةٍ كاملة تقضيها معه.. أو بمعنىً أدق، تراه.. وإن لم يرها هو..

مرت كل هذه الذكريات القريبة بذهنها وهي تحاول العودة للنوم، لكن هيهات..

كل لحظةٍ تذكرتها كانت تشعر بمرورها عليها مجددًا حاملةً نفس المشاعر والأحاسيس والانفعالات، لهذا لم يجد النوم سبيلًا لعقلها قط..

وعندما دقت الساعة الثامنة.. قامت تستعد للذهاب إلى الجامعة.. أمامها يومٌ طويلٌ جدًا ستتحمله راضيةً لأنها ستراه عند عودتها.. موعد رجوعها يتفق معه اليوم!

****

* ٢ *

*** أولى المحاضرات..

تجلس وبسمة متجاورتين في أحد مقاعد المدرج.. إنها محاضرةٌ في كيمياء العقاقير..

كم هي سخيفةٌ هذه المادة.. وإلى جانب سخافتها، كان الأستاذ محاضرًا غير جيدٍ على الإطلاق.. إنه يتشعب في الكثير من النقاط الجانبية غير المهمة.. يا للملل!!

إن العقاقير في حد ذاتها مملة، فما بالك بكلامها الفارغ..

يتحدث الأستاذ عن مجموعةٍ معينة من المواد ذات الأهمية الطبية تستخرج من نبات ما بعينه.. وكالمعتاد، يترك دراسة تلك المواد وتركيبها ويكثر الكلام حول النبات نفسه.. زراعته، دورة حياته، إلخ..

فعلًا شعرت بالملل!!

لم يكن هذا حالها بمفردها.. لقد انتشر الهمس بين الطلبة في المدرج مما يعني أن الكثيرين قد فقدوا تركيزهم مع محاضرهم المبجل..

كانت بسمة تحاول التركيز وإيجاد أي شيءٍ مهم فيما يقوله كي تكتبه، أما هي فقد سقطت بسهولة فريسةً لذلك الشيء الذي أصبح ملازمًا لها في الفترة الأخيرة.. الشرود..

عاد ذهنها إلى ذلك الحلم الغريب..

إنها لا تذكر منه سوى بضع لحظاتٍ متفرقة، لكنها تذكر جيدًا أنها رأته فيه!

كان هو ذلك الشخص الذي ظهر لها في النهاية..

ابتسمت من أعماقها على الرغم من دهشتها لاقتحامه أحلامها على هذا النحو..

استرجعت تلك اللحظات واتسعت ابتسامتها بما يعني أن هذا لا يقلقها على الإطلاق، بل على العكس.. يسعدها!

يسعدها أن يشغل عقلها وتفكيرها إلى هذا الحد..

سرت في جسدها قشعريرةٌ لذيذة و...

وأفاقت من شرودها بغتةً على صوت بسمة وهي تقول ضاغطة ذراعها: منى.. انتبهي.. الأستاذ ينظر إليك!

انتبهت لتجده ينظر إليها بالفعل في دهشة للحظاتٍ ثم يواصل شرحه..

قالت همسًا لبسمة: لماذا ينظر إليّ هكذا؟!

ردت بسمة هامسةً من بين أسنانها في غيظ: لأنك كنت تحدقين فيه مبتسمةً في سعادةٍ وهيام وكأنك تهيمين به حبًا!

همست في استنكار: أنا؟!!

بحنقٍ أجابتها بسمة همسًا: نعم أنت.. بالله عليك فيم تشردين؟!!

تطلعت منى إليها لحظاتٍ وهمت بقول شيءٍ ما، لكنها تراجعت وفضلت أن تنتظر حتى تنتهي هذه المحاضرة في سلام..

وعندما حدث هذا، أخذتها بسمة إلى مكانهما المفضل في ساحة الكلية وجلستا معا..

ساد الصمت لبرهة، قالت بعدها بسمة في هدوء: حسنًا.. أنا أنتظر.

نظرت إليها منى بتردد، فرأت في عينيها شلالًا من الأسئلة لم تجد أمامه سوى أن تقول في خفوت: سأخبرك.

وأخبرتها..

أخبرتها بكل شيء.. واندهشت بسمة إلى أقصى حد..

كانت تتوقع شيئًا مشابهًا ولكن ليس بهذه الصورة..

ولدقائق، طالعت منى في صمت.. وأخيرًا قالت ببطء: مجنونةٌ.. كعهدي بك!

ثم تابعت في خفوت: أريد أن أسألك سؤالًا.

ظهر التساؤل في عيني منى، فاستطردت: ماهية شعورك نحوه بالضبط؟

هزت منى كتفيها في ارتباكٍ وقالت: لا أدري.

- كيف لا تدرين؟!

- حقًا.. لا أدري.

تطلعت بسمة إلى عينيها مباشرة ثم همست: هل أحببته؟

سرت في جسدها قشعريرةٌ باردة مع ذكر الكلمة..

أحببته؟! هي؟! غير معقول!!

لكن.. أتحبه بالفعل؟

أرادت أن تهتف مستنكرة، لكن هتافها لم يتجاوز داخلها.. خفق قلبها بشدة ليمنعه..

تأملت بسمة وجهها وارتباكه.. لقد أدركت ما يدور بداخلها.. أدركته جيدًا وشعرت به..

أدركت أيضًا أن جواب سؤالها هو نعم.. نعم جدًا.. نعم للغاية.. لقد أحبته بالفعل، لكنها تخشى أن تصارح نفسها..

وفي خفوتٍ مرتبك قالت منى: كلا.. كلا بالطبع.. أنا لم أحبه بالتأكيد، ولكن.. أنا.. حقًا كلا.. لا يمكن أن أكون قد أحببته!

بنفس الخفوت قالت بسمة: ولِمَ لا يمكن؟

ردت منى في حيرة: لأنه.. أقصد لأنني...

لم تجد ما تكمل به عبارتها، فصمتت لبرهةٍ ثم قالت: حسنًا، سأشرح لك.. أنا فقط أحب مراقبته و...

صمتت ثانيةً، فاقتربت منها بسمة أكثر وأحاطت كتفيها بذراعها وهي تقول: لا يوجد تفسيرٌ آخر لما تفعلينه وما تشعرين به سوى هذا.. ثم إن الأمر ليس تهمةً حتى يستحق كل هذا الإنكار.

ثم ابتسمت مستطردة: وأنا التي كنت أتساءل ما الذي يجعلك تشردين وتهيمين في عالم الخيال هكذا.. لا أحد يشرد مبتسمًا سوى المتيمين.

ابتسمت منى بخجل في اعترافٍ واضح، وزال الكثير من توترها وارتباكها وهي تقول: ليس إلى هذا الحد.

ضحكت بسمة وقالت وهي تقلد أسلوبها: ليس إلى هذا الحد.. لقد كاد أستاذ العقاقير يصدق بالفعل أنك تنظرين له بهيام.. لم يكن يعرف المسكين أن عينيك لم تكن تراه أصلًا.

ضحكتا معًا في مرح، ثم قالت منى: بسمة.. هل تذكرينه؟ لقد رأيته معي أول مرة.

عقدت بسمة حاجبيها مفكرةً وقالت: بالطبع أذكره.. ذاك الوسيم.. إن ملامحه لا تُنسى بسهولة.. ولكن...

بترت عبارتها، فتساءلت منى: ولكن ماذا؟

أكملت بسمة بجدية: هذا ظاهره.. ماذا عن باطنه؟

- ماذا عنه؟ أخبرتك أنه....

قاطعتها بسمة: النجاح والاجتهاد في العمل ليسا كل شيءٍ في الحياة.. ماذا عن شخصيته.. ماذا عن أخلاقه؟

أجابتها بحيرة: وكيف لي أن أعرف شخصيته؟ أنا فقط أراقبه من بعيد.

- هذا هو البيت القصيد.

نظرت لها منى بعدم فهم، فاستطردت: لقد أحببته.. ثم ماذا؟ هل ستظلين طوال عمرك تراقبينه من بعيد؟

بحيرةٍ أكبر ردت منى: وماذا أفعل؟ هل أذهب إليه وأقول له بلطف: أنا أحبك.. فهل من الممكن أن.. تحبني !!

ابتسمت بسمة على الرغم منها وقالت: لم أقصد هذا، على الرغم من أنها فكرةٌ جيدة.

لكزتها منى بمرفقها، فقالت: حسنًا.. حسنًا.. كنت أعني أنه لابد وأن تخطي خطوةً إيجابيةً ما، فهو لا يعرف بمشاعرك، بل لا يشعر أصلًا بوجودك.

تطلعت منى إليها صامتة... حقًا هي لم تفكر في هذا من قبل..

لقد تحركت مشاعرها فأطلقت لها العنان دون تفكير.. لقد اكتفت بأنها سعيدة.. سعيدةٌ برؤيته.. سعيدةٌ لأنها تحبه، لكن بسمة على حق.. لا يمكن أن يستمر الأمر هكذا إلى الأبد.. لا بد وأن تفعل شيئًا ما، ولكن.. ماذا تفعل؟!

ألقى عقلها السؤال في حيرة، فتألق في عينيها وقبل حتى أن يطلقه لسانها كانت بسمة تجيب: اقتحمي حياته.. ابحثي عن فرصةٍ تتيح لك الاحتكاك به عن قرب.. إنه جاركم ولن يكون هذا صعبًا.. لابد وأن تدرسي شخصيته بل وتعرفي كل شيءٍ عنه، وعندئذٍ تقرري هل يستحق حقًا أن تمنحيه قلبك؟ وقبل هذا كله.. لا بد وأن يكون المقابل هو...

صمتت لحظةً تطلعت فيها إلى عينيها مباشرة ثم استطردت: أن يمنحك هو الآخر قلبه.

رددت منى في خفوت: يمنحني قلبه.. أنا؟!

خفق قلبها بشدة والعبارة تتكرر داخلها، بينما بسمة تواصل: نعم.. أنتِ.. إن كان يستحق حبك فلا بد وأن تشعريه به.

عادت منى إلى صمتها لبرهة، ثم لم تلبث أن قالت: تتحدثين وكأن الأمر شيءٌ عاديٌ جدًا وطبيعي.. أنا أحبه فلابد أن يحبني.. فعلًا.. تبدو المعادلة سهلةً وبسيطة.

ضحكت بسمة قائلة: طبعًا سهلة.. لا تقللي من شأن نفسك يا بلهاء، فقط فكري في الأمر.. أراهن أنه إن رآك وتحدث معك لبضع دقائق لسوف يذوب هيامًا في سحر عينيك!

ابتسمت منى على الرغم منها، فسألتها بسمة: هل تشعرين حقًا أنه يستحق؟

ردت بسرعة: طبعًا!

- وما بالك واثقةً هكذا؟

- لست أدري، لكنني أشعر بهذا حقًا.. أشعر بأنه الصورة المثالية لكل ما تمنيته وحلمت به.

مطت بسمة شفتيها بعدم اقتناعٍ وقالت: لا يوجد أحدٌ مثالي أو كامل.. لا بد من عيوبٍ ما.

- أعلم ذلك.

- حسنًا.. هل....

قاطعتها منى: كفي عن أسئلتك اللامنتهية وأجبيني.. كيف لي أن أقتحم حياته؟

هزت بسمة كتفها وقالت: هذا السؤال بالذات توجد إجابته عندك أنتِ لا عندي.

- لكني لا أعرف.

قالتها منى وقد عاودتها حيرتها، فقالت بسمة بثقة: ستعرفين.. فقط حاولي وفكري وعندئذٍ ستجدين الفرصة.. الوقت أمامك فـ....

قاطعتها منى بانفعالٍ مفاجئ: الوقت!! كم الوقت الآن؟

أجابتها بسمة في دهشة: الثالثة والنصف.. ما الذي....

قاطعتها مرةً أخرى وهي تقف حاملة حقيبتها: يا إلهي.. لقد تأخرت كثيرًا.. سوف يصل قبلي.

- من هذا؟

بتعجبٍ ألقت بسمة السؤال، فردت بتلقائية: عمرو !

تنهدت بسمة وقالت في استسلام: آه.. يبدو أنني لابد وأن أحاول اعتياد ذلك منك حتى أظل محتفظةً بالبرج الباقي في عقلي.

جذبتها منى من يدها لتنهض وهي تقول: هيا.. يجب أن أراه اليوم.

- ولمَ يجب؟

- لأني افتقدته!

- رحمتك يا رب.

نهضت بسمة والتقطت معطفها، لكن ما إن خطت بضع خطوات حتى توقفت وبدا عليها تذكر شيءٍ ما، ثم قالت: لحظة.. ماذا عن الأدوات المعملية التي نحتاج لشرائها اليوم؟

كان من الواضح أن منى قد نسيت ذلك تمامًا فقد قالت: آه.. هذا صحيح، لكن....

صمتت لحظةً تطلعت فيها لساعتها ثم أكملت في رجاء: ألا نستطيع شراءها غدًا؟

- لم يعد لدي أنبوب اختبارٍ واحد يصلح للاستخدام.

- لا يوجد لدينا أية دروسٍ عملية غدًا.. يمكننا أن نشتري ما يلزمنا بعد انتهاء المحاضرات.

- في الواقع.. قد لا آتي غدًا!

نظرت لها منى بدهشةٍ واستنكار، فابتسمت واستطردت: أقول قد.. تعرفين أني أكره محاضرة الصيدلة الصناعية وقد أرحم نفسي منها غدًا.

بدا على منى الضيق وهي تقول: لكن.. هكذا سوف نتأخر.. وكنت أريد أن....

قاطعتها بسمة بضحكةٍ قصيرة قائلة: حسنًا حسنًا.. اذهبي أنت.. يبدو أنه قد أصبحت لديك مواعيدٌ مهمة!

ابتسمت منى وقالت وهي تلوح بيدها وتتحرك مبتعدةً بالفعل: اتفقنا.. سأسبقك أنا الآن.. إلى اللقاء.

تبعتها بسمة بنظرها مندهشة، ثم غمغمت ضاحكة: إنها لم تتردد حتى!

****

*** لم تتأخر كثيرًا في المواصلات..

كانت منى تمشي في الطريق المؤدي لمنزلها وهي تفكر فيما حدثتها به بسمة.. تعلم أنه منطقي، لكن السؤال مازال بلا إجابة..

كيف.. كيف؟

مطت شفتيها بحيرة ثم حدثت نفسها في اعتراض: تنصحني بشيءٍ ثم لا تخبرني كيف أفعله!

تطلعت إلى ساعتها في قلق.. إنه عادةً يعود من عمله في هذا الوقت تقريبًا..

وفي توتر، واصلت مشيها تفكر في أي طريقةٍ تمكنها من اختلاق فرصةٍ للتحدث إليه..

تناهى إلى مسامعها صوت سيارة قادمةً من بعيد فالتفتت، ليخفق قلبها باضطراب..

لم تكن سيارته هي القادمة، بل التي تليها..

شملها ارتباكٌ عجيب حتى أنها توقفت على جانب الطريق ولم تدرِ ماذا تفعل.. إنه سيمر بسيارته بسرعة لأن منزله مازال في نهاية الشارع، وهذا يعنى أنها لن تراه لأنه سيصل قبلها بدقيقةٍ أو اثنتين..

عادت تمط شفتيها في سخط وهي تقول: حظي سيء، أعلم هذا.. أبذل قصارى جهدي حتى أستطيع رؤيته ولا أكاد أفعل، بل ومطلوبٌ منى أن أحاول اقتحام حياته.. هذا ليس عدلًا!

" اقتحمي حياته ".. " اقتربي منه أكثر ".. " حاولي "

ترددت عبارات بسمة داخلها وتكررت، وهي لا تزال متوقفةً على جانب الطريق، بينما السيارة تقترب..

وبمنتهي الارتباك قالت وفكرةٌ مجنونة تقفز إلى عقلها: حسنًا يا بسمة.. تريدين مني أن اقتحم حياته..حسنًا سأفعل.. هكذا..

دفنت بصرها بدفتر محاضراتها حتى مرت السيارة التي أمامه ثم.. فجأةً وبلا مقدمات، عبرت الطريق وفي مسار سيارته تمامًا!

الحق أنها – وعلى الرغم من أنها فعلت ذلك بإرادتها - كادت تموت رعبًا أو بسكتة قلبية.. هذا لأنها اكتشفت بعد فوات الأوان أن المسافة التي تفصلها عن السيارة صغيرة.. صغيرةٌ

للغاية، وغير كافيةٍ على الإطلاق لكي يتوقف قبل أن يصطدم بها، إذ يبدو أنه زاد السرعة في اللحظة التي أبعدت فيها عينها عن الطريق!

شل تفكيرها تمامًا وهي ترى السيارة تندفع نحوها بسرعتها وصريرها يدوي في أذنها بعنفٍ شديد جعلها تتجمد في مكانها وتغلق عينيها في قوة وصرخة رعبٍ قوية تحتبس داخلها في انتظار الارتطام..

الصرير يتعالى.. ويتعالى، ثم.. ارتطمت بها السيارة..

ليس بمقدمتها، بل بجانبها..

كان عمرو قد فوجئ بالفعل باندفاعها الأخرق عبر الطريق، فتحركت قدمه بسرعة تضغط على مكابح السيارة بكل قوته، لكن بالنسبة إلى السرعة التي كان ينطلق بها فالمسافة التي تفصله عنها أصغر من اللازم..

أدرك أن الارتطام حتمي إلا إذا...

وبدون تفكيرٍ أكثر، انحرف بالسيارة بزاويةٍ شديدة الصعوبة دون أن يتخلى عن اعتصاره للمكابح، فدارت السيارة حول نفسها في عنف ثم توقفت..

توقفت بعد أن دفع جانبها منى دفعةً غير خطيرة سقطت على إثرها أرضًا مطلقةً صرختها وهي تخفي رأسها بين ذراعيها ومنتظرةً أن تموت!

صحيحٌ أنها لم تشعر سوى بآلامٍ بسيطة وهي تسقط، إلا أن الرعب يفعل الكثير!

لم يكن عمرو يدرك مدى ارتطام جانب السيارة بها، لذا وبمجرد توقفها، قفز من السيارة قفزًا واندفع نحوها هاتفًا في توترٍ شديد: هل أنتِ بخير؟

قالها وانحنى يفحص جسدها ببصره يبحث عن إصابةٍ هنا أو هناك، لكنها بدت سليمةً معافاة رغم ارتجافها الشديد..

لم يصله منها جوابًا، فقال بتوترٍ أكبر: هل يمكنك الحركة؟

تحركت تحاول النهوض بالفعل فالتقط ذراعها في رفق يعاونها على ذلك وهو يقول محاولًا دفع أكبر قدرٍ من الهدوء في صوته المتوتر: الحمد لله.. لم تصابي بسوء.. أليس كذلك؟

حدقت فيه وفي السيارة المتوقفة بجوارهما بعرض الطريق وبدا أنها لم تستوعب ما حدث.. حاولت بنفسٍ عميق تهدئة نفسها بلا فائدة، ظل شعور الهلع يسيطر عليها وقلبها يدق داخلها كالطبول..

رفعت عينيها إليه مرةً أخرى، فوجدته ينظر إليها بقلقٍ وترقب..

حاولت أن تنطق بأي شيءٍ ولم تستطع.. فأومأت برأسها تجيب سؤاله أن بلى..

زفر بقوة وهمّ بقول شيءٍ ما، لكن نفير إحدى السيارات المارة جعله يستقل سيارته ويعدل من وضعها ليسمح لها بالمرور..

كانت منى تراقبه في توترٍ واضطراب تحول إلى دهشة عندما أوقف السيارة على جانب الطريق إلى جوارها، ثم غادرها ودار حولها ليفتح بابها الخلفي ويشير إليها أن تجلس قائلًا بصوتٍ أكثر هدوءًا: استريحي قليلًا.

لم تتوقع منه ذلك فطالعته بمزيدٍ من الدهشة وبدا عليها التردد، فمنحها ابتسامةً هادئة وهو يمسك يدها ويجذبها في رفق..

ارتجفت يدها للحظة، ثم استكانت بين أصابعه وقشعريرةٌ لذيذة تسري في جسدها كله وتدفع مشاعرها للتدفق..

مشاعرها التي لم تعد تعرف متى وجدت ولا كيف نمت!

ومع تدفقها، انمحت مشاعر الرعب والتوتر والفزع التي عاشتها منذ لحظات..

لم تعد تشعر سوى به.. هو فقط.. وبيده التي تحيط يدها الآن..

خفق قلبها أكثر وهي تتركه يجذبها ثم جلست في مواجهته على طرف المقعد..

كان انفعاله وتوتره تجاه الموقف قد هدأ كثيرًا، لكنه أحس أنها مازالت منفعلةً بشدة، فيدها مازالت ترتجف كعصفورٍ صغير في صقيع ليلةٍ ممطرة..

دفعه هذا إلى أن يستند إلى باب السيارة المفتوح ويتطلع إليها مانحًا إياها ابتسامته الهادئة علّها تهدأ..

تطلعت إليه بدورها وحملت نظراتها كل ما يكنه قلبها من مشاعر..

لم تكن تنظر له بهيامٍ ولا حتى تبتسم، بل بالعكس، كانت تقطب بين حاجبيها وتحمل ملامحها تعبيرًا جادًا يشوبه توترٌ وارتباكٌ واضحان.. لم تنظر إليه من هذه المسافة من قبل..

من قال إنه وسيم؟! إنه أوسم رجال الدنيا على الإطلاق!

هذا ما تشعر به ولا يهمها رأي أي شخصٍ يرى غير ذلك !!

أربكته نظراتها قليلًا.. لقد استقبل توترها وارتباكها لكنه أحس بشيءٍ لم يفهمه.. ربما تكون مازالت فزعةً ومنفعلة.. لم يدر لمَ شعر أيضا أنها تبدو هشةً رقيقة وتحتاج إلى المساعدة..

ترك باب السيارة ثم استند بأحد ركبتيه على الأرض ليصبح في مستواها، وبصوتٍ هادئ سألها: هل أنتِ بخيرٍ الآن؟

حدقت في عينيه السوداويين اللتين تحملان سؤاله وأرادت أن تجيب، لكنها وجدت نفسها تومئ برأسها ثانيةً في صمت وعيناها متعلقتان به..

عاد يسأل: متأكدة؟

أخيرًا استطاعت أن تقول في خفوت: أجل.

صمت يمنحها وقتًا لتهدأ أكثر، لكنها في الواقع كانت تزداد انفعالًا.. قلبها يختلج بين ضلوعها، ومع كل لحظةٍ تمر تتزايد خفقاته..

أخذت شهيقًا عميقًا وخفضت عينيها تحاول السيطرة على مشاعرها.. بحثت في عقلها عن أي شيءٍ يمكنها قوله.. آه.. لا يوجد أنسب من أن تعتذر إليه عن الكارثة التي كادت تحدث بسببها..

رفعت عينيها إليه وهمت أن تقول له أنها....

- أنا آسف.

كانت هذه عبارته لا عبارتها!

ارتفع حاجبها في دهشة وهو يستطرد: حقًا لم أقصد إفزاعك، لكنك عبرت الطريق فجأةً وبدون انتباه.

لم تدرِ بما ترد.. إنه يتحدث بجديةٍ فعلًا ولا يحمل كلامه أي سخريةٍ أو تلميح إلى أنها هي المخطئة..

إنه يعتذر..

تلقى بنفسها أمام سيارته وتكاد تسبب له مصيبة، فيعتذر لأنه أفزعها..

من هذا الرجل؟! أهو كباقي البشر؟!!

حدّقت فيه غير مصدقة، ثم قالت بصوتٍ خافتٍ مهزوز من شدة الانفعال: لقد كنت شاردة، وتصورت أن الطريق خالٍ.

ابتسم مشفقًا من تلك الهزة التي حملها صوتها ثم اعتدل قائلًا: لا عليك.. حمدًا لله أن الأمر مر في سلام.

تطلعت إليه مجددًا وشعرت أنها تريد أن يظل أمامها هكذا إلى الأبد، لكنها لم تلبث أن نهضت هي الأخرى، وبصعوبةٍ استطاعت أن تقول له: أعتذر أنا أيضًا.. لقد كدت أسبب لك الكثير من المشكلات.

كرر بابتسامته العذبة: لا عليك.

ثم استطرد: هل تحبين أن أُقلك إلى أي مكان؟

خطر ببالها أن تخبره أنها جارته، لكنها ولسببٍ ما لم تشعر أن الوقت مناسبٌ لذلك فقالت: أشكرك.. منزلي ليس بعيدًا.

قال في بساطة: حسنًا.

وقفت على جانب الطريق محتضنة دفتر محاضراتها تراقبه وهو يستقل سيارته، وقبل أن ينطلق بها سمعته يقول: انتبهي وأنتِ تعبرين الطريق.

ثم ابتعد حتى اختفى في نهاية الطريق..

لقد ذهب، لكنه لم يذهب وحده.. لقد أخذ قلبها معه..

من قال أنها تحبه؟ إنها تعشقه، بل تذوب في هواه.. هي التي لم تتصور قط أنها تحب، تجد نفسها قد تجاوزت هذه المرحلة بكثير..

مشت في بطءٍ وشرود حتى وصلت إلى المنزل، وعندما رأت سيارته المتوقفة ابتسمت وقالت: نصائحك مثمرةٌ للغاية يا بسمة.

صعدت لمنزلها وألقت تحيةً مرحة على والديها قبل أن تتجه لغرفتها كما تفعل دائمًا، لكن مع اختلافٍ جوهري كبير..

هناك ابتسامة..

ابتسامةٌ ليست كأي ابتسامة.. ابتسامةٌ تنبع من قلبٍ يخفق بطاقةٍ بلا حدود..

وطوال يومها، لم تفارق ابتسامتها شفتيها ولم يتبدد مرحها لحظة، حتى أن أمها سألتها: منى.. ماذا هناك؟! تبدين مسرورة جدًا على غير العادة.

نظرت إلى أمها في دهشة وقالت: أنا؟!

أومأت والدتها برأسها إيجابًا وهي تتطلع إلى عينيها مباشرة محاولةً استشفاف ما يدور بداخلها، فأجابتها في ارتباك: لا شيء معين يا أمي.

ثم استطردت في فضول: لكن لماذا شعرت أني على غير العادة؟

قالت أمها: لست أدري.. تبدين مرحة للغاية، وجهك يبدو مضاءً وابتسامتك مشرقة.

ضحكت منى وقالت وهي تطبع قبلةً على وجنة أمها: وما الغريب في ذلك يا أمي.. أنا دائمًا مرحة!

بدت الأم غير مقتنعة، لكنها تجاوزت ذلك وقالت مبتسمة: حسنًا.. أيًا ما كان الأمر فأنا مسرورةٌ لسرورك بالتأكيد.

****

*** اضطرت بسمة للحضور في اليوم التالي رغم نيتها المسبقة للتغيب، بعد أن هاتفتها منى مساءً وأخبرتها بحاجتها إلى التحدث معها في أمرٍ هام لا يمكن مناقشته عبر الهاتف..

كانت المحاضرات متلاحقة فلم تستطيعا التحدث إلا بعد انتهائها..

- والآن.. ما هو الأمر الهام الذي لا يحتمل التأجيل؟

ألقت بسمة تساؤلها بفضولٍ بعدما اتخذت كلتاهما مجلسًا في ساحة الكلية..

ابتسمت منى في خجل، فقالت بسمة مداعبة: لا تقولي لي أن الدكتور عمرو قد تقدم لخطبتك بمجرد أن أخبرته العصفورة أنك تكنين له المشاعر سرًا!

قذفتها منى بمعطفها الأبيض قائلة: لا مجال للمزاح من فضلك.. الأمر فعلًا جاد.

التقطت بسمة المعطف وقالت ضاحكة: حسنًا.. حسنًا.. كلي آذانٌ مصغية.

- لقد تحدثت معه.

- من؟ عمرو ؟

- أجل.. عمرو.. ومن غيره!

ارتفع حاجبا بسمة بدهشةٍ وقالت: بهذه السرعة.. هذا مذهل.. ولكن كيف؟

- ألم تنصحيني بمحاولة اقتحام حياته.. حسنًا.. لقد فعلت.

نظرت لها بسمة بدهشة أكبر، فاستطردت مبتسمة: ألقيت بنفسي أمام سيارته.

- ماذا؟!

هتفت بها بسمة في استنكار، فقالت منى ببساطة: هو ما سمعته.

- تمزحين.. صحيح؟

- بسمة.. لم أطلب منك الحضور إلى الجامعة اليوم لأمزح في أمرٍ كهذا.

- لا تمزحين؟! إذًا كانت السيارة متوقفة.

- كلا بالطبع.. كان يقودها بسرعة.

- منى.. كفى .....

- أقسم أني لا أمزح.

قالتها منى في حدة، فطالعتها بسمة بعدم فهم وشعرت أنها تبدو جادةً بالفعل.. فقالت باندهاش لا يخلو من القلق: إذًا انطقي.. هات كل ما لديك، وبالتفصيل.

وحكت منى..

****

* ٣ *

*** عاد عمرو من عمله مبكرًا للغاية عن المعتاد وألقى نفسه على أقرب مقعدٍ في ردهة منزله.. لم يكن مزاجه رائقًا اليوم.. لقد أحس فجأةً بالضيق والإرهاق على نحوٍ جعله يوقن بأنه لن يستطيع تحمل اليوم حتى نهايته..

منذ فترةٍ طويلة، وضغط العمل في المستشفى في تزايدٍ مستمر.. مهامٌ كثيرة مسئولة منه، ومهامٌ أكثر يشرف عليها.. وكلما حاول أن يبذل مجهودًا أكبر، شعر أن مسئولياته تتزايد هي الأخرى لتبتلع كل محاولاته.. ثم إن هناك العيادة أيضًا، والتي يكافح حتى يعطيها حقها من وقته واهتمامه اللذين استولى عليهما العمل في المستشفى تمامًا..

لم يكن هذا بالضبط ما يثير ضيقه.. إنه يحب عمله كثيرًا، بل يعشقه ولا ينشغل بأي شيءٍ سواه، لكن العمل ومنذ فترةٍ طويلة أيضًا، يسرى على وتيرةٍ واحدة.. وتيرةٍ مستفزة.. نفس الأشياء تحدث كل يوم.. نفس الأشياء يفعلها كل يومٍ وفي نفس التوقيت تقريبًا، ثم لم يعد ذلك يقتصر على العمل فقط، لقد تسرب إلى حياته نفسها دون أن يشعر، وهذا بالنسبة له منتهي الرتابة والملل.. منتهي الضيق والإرهاق..

إنه متعب.. لكنه لا يحتاج إلى الراحة بقدر ما يحتاج إلى التمرد على كل ما هو معتاد..

لكن كيف؟

هل يطلب عطلةً لبضعة أيام يتمرد فيها على روتينه المعتاد ويجدد نشاطه؟ سيكون هذا رائعًا! لكنه في نفس الوقت ليس سهلًا بالتأكيد ويحتاج إلى مبررٍ قوي، والمبرر الوحيد المقبول هو أن يتحول فجأةً من كونه أحد الأطباء ليصبح أحد المرضى!!

ماذا يفعل إذًا؟!

أخذ يفكر في عمقٍ حتى برقت فجأة فكرةٌ ما في ذهنه..

لقد كان مدير المستشفى يحدثه منذ أيامٍ عن رغبته في انتداب أحد الأطباء للإشراف على قسم القلب في فرع المستشفى الجديد بالإسكندرية.. كان يطلب منه مساعدته في اختيار طبيبٍ مناسب يستطيع تنظيم الأمور هناك لفترة، دون أن يسبب اختلال العمل هنا.. ولقد وقع اختياره على أحدهم بالفعل، باسل صديقه، لكنه لم يخبر المدير بعد، هذا لأن باسل نفسه لم يستحسن الفكرة..

كان ينوي محاولة إقناعه مرةً أخرى، لكنه أيقن الآن أن هذه هي أنسب فرصةٍ له هو للهروب..

لم يكد الأمر يستقر في ذهنه، حتى اتجه مباشرةً نحو مكتبه وفتح حاسوبه النقال يلقي نظرةً على التقارير الخاصة بالحالات الهامة التي يتابع علاجها..

انهمك في مراجعتها بضع دقائق، ثم قال وهو يمط شفتيه: أسبوع.. لا يمكنني التغيب عن هذه الحالات أكثر من أسبوعٍ واحد.

تراجع في مقعده يدرس قراره على كافة أوجهه، ثم لم يلبث أن غمغم: حسنًا.. يبدو هذا كافيًا.

التقط هاتفه الخاص واتصل بمدير المستشفى.. كان بالطبع يتوقع غضبه من انصرافه المبكر اليوم، كما توقع ازدياد ثورته وهو يلقي إليه اقتراحه بأن ينتدبه هو لمستشفى الإسكندرية، لكنه استوعب ثورته هذه بأسلوبٍ لبق وأخرج له الأمر في صورةٍ منطقية.. وطوال نصف ساعةٍ كاملة، امتد النقاش بينهما وانتهى بالنهاية المطلوبة..

وبموافقة المدير، تألقت على شفتي عمرو ابتسامة ظفر وقال: أشكرك يا سيدي.. أشكرك كثيرًا.

أنهي المحادثة واتسعت ابتسامته وهو يقول: عطلة.. أخيرًا سآخذ عطلة.. هذا رائع.

لم يكن الأمر فعليًا عطلةً لا من قريبٍ ولا من بعيد، بل عملٌ أيضًا وربما أكثر إرهاقًا، لكنه في مكانٍ مختلف وسط وجوهٍ مختلفة.. ويبدو أن هذا يمثل له منتهى الترفيه!

****

*** مجنونة.. أنت مجنونة.. لقد قلت لك اقتحمي حياته لا أنهي حياتك!

قالتها بسمة للمرة الألف وهي تهز رأسها غير مصدقة، بينما تسيران معًا عائدتين إلى منزلهما..

كانت بسمة قد استنكرت ما فعلته منى بشدة، لكنه لم يكن استنكارًا خالصًا.. كان استنكارًا تخالطه الدهشة و...

والإعجاب!

دهشت بالطبع من تصرفها المتهور، أما الإعجاب فكان لشيءٍ آخر..

لقد أعجبت بسمة بتلك الطاقة الصافية التي نبعت وتلك المشاعر الدافئة التي تدفقت واندفعت لتشق لها طريقًا وسط صحراء الحياة وتعقيداتها..

ولقد استقبلت منى ذلك جيدًا.. استقبلته وأحسته وأسعدها هذا كثيرًا، لهذا لم تغضب من قصائد الاستنكار والتعنيف التي ألقتها بسمة على مسامعها، بل إنها قاطعتها قائلة:

بسمة !

- نعم.

- أنا سعيدة!!

- الكارثة أنني أعرف ذلك!

- وأنت.. معجبةٌ بما فعلت.

- الكارثة أنك تعرفين ذلك!

- ماذا هناك إذًا؟!

- لست أدري.. لقد أذهلتني بالفعل.. لقد أردت أن يعرفك لكن ليس بهذه الطريقة.. ماذا لو أصابك مكروهٌ يا حمقاء؟ ومازالت لم أفهم، لماذا لم تخبريه أنك جارته؟

ردت منى في خفوت: لا أعلم.. شعرت بذلك وحسب.

تنهدت بسمة باستسلام، ثم قالت: وماذا تنوي أن تفعلي الآن؟

- لا أعرف بالطبع.. لقد كان ذلك وليد اللحظة.

- أيًّا كان ما سيجول بخاطرك.. أرجوك، ابتعدي عن سيارته.. لا أحب أن أفتح الجريدة يومًا لأرى صورتك في صفحة الحوادث.. المرة الأولي مرت في سلام، ولكن ربما لا يستطيع تفاديك مرةً ثانية.

- مرةً ثانية؟ هذا مستحيلٌ بالطبع!

قالتها منى في استنكار، فأكملت بسمة: أما في المرة الثالثة فسيطيح بك عمدًا بالتأكيد حتى لا يراك في طريقه مرةً أخرى!

- أتظنيني بلهاء؟

أومأت بسمة برأسها بقوة عدة مرات، فضحكت منى وقالت: هكذا إذًا.. حسنًا سنرى من....

قطعت عبارتها بغتة ثم قالت في انفعال: لقد عاد.

كانتا تريان المنزل من بعيد وأمامه سيارته السوداء متوقفة، فقالت بسمة في دهشة: وماذا في هذا؟!

- إنه يعود اليوم متأخرًا.

- مواعيده ليس قوانين على ما أظن.

- قالت منى في ضيق: أعلم هذا ولكن.... ولكن هكذا لن أراه اليوم!

- ليس اليوم.. إذًا غدًا.

لاذت منى بالصمت والضيق يترك بصمته على ملامحها، بينما تحاول ابتلاع تلك المعادلة وتقبلها..

ليس اليوم.. إذًا غدًا.

****

***ظلت منى ساهرةً على مكتبها الصغير حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل تلخص بعض المحاضرات.. كانت منهمكةً في رسم الصيغة الكميائية لأحد المركبات الدوائية معقدة التركيب عندما أعلن قلمها فجأةً نفاذ حبره..

التقى حاجباها وهي تتطلع إلى القلم وأنبوبه الفارغ قبل أن تلقي به جانبًا..

فتحت درج المكتب تبحث عن قلمٍ غيره فلم تجد.. واصلت بحثها في باقي الأدراج قائلةً في سخط: لماذا ينتهي كل شيءٍ في هذه الدنيا في وقتٍ غير مناسب.

وقعت يدها على قلمٍ آخر تحت رزمةٍ ضخمة من الأوراق، فأخرجته مندهشة.. كان قلم حبرٍ لامع اشترته منذ فترة، لكنها فقدته قبل أن تستخدمه، ويبدو أنه كان مختبئًا في درج المكتب طوال الوقت..

أزاحت غطاء القلم وخطت بضع خطوطٍ بحبره الوردي الذي تسبح فيه مئات الأجسام الدقيقة اللامعة مكسبةً إياه منظرًا غايةً في الأناقة والرقة..

ابتسمت وهي تحرك الورقة في اتجاه الضوء متأملةً الانعكاسات اللامعة التي تألق بها الحبر على سطحها، ثم قالت: قلمي الجميل أخيرًا وجدتك، لكنك حقًا لا تصلح للمذاكرة.

قامت من مكانها لتقف أمام النافذة تتأمل المكان تحت أضواء أعمدة الإنارة، ثم همست وهي تداعب القلم بين أصابعها: إنك تصلح لكتابة أشياءٍ أخرى.. أشياء أكثر أهمية.

قالتها و عقلها يلفظ المركبات الكميائية جميعها لتحتله فكرةٌ مجنونة.. وخلال ثوانٍ، قررت وضع ما جال بخاطرها موضع التنفيذ.

عادت إلى مكتبها بحماس وأخرجت ورقةً بيضاء مصقولة، قسمتها إلى أربعة أجزاءٍ متساوية، وضعت واحدًا منهم أمامها وأخفت الباقين بعناية في درج المكتب.

ابتسمت وهي تلتقط القلم مغمغمة: ستقتلني بسمة لو عرفت أنني فعلت ذلك.

كانت الورقة المربعة أمامها لا تكفى سوى لثلاث أو أربع كلماتٍ على الأكثر، لكنها لم تكن تريد سوى كتابة كلمةٍ واحدة.. وبعد ترددٍ دام لبضع لحظات، وبخطٍ أنيقٍ مزخرف، كتبتها.. انهمكت في زخرفتها لدقائق عدة، وعندما انتهت كانت تبدو رائعةً بحق..

طوت الورقة بعناية ثم اتجهت بها نحو النافذة، تفكر في سبيلٍ لإتمام ما يدور بذهنها..

"ما دام الأمر بدأ بجنونٍ فليظل على جنونه! "

هذا ما حدثت به نفسها قبل أن تخرج من غرفتها وتعود بعدها بثوانٍ وهي تمسك بمشبك غسيلٍ أحمر اللون!

ضحكت وهي تطبق المشبك على طرفي الورقة ثم قالت: معذرةً يا عمرو.. لون المشبك صدفةٌ لا قصد.

تأملت ما صنعته للحظات ترددت خلالها مرةً أخرى وكادت تعود لتلقي به في أحد أدراج المكتب، لكنها حسمت أمرها فجأة واتجهت إلى النافذة بعد أن أطفأت الأنوار.. فتحتها على مصراعيها والتقطت نفسًا عميقًا وألقت المشبك بكل قوتها..

كانت تريده أن يعبر السور إلى أي مكانٍ بالحديقة حيث يمكن أن يراه عمرو بوضوح..

ولقد طار المشبك بحمله إثر دفعتها عبر الشارع، ثم بدأ رحلة هبوطه والتي بدا من الواضح أنها ستنتهي به قبل أسوار الحديقة بكثير، لتهمس هي في انفعال: كلا.. بضعة أمتارٍ أخرى أرجوك.

لكن المشبك سقط على بعدٍ من السور، على سقف السيارة القابعة أمامه، ثم تدحرج على زجاجها الأمامي وأخيرًا استقر على مقدمتها.

شعرت منى بضيقٍ بالغ، فضربت الحائط بقبضتها في قوة على نحوٍ آلمها فتأوهت..

وفي غيظ، تطلعت إلى المشبك الذي بدا بلونه الأحمر واضحًا حتى من هذه المسافة، وقد انحشر بين الزجاج وغطاء مقدمة السيارة..

بعد لحظات، شعرت أن الأمر ليس بهذا السوء.. من الممكن جدًا أن يظل المشبك كما هو ويراه عمرو عندما يستقل سيارته في الصباح..

مطت شفتيها في ضيق والاحتمال الثاني يفرض نفسه.. من الممكن أيضًا أن يطيره الهواء بعيدًا قبل ذلك، هذا بالطبع إن تجاهلت أن هناك مارةً في الطريق لهم عيونٌ وفضول.

زفرت بقوة، ثم أغلقت النافذة وعادت إلى مكتبها لتكمل مذاكرتها، لكنها حقًا لم تستطع التركيز وذهنها لا يكف لحظةً واحدة عن السؤال..

ترى هل...؟!

****

*** السادسة صباحًا..

تلقى الشمس بأولى أضوائها عبر الأفق، فينقشع الظلام رويدًا رويدًا.. الهدوء والسكون يخيمان على المكان ولا صوت سوى زقزقة العصافير على غصون الأشجار..

شق ذلك السكون بغتةً صوت بوابةٍ حديدية تفتح، ليخرج منها رجلٌ يرتدي سترةً سوداء جلدية أنيقة، ويحمل حقيبةً متوسطة الحجم وضعها أمامه على الأرض واستدار ليغلق البوابة بصوتٍ أكثر ارتفاعًا بدا واضحًا للغاية وسط السكون الذي يسبح فيه المكان على نحوٍ جعله يغمغم: يا لكِ من بوابةٍ مزعجة.

أخرج مفاتيح سيارته وأودع حقيبته مقعدها الخلفي، ثم وقف يلتقط أنفاسًا عميقة من هواء الصبح النقي..

مرر أصابعه في شعره وشد قامته محاولًا نفض الخمول عن جسده وقال مبتسمًا: هيا يا عمرو.. ابدأ عطلتك بنشاط.

قالها ودار حول السيارة.. وما إن همّ بفتح بابها الأمامي حتى لمح ذلك الشيء الأحمر، فترك مفاتيحه معلقةً في الباب ومد يده ليلتقطه مغمغمًا: ما هذا بالضبط؟!

ارتفع حاجباه دهشةً وهو يمسك بالورقة ومشبكها قائلًا: مشبك غسيل!

تلفت حوله محاولًا استنتاج كيف سقط هذا الشيء على سيارته، ثم وفي فضول، أزال المشبك وهو يقول: لم أرَ من قبل مشبك غسيل أحمر اللون!!

فتح الورقة المطوية فارتطم بصره بمحتواها الصغير.. الصغير جدًا.. وعلى الرغم منه، سرت في جسده قشعريرةٌ خفيفة وحاجباه ينعقدان مرددًا: أحبك؟!

وفي حيرةٍ قال: من يحب من؟!

وبالطبع لم تكن هناك لسؤاله إجابة..

طالع الورقة الصغيرة بصمتٍ دام لبرهة، ثم لم يلبث أن هز كتفه وقال مبتسمًا: يبدو أن سيارتي العزيزة قد اعترضت خطأً طريق مراسلةٍ غرامية.

أعاد المشبك لمكانه واستطرد ضاحكًا: ويبدو أن المشبك قد أثبت أنه وسيلةٌ فاشلة لتوصيل الرسائل.

فتح باب السيارة واستقر على مقعده خلف مقودها مغمغمًا وابتسامته تتسع: هؤلاء المراهقون.. ما ألذهم.

تطلع مرةً أخرى إلى المشبك وورقته المستقرة بين أصابعه.. ودون أن يرى سببًا لذلك، أزال المشبك وفتح الورقة متطلعًا إليها مجددًا..

لكم هي جميلةٌ الكلمة.. معنًا وشكلًا.. ثم إنها مكتوبةٌ بطريقةٍ غير عادية وبخطٍ بالغ الأناقة، ومزخرفةٌ بعناية إلى الحد الذي يُشعر المرء بأن كاتبها يعنى كل حرفٍ فيها، ناهيك عن اللون الوردي المتألق الذي يحمل طابعًا أنثويًا واضحًا.

" مثل هذه الورقة لا يستحق أن يُلقى أرضًا "

كان هذا ما جال بخاطره وجعله يضع الورقة في جيب سترته الداخلي ويلقى بالمشبك في درج السيارة، قبل أن يغلق الباب لتنطلق السيارة على الفور بادئة رحلتها الطويلة إلى الإسكندرية والتي ستنتهي بعد أسبوعٍ كامل.

ويا للحظ.. ففي نفس الوقت التي اختفت فيه السيارة في نهاية الشارع فُتحت النافذة المواجهة للمنزل ليطل منها وجه منى المتلهف التي ما إن وقع بصرها على موقع السيارة الخالي، حتى تلاشت لهفتها لتحل محلها دهشةً استمرت لثوانٍ، ثم لم تلبث أن تحولت إلى حيرةٍ وضيقٍ بالغ..

أغلقت النافذة بعصبية، وأخذت تدور في أنحاء غرفتها قائلةً في حنق: أين ذهب مبكرًا هكذا؟ الشمس بالكاد أشرقت.

لم تجد لسؤالها إجابة، فازدادت حنقًا..

جلست على طرف الفراش ولاذت بالصمت.. يبدو بالفعل أن مواعيده كلها قد تغيرت..

" لماذا لم يتريض اليوم كما يفعل دائمًا؟! وأين رسالتي؟ "

كان هذا ما تساءلت به وحنقها يعاودها..

اتجهت إلى النافذة ثانيةً وبحثت بنظرها عن أي شيءٍ أحمر ملقى أرضًا فلم تجد..

ندت منها تنهيدةٌ عميقة تبعتها ارتجافة برد مع ارتطام الهواء البارد المندفع عبر النافذة بوجهها.. ورغم ذلك، ظلت حيث هي لدقائق عدة، وعيناها تتابعان الأفق الذي تلون بأضواء الشروق..

كان المشهد رائعًا، لكنها لم تكن تشعر بذلك.. كان عقلها يسبح بأفكاره بعيدًا عما تراه عيناها..

لقد مر يومٌ كامل .. يومٌ كامل بنهاره وليله وساعاته الأربع وعشرين..

زفرت بقوة تستنكر نفسها وتعدل استخدامها للمصطلحات.. إنه يومٌ واحدٌ فقط!

أجل.. يومٌ واحدٌ فقط..

لماذا تشعر إذًا أنها اشتاقت إليه ؟!

لماذا تشعر أنها تفتقده ؟!

لم تعد تفهم نفسها حقًا..

لماذا يهمها أن تصله رسالةً لا يعرف من مرسلها ؟!

في ماذا تأمل؟

أتأمل حقًا في إيقاظ مشاعره وتنبيهها.. في إخبارها أن هناك من يبحث عنها.. من يحتاجها..

في إخباره أن هناك من على استعداد أن تمنحه قلبها كله، فقط لو أشار قلبه..

يا لها من حمقاء!

****

* ٤ *

*** ابتسمت بسمة في مرح وهي تلقى التحية على زميلاتها متجهةً بخطواتٍ سريعة إلى مدرج المحاضرات ترافقها منى والتي بدت صامتةً متجهمة، وعلى ملامحها إرهاقٌ يوحي بأنها لم تنل قسطًا وافرًا من النوم..

تفضلان دائمًا الابتعاد عن الزحام، لذا انتقت بسمة مكانًا في آخر المدرج وجلست مفسحةً لمنى مكانًا بجوارها..

ساد الصمت لحظات.. كانت بسمة تدرك منذ أن وقعت عيناها على منى أن الـ " د. عمرو " قد أخلف مواعيده مرةً أخرى لليوم الرابع على التوالي.. كل هذا التجهم والاكتئاب على وجهها لا يوحي إلا بذلك..

فضّلت في الأيام السابقة عدم مناقشة الأمر خاصةً ومنى تلوذ بالصمت معظم الوقت، إلا أنها بدأت تشعر بالقلق عليها من هذا التعلق الزائد عن الحد..

رمقتها بنظرةٍ جانبية، ثم قالت: هل تعلمين ما يتردد في ذهني الآن؟

مطت منى شفيها وقالت بضيق: أني حمقاء.. حسنًا.. أعرف هذا.. ماذا هناك أيضًا؟

ضحكت بسمة على الرغم منها وهزت رأسها نافيةً ثم قالت: كلا.. هو شيءٌ آخر..

نظرت لها منى بصمتٍ وتساؤل، فسحبت دفترها من أمامها وخطت.. "الحب مغامرةٌ كبرى.. إبحارٌ ضد التيارِ"

تطلعت منى إلى ما كتبته بينما تكمل في خفوتٍ وجدية: وعلى من يخوض مغامرةٍ كهذه أن يكون قويًا.. وصبورًا.

تنهدت منى وقالت بخفوتٍ مماثل: سأحاول.. أعدك حقًا بأن أحاول.

كان المحاضر قد دلف إلى المدرج معلنًا انتهاء الأحاديث الجانبية، فصمت الجميع وبدأت المحاضرة.

****

*** جهدٌ كبير ذلك الذي بذله عمرو خلال الأيام الماضية في المستشفى الجديد.. وعلى الرغم من أن العمل كان شاقًا ومرهقًا، إلا أنه كان سعيدًا بما يفعل، بل إنه شعر أن حماسه ونشاطه تجاه العمل قد تجددا بالفعل.. يكفي أنه يرى ويتعامل كل يومٍ مع وجوهٍ جديدة في مكانٍ جديد، ثم إن شخصيته القوية ومرحة الدائم قد جذبا إليه الجميع على نحوٍ جعلهم يرحبون به وبوجوده..

كانوا يسمونه في البداية " الطبيب الجديد " ، لكنهم لم يلبثوا أن أطلقوا عليه فيما بينهم لقب " الطبيب المبتسم " وبالذات الممرضات اللاتي لم يعد لديهن حديثٌ سوى ابتسامة د. عمرو.. وسامة د. عمرو.. أناقة د. عمرو!

هو نفسه لم يكن يعلم بهذا اللقب، حتى أنه ذات مرة كان مارًا بأحد أقسام المستشفى عندما سمع الممرضات تتحدثن عمن يسمى " الطبيب المبتسم ".. آثار الأمر فضوله فاقترب منهن وسأل ببساطة: ومن يكون هذا الطبيب المبتسم؟

انتفضت الممرضات وامتقعت وجوههن عندما وجدنه أمامهن وحدقن فيه ببلاهة، وبالطبع لم يقدرن على التفوه بحرفٍ واحد مما جعله يسأل مرة أخرى في دهشة: ماذا حدث؟!

أخيرًا استطاعت إحداهن أن تقول في كلماتٍ مرتبكةٍ مبعثرة: لا.. لا شيء يا دكتور.. لا شيء. قالتها وابتعدت هي وزميلاتها في سرعة على نحوٍ أدهشه أكثر، فهز كتفه وعاد يواصل طريقه وهو يحرك أصابعه بجور رأسه مشيرًا بتلك الحركة التي تعني أنهن مختلاتٌ عقليًا أو ما شابه..

كان أهم ما حرص عليه هو أن يُنهي عمله قبل الساعة الخامسة مساءً، بعدها يستقل سيارته وينطلق بها بعيدًا.. إلى أبعد مناطق شواطئ البحر عن العمران..

وهناك، يجلس على الرمال أمام الشاطئ ليتأمل غروب الشمس مستمتعًا بحقيقة أنه في كل مناطق الدنيا شيء، وأمام البحر شيءٌ آخر.. شيءٌ آخر تمامًا..

أحب هذا كثيرًا واعتبره أفضل شيءٍ حققه بوجوده هنا..

في صباح اليوم الرابع، وصل مبكرًا كعادته واتجه مباشرةً لمكتبه.. وهناك، خلع سترته وعلقها جانبًا ثم ارتدى معطفه الأبيض وطالع بعض التقارير الطبية في اهتمامٍ استمر لدقائق، ثم لم يلبث أن أودعها أحد أدراج المكتب قائلًا: حسنًا.. الأمور تسير على نحوٍ جيد حتى الآن.

التقط سماعته الطبية وهمّ بالمغادرة لمباشرة عمله، لكن من إن امتدت يده ليفتح الباب حتى وجده يُفتح أمامه ليطل رجلٌ ذو وجهٍ باسم وعينين بنيتين، يميل جسده إلى الامتلاء رغم طول قامته، ويُبقي شعره قصيرًا جدًا وكأنه خرج لتوه من صفوف الجيش.. كان يقف بهدوء وعلى وجهه ابتسامةٌ واسعة..

هتف عمرو مندهشًا: باسل؟!

دلف باسل إلى الداخل وهو يقول بذات الابتسامة: مفاجأة.. أليس كذلك؟!

ابتسم عمرو بدوره وصافحه بحرارة قائلًا: بالتأكيد يا رجل.. مفاجأةٌ سارة بالتأكيد.. متى وصلت؟

وحمل صوته نبرةً مستغربة وهو يكمل: ولِمَ أتيت؟!

ضحك باسل وقال: هكذا أنت دائمًا يا عمرو.. جادٌ إلى درجة تثير الغيظ.. المفروض أن ترحب بي أولًا ثم تسأل فيما بعد

جذبه عمرو نحو أحد مقاعد المكتب ليجلس، ثم قال في مرح: ها أنا ذا قد رحبت بك.. والآن أجب عن سؤالي.

هز باسل رأسه متظاهرًا بالأسف وهو يقول: يا له من ترحيب!

ثم استعاد ابتسامته واستطرد في مرح: ولكن قل لي.. لِمَ ازددت وسامةً هكذا؟ يبدو أن جو الإسكندرية يناسبك كثيرًا.

قال عمرو ضاحكًا: أما أنت فقد ازددت بدانةً في الواقع، بعد أن أصبحت كسولًا ولم تعد تمارس الرياضة بانتظام.

تطلع باسل إلى جسده وعقد حاجبيه وهو يقول: حقًا؟! لكني لم أعد أُكثر من الطعام، ولم أتناول شيئًا منذ...

قاطعه عمرو متسائلًا: ثلاث دقائق؟!

ضحك باسل وقال: بل منذ مساء أمس وأقسم على ذلك.

بابتسامةٍ قال عمرو: يبدو أنني سأضطر إذًا لدعوتك على الإفطار.

ثم أردف قبل أن يُبدي باسل ترحيبه بالدعوة: بشرط.. أن تخبرني عن سبب وجودك المفاجئ.

اقترب منه باسل وخفض صوته وقال بلهجة من يفشي سرًا خطيرًا: أتيت لأساعدك.

انتظر عمرو أن يتابع حديثه، لكنه لفظ هاتين الكلمتين وصمت، فقال هو: و.. ؟!

- فقط.

- فقط؟

- أجل.

- باسل.. تحدث بجدية.

قال باسل ضاحكًا: أنا جادٌ تمامًا، وقد أتيت فعلًا لمساعدتك.. هاتفني المدير أمس وكلفني بذلك.. قال إنه لا يشك في قدراتك ومهارتك، لكنه يريد إنجاز العمل هنا في أسرع وقتٍ ممكن فقسم القلب هناك اختل بدونك.

قال عمرو متعجبًا: لكنى عرضت عليك الأمر من قبل ورفضت بكل نذالة.

هز باسل كتفه وقال: في الواقع.. كان الوضع حينها مختلفًا.

- وما الذي جدّ في الأمر وغير رأيك؟

أشار باسل بسبابته قائلًا: أولًا.. في المرة الأولى كنت سأصبح المسئول الأول والأخير، وأنت تعلم أنني لا أفضل ذلك.. أما الآن فأنا هنا للمساعدة فقط، ثم أنني أثق تمامًا أنك قادرٌ على إنجاز العمل بدوني.

- وثانيًا؟

- في الواقع...

صمت متحرجًا، فابتسم عمرو وقال: هيا.. تكلم.. أعلم أنه سيكون السبب الحقيقي.

- بصراحة.. لقد وافقت بناءً على رغبة خطيبتي.

اتسعت ابتسامة عمرو على نحوٍ يوحي أنه توقع شيئًا مشابهًا، بينما تابع باسل: كنت أحدثها عن الأمر فوجدتها تحمست بشدة.. إن خالتها تعيش هنا في الإسكندرية وهي تريد زيارتها منذ وقتٍ طويل.. وبوجودي هنا أنا أيضًا، سيكون بإمكاننا التنزه وقضاء بعض الوقت معًا.. وصلت هي مساء أمس ووصلت لتوي.. جئتك من محطة القطار مباشرة.

رفع عمرو أحد حاجبيه وقال: أها.. التنزه وقضاء وقتٍ ممتع.. جميل.. تُرى هل أتخيل الأمر أم أنك لم تضع العمل هنا في قائمة مهامك؟

- عمرو.. وا صديقي العزيز.. ستسمح لي بالذهاب من حينٍ لآخر بالتأكيد.

- هكذا إذًا!

قالها عمرو وهو يعقد ذراعيه أمام صدره، ثم أردف مداعبًا: دعني أفكر.

- هيا يا عمرو.. أرجوك.

ابتسم عمرو، ثم ربّت على كتفه وقال: حسنًا يا صديقي.. اذهب واقضي وقتك مع خطيبتك ودع لي العمل هنا فبصراحة، لا داعي لوجودك أصلًا.

ثم غمز بعينه وهو يكمل: ولا تقلق.. لن يعرف المدير شيئًا.

هتف باسل في حرارة: هذا هو صديقي العزيز.

صمت لحظات ثم تنحنح في حرج، فقال عمرو: ماذا هناك أيضًا أيها الطماع؟

- في الواقع...

قاطعه عمرو ضاحكًا: تحدث مباشرةً بدون " في الواقع " هذه أرجوك.. بدأت أخاف من تلك الكلمة فدائمًا تليها كارثة.

- أريد أن أستعير سيارتك قليلًا.

قال عمرو ببساطة: لا بأس.

ثم رفع سبابته أمام وجهه مردفًا: على أن تعود قبل الخامسة.

تهللت أسارير باسل وقال: لك هذا.

تطلع عمرو إلى ساعته ثم قال: لقد أضعت من وقتي عشر دقائق كاملة.. هيا اذهب.

ثم أشار بيده مكملًا: المفتاح في جيب السترة الجلدية المعلقة هناك.

تحرك باسل بحماس ليأخذ المفتاح، فالتقط عمرو سماعته الطبية وتحرك يغادر المكتب..

لكن، ما إن خطا خارجه حتى وجد باسل يهتف: يا إلهي.. عمرو.. ما هذا؟!

التفت إليه متسائلا: ماذا هناك؟

طالعه باسل بدهشة للحظات، ثم لم تلبث أن ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ عابثة،

فاقترب منه عمرو وعاد يسأل: ألم تجد المفاتيح؟

قال باسل وابتسامته تتسع: بلى.. لكني وجدت معها شيئًا آخر.

بدا على وجه عمرو التساؤل مجددًا، فغمز باسل بعينه وقال: ألا تعرف أي شيءٍ ثمين وضعته في جيب سترتك.

ثم رفع يده يلوح أمام عينيّ عمرو بورقةٍ صغيرة مطوية قائلًا: كهذه مثلًا.

تطلع عمرو إلى الورقة في دهشة وكأنه يراها لأول مرة، ثم لم يلبث أن تذكرها فجأة، فانعقد حاجبيه في ضيق واختطفها من يد باسل هاتفًا في استنكار: باسل.. أتبحث عن المفتاح أم تفتش في جيوبي؟!

قال باسل بهدوء: لم أفتش إطلاقًا.. لقد وجدتها في أول جيبٍ مددت فيه يدي.

نظر له عمرو في ضيق وهو يستطرد: لامست أصابعي فجأة ورقةً ناعمة الملمس أثارت فضولي، فأخرجتها لأرى ماهيتها بالضبط.

ثم أخذ يُحرك يده في الهواء بحركاتٍ متموجة وهو يكمل متصنعًا الهيام: وما إن فتحتها حتى وجدت تلك الكلمة الخالدة.. الكلمة الساحرة التي أنبأتني بأنك مازلت بشريًا ولم تتحول بعد إلى آلةٍ للعمل.. ولكن قل لي يا عفريت، أهذا أمرٌ حديث أم أنك تلعب بذيلك من ورائي منذ وقتٍ طويل؟

ردد عمرو في دهشة: ذيلي!!

ثم هز رأسه نافيًا وقال في عصبية: أنت لا تفهم شيئًا.. الأمر بعيدٌ تمامًا عما ذهب إليه تصورك.

تطلع باسل إليه وقال عابثًا: حقًا.. ما الأمر إذًا.. أكثر من هذا؟!

- الأمر أن لا شيء.. هذه الورقة لا تخصني أصلًا.

بدت الدهشة على وجه باسل و عمرو يكمل: لقد وجدتها صدفةً على سيارتي.

أطلق باسل ضحكةً عالية وقال: وطبعًا سقطت عليها من السماء.. أليس كذلك؟!

عاد يضحك على نحوٍ استفز عمرو فزفر في غيظ وكاد يهتف بعبارةٍ عصبيةٍ أخرى، لكنه أحس أن الأمر عسير التصديق بالفعل فالتقط نفسًا عميقًا ليقول بصوتٍ أكثر هدوءًا: لم تسقط من السماء بالتأكيد، ولكني لا أعرف من أين أتت بالتحديد.. لقد وجدتها على سيارتي و...

قاطعه باسل ضاحكًا: عمرو.. أنا لست ساذجًا إلى هذا الحد.

حافظ عمرو على هدوئه وقال: صدقني.. هذا ما حدث بالفعل.

طالعه باسل لحظاتٍ في صمت، ثم قال: حسنًا.. هل لي أن أراها ثانيةً.

قالها وهو يمد يده بالفعل، فتردد عمرو لوهلة، ثم لم يلبث أن أعطاها له..

فتح باسل الورقة المطوية وجلس على أول مقعدٍ صادفه يتأملها وتألقت في عينه نظرة إعجابٍ وهو يقول: يا للأناقة.

ثم رفع عينيه إلى عمرو وقال: هذه الورقة وجدتها صدفة؟

أومأ عمرو برأسه إيجابًا في صبر.. فعاد باسل يقول: إذًا هي لا تخصك.

ابتسم عمرو قائلًا: بالضبط.

نظر باسل إلى عينيه وقال في بطء: ماذا إذًا لو... مزقناها هكذا.

قالها وأصابعه تتحرك وكأنه يهم بتمزيقها فعلًا و...

ووجد عمرو نفسه يهتف: كلا.

كان من الواضح أن باسل يعابثه فقد أطلق ضحكةً عالية وقال: كنت أعلم أن هذا سيكون رد فعلك.. لست أدري لِمَ تخفي الأمر كأنه جريمة.. إنه أجمل شيءٍ في الوجود يا صديقي العزيز.

ثم اقترب من عمرو وأمسك كتفيه وهو يستطرد بانفعال: هل تعلم.. أنا سعيدٌ للغاية من أجلك وأتحرق شوقًا لأعرف منك كافة التفاصيل، ولكن الوقت غير مناسب.. سأذهب الآن وستخبرني بكل شيءٍ فيما بعد.. اتفقنا؟

لم يجد عمرو ما يقوله.. كما أن باسل لم يمنحه فرصةً ليقل شيئًا، فقد افترض موافقةً ضمنية وأكمل في سرعة وهو يمد يده له بالورقة: اتفقنا.. إلى اللقاء.

ثم لوح بيده مغادرًا في سرعة..

ظل عمرو واقفًا حيث هو يتطلع إلى الورقة مغمغمًا: أي مأزقٍ هذا.

التقط نفسًا عميقًا وهو يستطرد في خفوت: ورغم ذلك، مازلت أشعر أنني أريد الاحتفاظ بك.

قالها وهو يعيدها إلى جيب سترته في عناية، ثم يتطلع إلى ساعته قائلًا: لقد أضعت الكثير من وقتي حقًا يا باسل.

وبذهن غير صافٍ، غادر مكتبه ليباشر عمله.. وطوال اليوم لم يكف عقله عن السؤال: هل الورقة لا تخصه حقًا؟!

****

* ٥ *

*** وقفت بسمة في المعمل تجري أحد التجارب وسط مجموعةٍ من زميلاتها.. وكالعادة، كان الجميع يتحركون في نشاط ويتناقشون حول التجارب التي يجرونها، وأحيانًا يتبادلون خلسةً العبارات المرحة الضاحكة في صوتٍ خفيض..

أما منى فبدت غير رائقة المزاج على الإطلاق وهي تقف في أحد الأركان تتابع خطوات تجربتها في صمتٍ شارد..

وفي فضول، مالت أمل على أذن بسمة وهمست: بسمة.. ماذا بها منى؟

قالت بسمة دون أن ترفع عينها عما تجريه: وماذا بها؟

هزت كتفها وأجابت : لست أدري.. لكنها لا تبدو طبيعية.

نظرت بسمة إلى حيث تقف منى ثم قالت: لماذا تعتقدين هذا يا أمل؟ أنا أراها طبيعيةً للغاية.

قالت أمل في إصرار: كلا.. لا تبدو كذلك.. منى التي لا تكف حديثًا ومرحًا لم تنطق بكلمةٍ واحدة مع أيٍّ منا حتى أنتِ منذ الصباح، وتبدو مكتئبةً إلى حدٍ غير عادي.. وليس اليوم فقط، بل منذ عدة أيام.

تنهدت بسمة ومطت شفتيها ولم تدر حقًا بم تجيب.. فالحقيقة أن ما تعانيه منى الآن لا يُحكى ولا يُقال.. ليس لأنه سرًا، بل لأنه لا يُعقل ولا يُصدق..

ظلت على صمتها لحظات تبحث في عقلها عن مبررٍ منطقي يمكنها قوله، فلم تجد سوى أن تقول: في الحقيقة، لست أدري بالضبط.. كلنا الآن متوترون لأن نتائج اختبارات الفصل الدراسي الأول على وشك الظهور، هذا إلى جانب قلقنا الزائد من مادة " علم السموم " والتي كان اختبارها النظري غايةً في الصعوبة والغباء.. أنت نفسك تشاجرت مرتين اليوم

فقط، إحداهما مع أستاذ الكمياء الحيوية السخيف الذي يتحاشى رئيس القسم نفسه التشاجر معه حتى لا تنفجر مرارته.

عقدت أمل حاجبيها في ضيقٍ وقالت معترضة: بسمة.. أنت تعلمين أنه...

قاطعتها بسمة: نعم أعلم أنه سخيفٌ وعصبي، ومستفزٌ أيضًا.. لكننا اعتدنا طباعه واعتدنا ألا نجعله يستفزنا منعًا للمشاكل، ورغم ذلك فقد نجح في استفزازك.. لماذا؟ لأن الأعصاب كلها مشدودةٌ ولا تحتمل المزيد.

عادت أمل تتابع خطوات تجربتها مستمعةً لبسمة وهي تكمل: أعتقد أن منى أيضًا كذلك.. وربما صدر منا شيءٌ ضايقها دون أن ندري.. وربما الأمر لا يتعلق بنا.. من الممكن أن تكون هناك مشكلةً شخصية.

قالت جملتها الأخيرة وهي تتنهد، لكنها لم تلبث أن أكملت بسرعة: وربما مشكلةٌ عائلية.. لا أعرف بالضبط ولا أحد يعرف.

تساءلت أمل: وماذا لو سألناها مباشرة؟

أجابت بسمة سريعًا: لو كانت تريد التحدث لأحدٍ لفعلت منذ البداية.

تطلعت كلتاهما إلى منى والتي انهمكت في معايرة أحد المحاليل، ثم قالت بسمة في خفوت: لكني سأحاول.

أومأت أمل برأسها في استحسان، قبل أن تنهمك كلٌ منهما في تجربتها مرة أخرى.. وبعد عدة دقائق، كانت بسمة قد أنهت عملها بعد أن حصلت على نتائج جيدة، فاتجهت إلى حيث تقف منى وقالت في مرح: أين أنت الآن؟

قالت منى وهي تسكب محتويات أنبوب الاختبار الذي تحمله في الحوض: هنا.

ارتفع حاجبا بسمة وقالت في دهشة: لِمَ سكبت الأنبوب؟ مازلتِ تحتاجينه لإكمال التجربة.

واصلت منى سكب محتويات أدواتها وهي تقول: ومن قال أني أريد إكمالها.

ظلت بسمة تتطلع إليها بدهشة لحظات، ثم سألتها: هل ستعيدينها؟

أجابتها منى بلا انفعال: لن أكملها.. ولن أعيدها.

- ولماذا؟!

سألتها بسمة بدهشةٍ أكبر، فردت في عصبية وهي تضع أدواتها في حقيبتها: لأني لا أريد.

ثم استطردت وقد عاد صوتها إلى جموده: هل انتهيت من عملك؟

أومأت بسمة برأسها إيجابًا، فعادت تقول: هيا بنا إذًا.

- أنا لم أرتب أدواتي بعد.

- حسنًا.. سأنتظرك في الخارج.

طالعتها بسمة وهي تغادر بخطواتٍ سريعة، ثم هزت رأسها وحدثت نفسها في خفوت قائلة: لقد تدهور حالك كثيرًا يا منى، ويا ليتني أستطيع فعل شيء.

اتجهت إلى حيث تركت أدواتها مغمغمة: والكارثة أن مسبب المشكلة أصلًا لا يعرف حتى كونه كذلك.. شخصٌ يمارس حياته الطبيعية دون أن يدري أن هناك من تأثرت حياتها كلها لمجرد أنها لم تعد تراه!

تنهدت في عمق وهي ترتب أدواتها في حقيبتها كي تلحق بها آملةً ألّا يستمر هذا الوضع كثيرًا.

أما منى، فقد هبطت إلى ساحة الكلية شاعرةً أنها لم تعش يومًا بهذا الطول الممل قط، وأنها لا تطيق البقاء في هذا المكان ولو لثوانٍ.. كادت قدماها تقودانها بالفعل إلى خارج الجامعة لولا أن تذكرت قولها لبسمة بأنها ستنتظرها، فعادت تجلس في ضيق على أحد المقاعد الرخامية في ساحة الكلية في انتظارها..

كان الوقت متأخرًا نوعًا.. الجو بارد وقد خلت ساحة الكلية أو كادت من الطلبة.. ورغم ارتجافها بردًا، شعرت منى أنها ارتاحت لهذا الجو الصامت فتركت المقعد وافترشت معطفها أرضًا على الرصيف، ثم جلست مستندةً بظهرها على جذع أحد الأشجار..

استرخت في جلستها هذه على نحوٍ ذكرها بجلستها أمام نافذة حجرتها.. وكما تفعل دائمًا، رفعت عينيها تتأمل السماء.. لكنها لم ترَ سوى السحب والغيوم التي تجمعت بشدة حاجبةً ضوء الشمس ومنذرةً بهطول المطر..

أضفى هذا المزيد من الكآبة على الجو على نحوٍ ناسب حالتها النفسية كثيرًا فاسترخت أكثر ومارست هوايتها الأثيرة..

الشرود..

ابتلعها شرودها ببساطة، فنسيت أنها في الكلية وأنها تنتظر بسمة وأن السماء قد تمطر في أي لحظة، واقتحم عقلها شيءٌ واحدٌ فقط..

عمرو..

وهذا يعني أن لا شيء في الدنيا كلها يمكن أن يجد له مكانًا الآن وسط أفكارها..

عمرو.. أين أنت؟

لماذا لا أجدك؟

لماذا لم أعد أراك؟

انطلقت أسئلتها بلا إجابة حاملةً دموعًا ترقرقت بها عيناها..

لم تكن تؤرقها الفترة البسيطة المنصرمة قدر ما تؤرقها الفترة التالية التي تنتظرها..

أهي أيامٌ أخرى أم أسابيع؟ أم تُراها شهور؟

انقبض قلبها من مجرد الاحتمال، فأفلتت دمعةٌ وفرت لا تلوي على شيء..

بأصابع مرتجفة بردًا وانفعالًا، مدت يدها لتمسحها مطلقةً تنهيدةً حارة خرجت من أعمق أعماقها ودفعتها إلى الغرق أكثر وأكثر في أفكارها..

- منى !!!

انتزعها ذلك الهتاف بغتةً من شرودها يحمله صوت بسمة، فالتفتت لتجدها تقترب في سرعة وهي تصنع من معطفها مظلةً فوق رأسها بينما المطر ينهال بشدة..

شعرت بالدهشة وهي تنهض.. متى أطلقت السماء سراح كل هذه الأمطار؟!

وفي دهشةٍ أكبر هتفت بسمة: منى.. كيف تجلسين هكذا وبمنتهى الهدوء.. ستبتل ثيابك.

نظرت منى إلى ملابسها ثم قالت وهي تجذب بسمة إلى جوارها: ليس إلى هذا الحد.. يبدو أن أغصان الشجرة قد تلقت معظم قطرات المطر.

عدّلت بسمة من وضع معطفها فوق رأسها وقالت: هيا بنا إذًا.. التقطي معطفك ودعينا نرحل من هنا بسرعة قبل أن يشتد المطر أكثر.

انحنت منى لتلتقط معطفها ونفضته بقوة وهي تقول: لكنه الآن في أوج غزارته.. دعينا ننتظر بعض الوقت.

صمتت بسمة في موافقةٍ ضمنية استمرت لبضع دقائق وضعت منى خلالها معطفها فوق رأسها هي الأخرى عندما بدأت أغصان الشجرة تنفذ قطرات المطر بصورةٍ أكبر..

رمقتها بسمة بنظرةٍ جانبية وقالت: يبدو شكلك مضحكًا.

أطلقت منى ضحكةً قصيرةً خافتة وأشارت بيدها قائلة: لو كانت هناك مرآة، لوجدت شكلك أكثر إضحاكًا.

تصنعت بسمة الدهشة وقالت: يا إلهي.. أتضحكين فعلًا، أم أن هذا خداعٌ بصري؟

- خداعٌ بصري بالطبع.

قالتها منى وهي تبتسم..

- يا للهول.. وتبتسمين أيضًا.

- أما هذه فليست خداعًا بصريًا.

- ماذا إذًا؟

اقتربت منها منى وهمست: وهم.

ضحكت بسمة وقالت: لقد كنتُ محقةً في مخاوفي.. ستطيحين بالبرج الباقي في عقلي عما قريب.

قالت منى بدلال: لماذا يا بسمتي؟

تصنعت بسمة الحدة قائلة: كُفي عن مخاطبتي بهذا الاسم.. أشعر كلما سمعته أنني طبق أرزٍ على مائدة.

ضحكت منى بشدة هذه المرة، فشاركتها بسمة الضحك وقد أسعدها أنها استطاعت أن تخرجها من تجهمها ولو قليلًا..

تجمعت حولهما العديد من الزميلات والكل يحاول الاحتماء من الأمطار بأي شيء، لكن الحديث الدائر لم يكن عن الطقس أو الأمطار، بل عن نتائج الاختبارات التي هي على وشك الظهور..

عاد لمنى تجهمها ثانيةً والقلق يعصف بها.. لم يكن اختبار " علم السموم " جيدًا على الإطلاق، ويقلقها بشدة أن تتعثر في هذه المادة للمرة الأولى في سنوات دراستها التي كللتها باجتهادها الدائم..

مالت على بسمة وقالت: متى بالضبط؟

كانت بسمة تعلم بالطبع عما تسأل، فأجابت باقتضاب: ربما يومين أو ثلاثة.

اغتصبت ابتسامةً وقالت: جميل.

لكن لسان حالها كان يقول بوضوح.. " هذا ما كان ينقصني " !

****

*** تألق قرص الشمس الغارب بلونه الأحمر الناري من بين السحاب، ومضى يتحرك ببطءٍ شديد نحو الأفق صابغًا السماء وسحابها من حوله بأضوائه الحمراء الرائعة، والتي عكستها مياه البحر وأمواجه الثائرة في منظرٍ خلاب..

وهناك، وعلى مسافةٍ قريبة من الشاطئ، جلس عمرو يداعب الرمال بيده وعيناه شاردتان تتطلعان إلى مالا نهاية.. تتابعان الشمس وأضواءها الغاربة التي تجاهد لتفسح لنفسها طريقًا بين الغيوم.. تتأملان البحر وأمواجه الثائرة التي تنشأ من العدم وتتحرك بكل قوتها وعنفوانها مندفعةً نحو الشاطئ إلى حيث تنتهي رحلتها، فتختفي لتنشأ من جديد..

وعلى الرغم من صوت الأمواج العالي الذي يصم الآذان، شعر عمرو أنه يعيش أكثر لحظات حياته هدوءًا.. ثم إنه اليوم بالذات يشعر بارتياحٍ غامر.. لقد انتهى من عمله هنا أخيرًا وعلى أكمل وجه.. مازالت كلمات الشكر والمدح التي ألقاها مدير المستشفى الجديدة على مسامعه تتردد في أذنيه وهو يثني على عمله وكفاءته..

لقد حقق نجاحًا، وهذا بالنسبة له سببًا كافيًا ليشعر بالارتياح والرضا عن النفس.. ثم إنه سعيدٌ لأن الجو قد تحسن أخيرًا بعد موجة الطقس الباردة والأمطار والتي منعته من قضاء وقت الغروب بجوار الشاطئ طوال الثلاثة أيام الماضية، فطقس اليوم - رغم برودته - رائعٌ بكل المقاييس بالنسبة لسابقيه.. وها هو ذا يجلس على رمال الشاطئ الناعمة يودع المكان على ضوء الشمس الغاربة، بعد أن تصور أنه سيغادر الإسكندرية دون أن يزوره لمرةٍ أخيرة..

التقط نفسًا عميقًا من الهواء البارد فغمره شعورٌ عجيب بالاسترخاء ورغبةٌ عارمة في أن يستلقي على الرمال ويغمض عينيه..

لم يقاوم كثيرًا.. عقد أزرار معطفه واستلقى بالفعل على الرمال عاقدًا كفيه تحت رأسه..

ولدقائق عدة، بدا ساكنًا صامتًا ودفعات الهواء تداعب خصلات شعره الطويلة في نعومة، ثم لم يلبث أن قال محدثًا نفسه: يا له من جوٍ يحرك المشاعر.

ظهرت ابتسامةٌ على شفتيه وأردف: لو أن باسل معي الآن، لقال إنه لا ينقصني سوى أن تكون معي حبيبتي التي لا أعرفها والتي يصر على أنني أُخفي أمرها عنه.

تذكر أمرًا ما، فاعتدل ومد يده يبحث في جيوبه مغمغمًا: أين أنت يا أغرب شيءٍ وقعت عليه عيناي.

أخرج الورقة الصغيرة من حافظته وفضها متأملًا محتواها..

مرت عيناه على الكلمة مرارًا وتكرارًا..

" أحبك "

شعر بانفعالٍ ما يتحرك داخله لم يدرِ كنهه، فتعجب من نفسه..

طوى الورقة الصغيرة وضم عليها قبضته وعاد يستلقى أرضًا واضعًا يده الأخرى خلف رأسه..

وعلى أضواء الشمس المحتضرة، استغرق في التفكير..

لحظاتٌ مضت قبل أن يمط شفتيه قائلًا: تفسيري للموقف في غاية السذاجة.. لو أنها وُجدت خطأً على سيارتي لأدرك مرسلها هذا على الفور، وبالتالي ليس من المنطقي أن يتركها حيث هي.. المفترض أنه يريدها أن تصل إلى شخصٍ بعينه.. إلا إذا كنت أنا هذا الشخص!!

زفر في عمقٍ وقال محدثًا نفسه: تفسيرٌ أكثر سخافة.

عاد للتفكير محاولًا إيجاد تفسيرٍ أكثر منطقية، لكنه بدا له التفسير المنطقي الوحيد..

ارتسمت ابتسامةٌ هادئة على شفتيه وقال: يبدو أن هناك من يهتم بأمري.. ولكن من يا تُرى؟!

اعتدل ونفض الرمال عن يديه مكملًا: ربما أعرف فيما بعد، عندما يرسل... أقصد ترسل فتاتي الغامضة رسالتها الثانية.

كان على ثقةٍ بأنه لو كان المقصود حقًا بهذه الرسالة فستتكرر المحاولة.. كل ما عليه هو الانتظار..

بدأ الظلام ينتشر، فاتجه إلى سيارته المتوقفة على بعد أمتارٍ قليلة.. وقبل أن يستقلها التفت ليلقى نظرةً أخيرة على البحر والمكان كله ولسان حاله يقول.. سأفتقدك حقًا.

****

* ٦ *

*** اليوم التالي.. آخر المحاضرات ..

جلست منى مستندةً برأسها على قبضتها المضمومة بينما تنقر بأصابع يدها الأخرى على دفترها في عصبية، ومن حينٍ لآخر تزفر في ضيقٍ وتوتر وتبدل من وضع يديها، أو تمسك بالقلم وترسم خطوطًا ودوائر متقاطعة.. وإلى جوارها جلست بسمة بحالٍ مشابه وإن حاولت في استماتة التركيز فيما يقوله الأستاذ الذي تواصل شرحه بلا انقطاع..

في الواقع، كان هذا حال الجميع تقريبًا وأنباء نتائج الاختبارات التي ستعلن اليوم تشد أعصابهم وتفقدهم تركيزهم مع محاضرهم الذي كلما انشغل بكتابة شيءٍ ما على اللوح، تعالت الهمسات والهمهمات ليلتفت هو ويخرسهم بنظرةٍ غاضبة..

وفي عصبية مالت منى على أذن بسمة تهمس: بسمة.. هيا نخرج.. لم أعد أطيق الاحتمال.

ردت بسمة هامسة : انتظري قليلًا يا منى.. دقائق وتنتهي المحاضرة.

عادت منى تهمس بغيظ: دقائق!! مازالت هناك ساعةٌ كاملة متبقية من وقت المحاضرة، ولم أعد أستطيع التركيز في شيء .. أنا لا أدري أصلًا إن كان شرحه يخص العقاقير أم السموم أم طريقة عمل الكيك !

كتمت بسمة ضحكتها بصعوبة، ثم قالت: بالخارج سننتظر أيضًا يا عبقرية.. لا فارق.

زفرت منى بضيقٍ وغمغمت: سيكون الأمر أقل توترًا.

كانت بسمة تدرك أنها على حق.. لا فائدة من وجودهما هنا مادامتا لا تستطيعان التركيز أو فهم ما يقال، لذا قالت في خفوت: حسنًا .. هيا بنا.

كانتا تجلسان في المقاعد الأمامية مما سهّل انسلالهما إلى الخارج أثناء انشغال الأستاذ..

وما إن وضعت منى قدميها خارج المدرج حتى تنفست الصعداء وهتفت: أخيرًا.. أشعر أنني لو بقيت لدقائق أخرى لمت اختناقًا.

سألتها بسمة باستغراب وهما تهبطان إلى ساحة الكلية: ما بالك يا منى؟ لم أرك يومًا بهذا القلق.

أفرغت منى صدرها كله في زفرةٍ عميقة وقالت: لا أعرف حقًا يا بسمة، لكني بالفعل قلقةً للغاية وقلبي يحدثني أن نتائج اختبار " علم السموم " لن تكون خيرًا هذا العام.

ابتسمت (بسمة) وقالت: لقد اجتهدنا وفعلنا ما بوسعنا.. ثقي في ذلك ودعي عنك قلقك الزائد هذا.

انضمتا لباقي الصديقات وتبادلن الحديث محاولاتٍ إفراغ توترهن..

" نتائج الاختبارات تعلق الآن يا رفاق "

همسةٌ قالها أحدهم لينتشر الخبر في ساحة الكلية كلها خلال بضع ثوانٍ!

وخلال بضعٍ أخرى، أصبحت هناك جماهير واقفة أمام اللوحات التي تحمل كشوفات النتائج..

وقفت كلتاهما على مسافةٍ من ذلك التجمهر تفرك يديها في توتر.. لم تكن أيهما تجيد الاقتحام أو التزاحم، لذا لم يكن هناك مفرٌ من الانتظار..

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى بدأت الوجوه تتهلل وعبارات التهنئة تتردد، بينما تجهمت وجوهٌ أخرى وانسحبت في صمت..

كانت دعاء أحد الوجوه المتهللة وقد اقتربت منهما فرحةً فهنأتها بسمة بحرارة، لكنها رمقت وجه منى القلق ثم مالت على أذنها وقالت بخفوت: منى.. يؤسفني ذلك، لكني لمحت اسمك في أحد الكشوفات ولفت نظري علامةٌ حمراء!

بشهقةٍ قوية، تجمدت منى تمامًا وخيل إليها أن قلبها توقف عن النبض وهي تحدق في وجه دعاء غير مصدقة، في حين هتفت بسمة في دهشة وقد تناهى إلى مسامعها ما قيل: ءأنت متأكدة يا دعاء؟ هل رأيت ذلك بنفسك؟

هزت دعاء كتفها وبدت في عينيها نظرة خبثٍ واضحة، لكن منى لم تنتبه إليها، بل لم ترها من الأساس.. فقط، تراجعت عدة خطواتٍ وبصرها يدور فيما حولها بعينين لا تريان، وطفق قلبها يخفق بعنفٍ واضطراب وأنفاسها تتلاحق، بينما عبارةٌ واحدة تتردد داخلها.. مادة " علم السموم " !

لم تنتبه لحديث بسمة الحاد مع دعاء والذي انتهى بابتسامةٍ عابثة على شفتيها واعترافٍ بالمزاح..

لم تسمع تقريع بسمة لها واتهامها بالسخافة والسماجة..

وعندما التفتت بسمة إليها، كانت تبتعد ..

بخطواتٍ سريعة أقرب للعدو ابتعدت، فهتفت بسمة: منى !!

لم يبدُ عليها مجددًا أنها سمعتها وهي تواصل ابتعادها، فعادت بسمة تهتف بصوتٍ أعلى وهي تحاول اللحاق بها: منى.. انتظري.. كان ذلك مزاحًا سخيفًا.. لا شيء مما قالته حقيقي.. انتظري يا منى.. منى.

لكنها كانت قد اختفت في هذه اللحظة خلف الزحام..

شعرت أنها لا تريد أن ترى أو تُحادث أحدًا..

شعرت أن عقلها لم يعد يعي شيئًا وقلبها يكاد يتوقف من شدة خفقانه..

و أمام عينيها تجمعت سحابةٌ من الدموع الحبيسة..

شعرت أنها تختنق وبأنها لا تطيق البقاء في هذا المكان، فانطلقت مبتعدة غير عالمةٍ إلى أين..

خرجت من الجامعة كلها.. وعلى غير هدى، أخذت تمشى في الطريق الموازي لأسوارها دون أن تدري أن بسمة تبحث عنها الآن في طرقات المبنى..

مشت كثيرًا.. كثيرًا..

قررت أنها لن تفكر في أي شيء.. ستهدأ بعد قليلٍ وتعود، لكن.. وعند لحظةٍ ما بعينها، انهار تماسكها وبكت..

بكت بشدة مفرغةً كل ما بداخلها من ضغوط.. ولحسن الحظ، كان بحوزتها نظارتها الشمسية فأخفت بها عينيها ودموعها..

لم تدرِكم مر عليها من الوقت لكنها انتهت فجأة مع ارتطام قطرات ماءٍ بوجهها..

إنها تمطر مجددًا، لكنها تجاهلت ذلك وواصلت مشيها..

وعلى وجهها سالت قطراتٌ باردة كالثلج وقطراتٌ ملتهبة كالنيران..

مضى عليها وقتٌ طويل وهي تمشي بلا هدف حتى أحست بإرهاقٍ وتعبٍ عنيفين.. رأسها يدور في شدة ويكاد ينفجر من شدة الصداع، هذا إلى جانب ملابسها التي ابتلت إلى حد كبير..

طالعت معالم الطريق من حولها، فأدركت أنها في وسط المدينة تقريبًا وهذا يعنى أنها تمشي منذ ما يقل قليلًا عن الساعة..

وبإرهاقٍ بلغ مبلغه، توقفت وقررت العودة إلى المنزل.. ستستقل إحدى سيارات الأجرة وتعود سريعًا..

لم يكن الأمر سهلًا في زحام وسط المدينة، ومما زاد الأمر سوءًا أن المطر كف عن المزاح وبدأ يهطل بجدية، فتراجعت إلى مدخل إحدى البنايات الضخمة المطلة مباشرةً على الطريق.. لم تكن الوحيدة التي تراجعت إلى هذا المدخل لتحتمي من الأمطار، فخلال ثوانٍ تجمع عددٌ لا بأس به من المارة..

وفي إنهاك، استندت إلى أحد الجدران وتلفتت حولها تبحث عن أي شيءٍ يصلح للجلوس و...

" الدكتور / عمرو فؤاد .. أخصائي أمراض القلب والأوعية الدموية "

ارتطمت عيناها بالعبارة، فخفق قلبها في تفاجؤ وحدقت فيما أمامها..

كانت لافتةً أنيقة متوسطة الحجم معلقةً على الجدار المقابل، وسط مجموعةٍ أخرى من اللافتات يزيد عددها عن العشرة وكلها لأطباء في مختلف التخصصات..

اقتربت منى وتوقفت أمامها وهي تتطلع إليها غير مصدقة..

أعادت قراءتها عدة مراتٍ قبل أن تقول: هو.. بالتأكيد هو.. هذه عيادته إذًا!!

واصلت تأمل اللافتة الأنيقة لحظات وعادت عيناها تحتشدان بالدموع..

عمرو.. وأين هو عمرو ؟!

لقد ذهب ولم يعد بعد، ويبدو أن غيابه سيطول..

تنهدت في حزن وهي تعود لتستند على الجدار وتقول في خفوتٍ شديد: آه لو أعرف متى تعود.

انتبهت لحظتها أن تساقط الأمطار قد توقف أو كاد، فتحركت في صمت متجهةً إلى الخارج..

ما إن خطت بضع خطواتٍ حتى توقفت والتقى حاجباها.. لِمَ لا تسأل؟!

كل الأطباء لا يغلقون عياداتهم عندما يتغيبون في سفر، وغالبًا ما يكون هناك طبيبٌ آخر يتابع المرضى أثناء فترة سفرهم، وهذا يعنى أنها لو صعدت إلى عيادته ستجد بالتأكيد من تسأله لأنهم حتمًا يعلمون..

" متى يعود د. عمرو ؟ "

هكذا ستسأل ببساطة، وستحصل على إجابةٍ روتينية سريعة بنفس البساطة.. على الأقل سيريحها هذا من عذاب الانتظار المبهم.

ألقت نظرةً سريعة على اللافتات المعلقة مرةً أخرى، فعرفت أن العيادة في الطابق الثالث..

وبخطواتٍ مترددة، اتجهت نحو المصعد الذي ما إن انغلقت أبوابه حتى وجدت نفسها ترتجف..

بردًا أم انفعالًا، لا تدري.. ربما الاثنان معًا، لكنها عندما تحسست ملابسها وجدتها مبتلةً بالفعل مما جعلها تدرك أن سيرها تحت الأمطار كان حماقة..

توقف المصعد في هذه اللحظة وانفتحت أبوابه معلنًا وصوله لوجهته، فازداد انفعالها وامتزج بترددها على نحوٍ كاد يدفعها للضغط على زر الهبوط والتراجع عن الفكرة بأكملها..

" هل تنتظرين أحدًا؟ "

رفعت عينيها إلى محدثها، فطالعها وجه امرأةٍ شابة تقف أمام أبواب المصعد ويبدو عليها التساؤل..

ردت في ارتباك: أجل.. أ.. أقصد كلا.

ابتسمت المرأة ابتسامةً روتينية وهي تخطو داخل المصعد، فلم تجد منى بُدًا من الخروج..

هبط المصعد سريعًا وتركها حيث هي، في الطابق الثالث..

كان الطابق كله مضاءً واللافتات معلقة في كل مكان.. تلفتت حولها في توترٍ مغمغمة: يا إلهي !! ما الذي جاء بي إلى هنا؟! يبدو أن بسمة كانت على حقٍ في اعتقادها بأنني مجنونة!

وقعت عيناها في هذه اللحظة على اسمه المكتوب على لافتةٍ مضيئةٍ كبيرة بجوار أحد الأبواب المفتوحة..

لقد كانت على حق.. العيادة ليست مغلقة!

تقدمت بخطواتٍ مرتجفة.. لم تدرِ لِمَ تشعر بكل هذا الانفعال رغم اقناعها نفسها بأن الأمر بسيط.. ستلقي سؤالها وتنصرف ولن يستغرق هذا أكثر من دقيقةٍ واحدة..

وهكذا.. التقطت نفسًا عميقًا ودخلت..

كان المكان واسعًا.. بسيطًا وأنيقًا.. باردًا كما الجو بالخارج و.. وخالٍ..

كان هذا هو انطباعها الأول عن المكان، انتبهت بعدها إلى ذلك المكتب الصغير وإلى من تجلس خلفه.. كانت ممرضةً في منتصف العمر تقريبًا تحمل ملامح غير مريحةٍ على الإطلاق وتجلس منهمكةً في كتابة شيءٍ ما..

تنحنحت منى في ارتباك، فرفعت الممرضة نظرها إليها لحظةً ثم عادت تنظر إلى ما تكتب وكأنها لم ترَ شيئًا!

زاد هذا من ارتباكها، لكنها تقدمت منها قائلةً في خفوت: إذا سمحت..

عادت الممرضة تنظر إليها بتساؤل، فتابعت منى: كنت أريد السؤال عن د. عمرو.. أقصد متى سيعود من سفره بالضبط؟

مطت الممرضة شفتيها بلا مبررٍ وقالت بلهجةٍ روتينية وهي تعاود الكتابة: لقد عاد.

ارتفع حاجبا منى بتفاجؤ ودق قلبها بقوة، في حين أكملت الممرضة بلهجةٍ جافة: لكنه لن يبدأ الفحوصات اليوم، بل غدًا ابتداءً من الساعة الخامسة.. وأظن أن هذا مكتوبًا على تلك الورقة المعلقة هناك والتي مررت بجوارها للتو.

كانت منى تواصل التحديق في الممرضة وانفعالاتٌ شتى تجتاحها حتى أنها لم تعي عباراتها التالية..

لقد عاد!

هذا فقط ما سمعته.. هذه العبارة فقط هي التي اخترقت عقلها وكيانها تاركةً حقيقةً واحدة..

عمرو عاد أخيرًا!

وجدت نفسها تقترب من المكتب الصغير وتعاود سؤال الممرضة: هل عاد حقا؟!

زفرت الممرضة في ضجرٍ ولم ترد، فكررت منى بانفعال: أخبريني أرجوك.. هل عاد د. عمرو بالفعل؟

ألقت الممرضة بالقلم الذي تمسكه على المكتب وأجابتها بعصبية: أجل عاد.. لقد قلت هذا من قبل.. عاد منذ ساعةٍ واحدة، ولكن لا فحوصات اليوم.. أهذا صعب الفهم؟!

التقى حاجبا منى بتوترٍ وتراجعت أمام اللهجة العنيفة التي تخاطبها بها الممرضة والتي أكملت بنفس الحدة والعصبية: والآن هل من الممكن أن تتركيني أمارس عملي وتعودي غدًا.. وأكرر.. الدكتور لن...

- لا بأس.

انطلقت تلك الكلمة تقاطع كلام الممرضة بغتة يحملها صوت قائلها القوي الهادئ..

انتفضت منى انتفاضةً غير ملحوظة وقد ميزت الصوت على الفور..

التفتت بسرعة لتجده أمامها، فتسمرت حيث هي وموجةٌ من الانفعالات المعقدة تجتاحها كلها..

أهو اشتياقٌ أم لهفة.. أم ولعٌ ولوعة ذلك الذي يضج به قلبها الآن.. ربما جميعهم!

وبسبب أيهم اندفعت دموعها لتحتشد أمام عينيها.. لا تعرف حقًا!

كان عمرو قد وصل بالفعل منذ ما يزيد قليلًا عن الساعة.. ورغم شعوره بالإرهاق من وعثاء السفر، فضّل أن يأتي إلى العيادة أولًا ليعيد ترتيب أموره كي يباشر عمله سريعًا بعد ذلك الانقطاع..

لم يستغرق هذا منه الكثير من الوقت، إلا أن هطول الأمطار أطال فترة مكوثه في انتظار أن تهدأ قليلًا..

وعندما قرر المغادرة، رأى الممرضة تتحدث بعصبيةٍ إلى فتاة حسبها هو مريضةً تطلب الدخول للطبيب!

كان يشعر بإرهاقٍ شديد، لكنه ما إن لاحظ ملابسها المبتلة حتى عدل عن فكرة الذهاب الآن، فمن يجازف بالخروج في هذا الطقس إلى طبيب فلابد أنه يحتاجه بشدة، وهو لم يعتد أن يخذل أحدًا يحتاجه..

شعر منذ الوهلة الأولى أنه رآها من قبل، لكنه لم يذكر متى وأين.. لاحظ أيضًا ملامحها المرهقة وعينيها المحمرتين.. ولدهشته، لمح فيهما دموعًا تترقرق.. أهي متعَبةٌ للدرجة التي تدفعها للبكاء؟!

همّ بقول شيءٍ ما عندما اندفعت الممرضة تقول: د. عمرو.. لقد أخبرتني أنك سـ..

رمقها عمرو بنظرةٍ صارمة أخرستها، فابتلعت لسانها على الفور وهي تمط شفتيها في اعتراض، بينما عاد هو بنظره إلى منى قائلًا: تفضلي.

لم تفهم منى ماذا يعنى بالضبط، فمنذ أن وقع بصرها عليه وهي فاقدة التركيز في أي شيءٍ عداه!

طالعته بارتباكٍ واضح، ثم لم تلبث أن فهمت الأمر دفعةً واحدة فتضاعف ارتباكها ولم تدرِ ماذا تفعل، في حين دخل هو إلى غرفة الفحص في انتظار أن تتبعه..

أدركت أنها زجت بنفسها في مأزقٍ غير عادي، حتى أنها لم تشعر في حياتها بارتباك كالذي شعرت به وهي واقفة تنظر إلى باب تلك الغرفة حيث دخل عمرو عاجزةً عن اتخاذ أي قرار..

هل تتبعه؟

مستحيل.. هي ليست مريضةً كما يحسبها، ولا تستطيع ادعاء المرض لأنه سيكتشف على الفور أنها كاذبة.. ثم إنه طبيب أمراض قلب، فماذا يمكنها أن تقوله له؟ قلبي مريضٌ بحبك!!

هل تتركه وتذهب بسرعة قبل أن تتورط أكثر؟

ستكون هذه حماقة وستبدو كالبلهاء أمامه وأمام تلك الممرضة الشمطاء..

ماذا تفعل إذًا؟!

إنه حتى لا يمكنها...

مهلًا.. مهلًا..

لِمَ كل هذه السلبية؟

أليس هذا هو عمرو الذي ظلت لأسبوعٍ كامل تتحرق شوقًا لمجرد رؤيته؟!

ألم يمنحها هو دون أن يشعر فرصةً لا لرؤيته فقط، بل للتحدث معه والبقاء بصحبته عدة دقائق؟!

حتى هي.. أتت إلى هنا دون أن تدري أنها ستلقاه؟ بل دون أن تدري أنه عاد من سفره أصلًا.. أليست هذه فرصةً لن تتكرر؟!

أفبعد كل هذا تفكر في الذهاب؟! هذا هو المستحيل بعينه..

دارت كل هذه الأفكار في ذهنها في لحظةٍ واحدة، وفي اللحظة التالية كانت تتجه إلى حيث دخل وهي تنوي أن تجعله يراجع كل ما درسه في حياته كلها حتى يُشخص ما ستدعيه.. وفي أعماقها قالت: لا بأس بأن تجرب بعض الحيرة يا عمرو.

و.. ودخلت..

كانت الغرفة دافئةً إلى حدٍ كبير، مما أراحها قليلًا وقلل من شعورها بالبرد..

أغلقت الباب بهدوء وهي تلتقط نفسًا عميقًا متمنيةً أن تستطيع السيطرة على ارتباكها وردود أفعالها..

ترى هل لديها الجرأة لفعل ذلك حقًا؟ أم...؟

التقى حاجباها فيما يشبه التحدي والتفتت..

كان يجلس خلف مكتبه وقد خلع معطف المطر الذي كان يرتديه منذ لحظاتٍ وعلقه جانبًا..

بابتسامةٍ مرتبكة قالت: من الممكن أن آتي غدًا لو أنك...

قاطعها في هدوء وهو يشير إليها بالجلوس: لا مشكلة.. لم أكن متعجلًا.

جلست على المقعد المجاور لمكتبه وهي تمنع نفسها من الابتسام في سعادة بصعوبة..

" لكم افتقدتك "

كان هذا ما طفق قلبها يبثه داخلها مع كل نبضةٍ من نبضاته المتزايدة..

وفي صمت جرت عيناها فوق ملامحه، في حين تراجع هو في مقعده وتظاهر بالانشغال في بعض الأوراق..

كان في الواقع يمنح نفسه بضع لحظاتٍ للتفكير محاولًا تذكر أين رآها من قبل..

لم تكلل محاولته بالنجاح، فرفع عينيه إليها وسألها على نحوٍ مباشر: هل سبق لك زيارة العيادة من قبل؟

انتبهت مع عبارته وتذكرت ما غفلت عنه في غمرة تفاجئها بوجوده.. حادث السيارة!

يبدو أنه لا يذكرها!

شعرت لحظةً بالإحباط، لكنها تجاوزت ذلك وقالت وهي تهز رأسها نافية: كلا.. إنها زيارتي الأولى.

لم يُرحه جوابها.. فهذا يعنى أنه إما رآها في مكانٍ آخر لا يذكره، أو أن الأمر اختلط عليه..

نحّى هذا جانبًا، ثم اعتدل في مقعده قائلًا: حسنًا يا آنسة ...

قطع عبارته على نحوٍ متسائل، فقالت بابتسامةٍ صغيرة: منى.

أكمل بلهجةٍ روتينية: حسنًا يا آنسة منى.. مما تشتكين؟

عاد قلبها الأحمق يدق في قوة وهي تسمعه يخاطبها باسمها لأول مرة.. كادت تبتسم مرةً أخرى لكنها انتبهت إلى أنه يسألها.. عليها أن تفكر في إجابةٍ سريعة..

صمتت تحاول التفكير في أي شيءٍ تقوله، إلا أن كل الأفكار هربت! وكلما حاولت أن تستجمع تركيزها تجده يتشتت بمجرد أن تقع عيناها على عينيه والتي حملت تساؤله المنتظر..

في الواقع.. طال صمتها حتى أنه قال في دهشة: آنسة منى.. أنا أُحدثكِ!!

انتفضت انتفاضةً خفيفة وقالت: آه.. أجل أعلم.. ولكن.. ولكن ذلك الألم عادوني بغتة.

التقى حاجباه في تساؤل منتظرًا أن تفصح له عن المزيد، فالتقطت نفسًا عميقًا واستعدت للكذبة الكبرى!

قالت وهي تتحاشى النظر لعينيه: ألمٌ غريب يراودني منذ فترةٍ قصيرة أشعر به فجأةً ودون مقدمات.

بدا الاهتمام على وجهه وهو يعاود السؤال: وأين تشعرين به بالضبط؟!

تأملت ملامحه المهتمة وهي تجيب: في مكانٍ ما داخل صدري.. أحيانًا أشعر أنه من مكان القلب وأحيانًا لا أدري من أين يصدر بالتحديد.

بدأ عمرو يرتب المعلومات في ذهنه، ثم قال وهو ينهض: وما مداه؟

هزت كتفها وقالت منتقيةً إجابة غير شافية : ليس شديدًا، وليس بسيطًا إلى الحد الذي يمكن تجاهله.

أومأ برأسه متفهمًا رغم أنه كان يتوقع كون ما تعانيه شيئًا طارئًا وحادًا إلى الحد الذي يدفعها لتخرج في مثل هذا الطقس وتبدو بمثل هذا الإجهاد، لكنه قال وهو يلتقط سماعته الطبية: حسنًا.. هلّا سمحت لي بفحصك.

قالها ثم أشار إلى فراش فحصٍ صغير في ركن المكان..

التفتت منى وسقط قلبها بين قدميها.. لم تتصور أن الأمر قد يحتاج فحصًا !

وجدت نفسها تهتف: كلا.

بدت عليه الدهشة، فعادت تقول وهي تحاول السيطرة على اضطرابها: أ.. أنا أخاف من فراش الفحص هذا.. كلا.. ليس هذا فقط، بل جميعهم.. جميعهم لا أحبهم.

ردد بنفس الدهشة: لا تحبينهم؟!

التقى حاجباها في توترٍ وهي تقول: لم أقصد هذا بالضبط ولكن.. لا يمكنني فعلًا الرقود عليه.. لا أدري ماذا يصيبني عندما أفعل.. شيءٌ ما يمكن أن تعتبره خوفًا مرضيًا ارتبط بذهني منذ كنت صغيرة.

ظل عمرو على دهشته لحظات، ثم قال: ولكن كيف سـ.....

قاطعته منى: أرجوك!

شعر عمرو بالحيرة ولم يبد عليه أنه اقتنع كثيرًا بما قالته.. هي نفسها شعرت بسذاجة حجتها، لكنها كانت أول ما مر بعقلها..

وبحركةٍ تلقائية - تعرفها جيدًا - مرر أصابعه في شعره وأطلق زفرةً عميقة..

بعد برهةٍ من الصمت قال وهو يشير إلى ركنٍ آخر: حسنًا.. ما رأيك في ذلك المقعد هناك.. إنه مقعدٌ عادي جدًا لا يشبه فراش الفحص لا من قريبٍ ولا من بعيد.

بدا عليها التردد، فأكمل في جدية: آنستي.. أنا طبيب.. ولا يمكن لأي طبيب أن يُشخص أي مرض اعتمادًا على كلام المريض فقط، لابد من أن يفحصه بنفسه وإلا...

قاطعته مرةً أخرى في خفوت: أنا لم أعترض.

كانت قد أدركت أنه لم يعد هناك مفر.. لقد بدأت الأمر بإرادتها وعليها أن تكمله حتى النهاية.. ثم ماذا سيحدث؟ سيعرف أنها لا تعاني شيئًا.. فليكن.. المهم أنها الآن بصحبته، ولا شيء يهمها حقًا غير ذلك..

نهضت ببطءٍ وتحركت نحو ذلك المقعد حيث أشار.. كان وثيرًا مريحًا أشعرها بأنها تغوص فيه.. أما هو، فقد جذب مقعدًا صغيرًا وجلس أمامها تمامًا و...

عادت تتوتر وخفقات قلبها تتواثب.. لقد أصبح هكذا قريبًا.. قريبًا للغاية..

تعلقت عيناها بعينيه دون أن تشعر، وأفلتت نظراتها نحوه من سيطرتها..

وقد لاحظ!

ما إن جلس حتى لاحظ نظراتها المباشرة..

طالعها في حيرة، وعلى الرغم منه عاوده ذلك الشعور بأنه رأى هذه الملامح وهاتين العينين من قبل.. لقد أصبح متأكدًا من أن الأمر لم يختلط عليه أبدًا.. لقد رآها من قبل بالفعل لكن أين ومتى، لا يذكر..

شعر بنظراتها تشده فعلًا حتى أنه نسيَ ما كان يريد قوله، فتنحنح وهو ينتزع نفسه منها بصعوبة، ثم قال وهو يعاود التركيز منحيًا أمر التذكر هذا جانبًا: قلت أنك تشعرين بذلك الألم منذ لحظات.. أمازال يراودك؟

أومأت برأسها إيجابًا في صمت، فالتقط معصمها ليقيس نبضها، لكن ما إن لامس يدها حتى غمغم: يدك باردةٌ كالثلج رغم دفء الغرفة.

قالها وهو يضم كفيه حول كفها وكأنما يمنحها بعض الدفء لتجري فيها الدماء، ثم تحركت أصابعه لتجس نبض شريان معصمها..

حقًا.. أرادت أن تسحب يدها من بين يديه، لكنها - وحقًا أيضًا - لم تفعل!

عقلها أطلق أمرًا لم تستجب له يدها.. فقط شعرت بالدماء تتجمع في وجنتيها ودفء كفيه ينساب لا إلى يديها فقط، بل إلى روحها وكيانها كله..

لم ينتبه بالطبع إلى أن ما فعله بتلقائيةٍ وباعتباره شيئًا عاديًا، كاد يصيبها بسكتةٍ قلبية.. ولم ينتبه أيضًا إلى وجهها الذي أحمر كثمرة طماطم.. ما شد انتباهه فقط هو معدل

نبضها السريع جدًا الذي لا يُناسب على الإطلاق من يراها تجلس هادئةً مسترخية على مقعدٍ وثير..

أن يكون هذا بسببه ولأجله، كان بالطبع أبعد ما يكون عن تفكيره الذي يبحث الآن عن تفسيرٍ علميٍ مقنع.. وفي رأيه لا أحد ينبض قلبه بهذه السرعة - باستبعاد وجود مشاكل في عضلة القلب نفسها - إلا في حالتين.. عندما يبذل مجهودًا عنيفًا أو يعاني انفعالًا شديدًا، وهو لا يراها الآن في أيٍ من الحالتين..

وفي حيرة رفع عينيه إليها متسائلًا: أأنت متوترة؟

حركت رأسها نافيةً ببطء، فعاد يسأل: خائفة؟

قالت في خفوت: كلا.

ترك معصمها ثم تراجع في مقعده وهمّ بقول شيءٍ ما، لكنها عادت تقول بنفس الخفوت: ربما أكون متوترة قليلًا.

قال بابتسامةٍ هادئة: لا داعي لذلك صدقيني.

التقط جهاز قياس الضغط ولفه حول ذراعها، بينما واصلت تطلعها الصامت إلى وجهه..

وفي أعماقها وُلد سؤالًا انتقل إلى لسانها فأطلقه بلا تفكير: كم تبلغ من العمر؟

ارتفع حاجباه في دهشةٍ وتفاجؤ وحملت لهجته بعض الاستنكار وهو يقول: ماذا؟!!

ظلت تنظر إليه بصمتٍ متسائل، فحدق فيها مندهشًا لا يدري من أين أتى هذا السؤال، وما الداعي له؟

استغرق برهةً ليتصنع البساطة قائلًا: بضعًا وثلاثين تقريبًا.. لكن.. لماذا تسألين؟!

كان من الواضح أن منى قد نسيت نفسها تمامًا وهي تقول بذات الخفوت وعينها لا تزال متعلقةً بوجهه: تبدو أصغر من ذلك.

تصاعدت دهشته إلى الذروة، لكنه لم يسمح لها أن تطفو على ملامحه هذه المرة، بل ظل محتفظًا بنفس الهدوء والبساطة وكرر وهو ينظر لعينيها مباشرة: لماذا تسألين؟؟

أعادها تساؤله إلى الواقع، فغمرها ارتباكٌ عنيف - لم تخطئه عيناه - من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها ولم تجد سوى أن تقول بابتسامةٍ مرتبكة: فضول.

لم يعلق، وبالطبع لم يقتنع.. هناك شيءٌ غير منطقي في هذه الفتاة.. شيء ما لا يدري كنهه بالضبط..

وكعادته أثناء العمل، نحى أفكاره جانبًا وعاد يركز في قياس ضغط دمها، فوجده طبيعيا جدًا.. بل مثاليًا!

أزاح السماعة الطبية عن أذنيه وانهمك في التفكير لحظات وهو يحل الجهاز عن ذراعها، ثم عاد يضعها ويمسك طرفها ملتفتًا إليها.. فهمت ما يهمّ بفعله، فقالت في ذعر: أنا...

قاطعها في لهجةٍ تحمل رغم هدوئها لمحةً واضحة من الحيرة: هل تخافين من هذه أيضًا؟!

تغضن حاجباها في توتر واحمر وجهها ولم تدرِ بماذا تجيبه، فعاد هو يقول مانحًا إياها ابتسامةً مشجعة: لا تخافي.. سماعتي هذه لها ميزةٌ مهمة جدًا، وهي أنها تعمل جيدًا من فوق الملابس.

ثم عقد حاجبيه في حزمٍ وهو يكمل: أما عيبها الوحيد، فهو أنه لابد منها دائمًا.

ودون أن يمنحها فرصةً أخرى للاعتراض، وضع السماعة على صدرها في مكان القلب تمامًا..

انتفضت انتفاضةً ملحوظة جعلته يقول: اهدئي أرجوك وحاولي التنفس بعمق.

انتابتها موجةٌ عنيفة من التوتر شلت تفكيرها تمامًا ووجدت نفسها تغمض عينيها وتغوص في مقعدها أكثر وكأنما تحاول الهروب منه، بينما تجمعت دماء جسدها كله في وجهها..

ولدقيقةٍ كاملة مرت عليها كعام، أصغى عمرو لما يسمعه في اهتمام وهو ينظر إلى الأرض ويحرك سماعته حركاتٍ محدودة.. لكنه لم يجد شيئًا.. بالطبع!!

قلبها سليمٌ مائة بالمائة وينبض على نحوٍ طبيعي جدًا، بل طبيعيٍ للغاية، على الرغم من ذلك المعدل السريع المضطرب لخفقاته والذي قد يسبب أحيانًا آلامًا خفيفة.. وهذا يعني أن سبب هذه الخفقات السريعة ليس مرضيًا بالمرة ولا يتعلق بعضلة القلب نفسها إطلاقًا بل يتعلق بأمر انفعاليٍ ونفسيٍ بحت..

ولكم كان تفسيره هذا صحيحًا برغم أنه مازال يراه من زاويةٍ مختلفة تمامًا عن الواقع..

افترض أيضًا أن لديها رهبةً زائدة تجاه التعامل مع الأطباء أو دخول العيادات والمستشفيات.. هو نفسه قابل أشخاصًا كُثر يعانون من الشيء نفسه، صحيحٌ أنها تبدو مختلفة، لكن من قال أن انفعالات الناس تتشابه..

واصل الاستماع لخفقات قلبها للحظةٍ إضافية ثم رفع عينيه إليها وهّم بقول شيءٍ ما، لكنه وجدها تغمض عينيها بقوة، محمرة الوجه ومنكمشةً على نفسها، وكأنما هي طفلةٌ صغيرة أخبرتها أمها أنها ستعاقبها لأنها لم تشرب اللبن! ابتسم على الرغم منه وهو يبعد السماعة، ووجد نفسه يتأمل ملامحها شاعرًا بأنها تبدو رقيقةً للغاية هكذا..

أخذه شعوره هذا حتى أنه لم ينتبه إلى أنها ستفتح عينيها حتمًا عندما تشعر أنه ابتعد بسماعته..

وقد فعلت..

فتحت عينيها لتجده يتأملها مبتسمًا.. و...

وتلاقت العيون للحظة..

لحظةٌ قصيرةٌ بالنسبة للزمن.. طويلةٌ بالنسبة لها!

وربما له!!

تضاعف احمرار وجهها.. وغمره هو شعورٌ بارتباكٍ عجيب لم يشعر بمثله من قبل، فتراجع في مقعده وهو يزيح السماعة عن أذنيه ليتركها معلقةً حول رقبته..

غلفهما الصمت لحظات، قام بعدها عمرو من مكانه وجلس خلف مكتبه، ثم قال في هدوء وهو يشير لها بالجلوس على المقعد المجاور للمكتب: في الواقع يا آنسة منى قلبك سليمٌ وطبيعي جدًا ولا يعاني من أي اضطراباتٍ على الإطلاق.

عاد توترها يتزايد، وتوقعت أن تكون العبارة التالية " أنت كاذبة وتضيعين من وقتك ووقتي "، لكنها وكمحاولةٍ أخيرة لتبدو صادقةً أكثر، قالت متصنعةً القلق: وما سبب ذلك الألم الذي أشعر به إذًا؟

مط شفتيه وقال: الأرجح أنها أسبابٌ غير عضوية.

بدا عليها الاستغراب ، فأكمل هو يميل بجسده إلى الأمام: أيتزامن ذلك الألم مع لحظات انفعالٍ أو ضيق؟

فهمت ما يقصده بسؤاله فتنفست الصعداء.. لم تتوقع أن يكون هناك تشخيصًا لذلك الهراء الذي تفوهت به، ويبدو أن انفعالاتها المنفلتة هي ما قادته لذلك التفسير..

أومأت برأسها إيجابًا تدعم استنتاجه، ثم أضافت تؤكده: اليوم هاجمني قويًا بعدما شعرت بضيقٍ شديد.

سأل في اهتمام: وما كان سببه؟!

لا تدري لمَ قفزت إلى ذهنها بغتة مع سؤاله ذكرى نتائج الاختبارات، فتغضن حاجباها وتراجعت في مقعدها ولمحة حزنٍ وضيق واضحة ترتسم على ملامحها، ثم أشاحت بوجهها دون أن تحر جوابًا..

شعر عمرو أن سؤاله لم يكن مناسبًا، وقبل أن يجد ما يمكنه قوله ليبتعد بالحديث في اتجاهٍ آخر، رفعت هي رأسها ليطالعه وجهها الذي احمّر قليلًا وعيناها التي التمعت بدموعٍ حبيسة منحتها بريقًا زاد من جمالها، بينما تقول بخفوت: كان خبرًا سخيفًا ضايقني كثيرًا.

أراد أن يسألها عن شعورها ساعتها بذلك الألم، إلا أنه وجد نفسه يقول في خفوتٍ كخفوتها وعيناه متعلقتان بعينيها: هل رأيتك من قبل؟!

أدهشها سؤاله بشدة، وأدهشتها أكثر لهجته الحائرة..

طالعته بصمتٍ طال لبرهة لفظ خلالها قلبها كل ما خيّم عليه بغتة من ضيقٍ وحزن، ولم يعد يشعر سوى به..

- لـ.. لا أذكر ذلك.

أتاه جوابها الخافت نفيًا، فازدادت حيرته.. ورغم ذلك، لم يتزحزح شعوره بالإثبات!

لقد التقاها من قبل بالفعل..

هذا الوجه الخمري..

هذه الملامح الرقيقة..

هاتان العينان الواسعتان..

تلك النظرة الـ....

تصاعد رنين هاتفه الخاص في هذه اللحظة ينتزعه من أفكاره، فانعقد حاجباه في ضيق ومد يده في سرعة يلتقطه من جيبه ليلقى نظرةً على شاشته.. لم يكن اتصالًا مهمًا لذا لم يُجبه، لكنه أخرس رنينه..

وبينما يفعل، شعر أنه لم يكن ينبغي أن يستغرق في أفكارٍ جانبية على هذا النحو، فطرد هذه الأفكار من عقله طردًا، ثم وبصوتٍ استعاد هدوءه الحازم قال وهو يعيد هاتفه إلى جيبه: كما سبق وأخبرتك آنسة منى.. سبب الألم الذي تشعرين به ليس عضوي بالمرة،

فقلبك لا يعانى من أي قصورٍ أو اضطرابات في وظائفه، ولهذا أعتقد أن سببه نفسي بالدرجة الأولى.

شعرت منى بضيقٍ غير مبرر عندما عاد حديثه يصطبغ بتلك اللهجة العملية الهادئة، فقالت تحاول إطالته وحسب: أيعني هذا أني أعاني من مشكلةٍ نفسية ما؟!

- كلا.. لم أقصد هذا.. وإنما قصدت أن شعورك به يتعلق بلحظات انفعالك الشديد.

طالعته بصمتٍ جعله يعتقد أنها لم تفهم بعد ما يعنيه، فالتقط نفسًا عميقًا وقال: لست أدري كيف أشرح لك الـ..

قاطعته في هدوء: أنا أفهم ما تعنيه بالتأكيد فأنا طالبة في السنة النهائية من كلية الصيدلة، لكننا لا ندرس هذه الأشياء كما تدرسونها أنتم.

ابتسم قائلًا: الأمر ليس عميقًا أو معقدًا إلى هذا الحد.

ثم أتبعه قوله بشرحٍ مختصر امتلأ عن آخره بالمصطلحات الإنجليزية وكأنما أراحته معرفته بطبيعة دراستها من عناء الترجمة، فشعرت هي للمرة الأولى في حياتها كم كان اختيارها لكلية الصيدلة مناسبًا!

ومع انتهاء حديثه تراجعت في مقعدها مغمغمة: لستُ انفعاليةً إلى هذا الحد.

هز كتفه وابتسم قائلًا: ربما.. لكن لقلبك رأيٌ آخر، بل وأعلن إرهاقه من إجهادك له بالانفعال في صورة ذلك الألم.

" وماذا يفعل وأنت سبب كل مشاكله! "

قالتها لنفسها بالطبع تصحبها زفرةٌ عميقة، ثم ابتسمت ابتسامةً باهتة وقالت: يبدو أنني أمتلك قلبًا ذا شخصيةٍ قوية.

قال في مرح: ولهذا يجب أن تطيعيه وتبتعدي عن الانفعالات.

أجل.. يجب أن تطيعه..

هذا ما شعرت به مسبقًا وما أيقنت منه الآن بكل جوارحها..

لا تدري كيف، لكنها ستفعل.. لا تدري إلى متى، لكنها حتمًا ستفعل..

قطع صوته أفكارها قائلًا: يمكنك أن تطمئني أكثر بعمل رسم قلب.

قالت في هدوء: لا داعي لذلك إطلاقًا.. أنا أثق بك.

منحها واحدةً من ابتساماته العذبة، فمنحته واحدةً من ابتساماتها الرقيقة وقالت: شكرًا لك.

كانت تعلم أن وجودها معه يمر بلحظاته الأخيرة، فغادرت مجلسها ثم أجبرت نفسها على الالتفات واتجهت بسرعة نحو الباب، إلا أن نفسها خانتها ودفعتها لتلتفت مرةً أخرى إليه تسأله: هل من الممكن أن أتناول بعض المهدئات؟

لم تكن تبغي من سؤالها سوى الوقت الذي يستغرقه، لكنه أجاب في سرعةٍ وحزم: كلا.. المهدئات ليست مفيدةً على الإطلاق في حالتك هذه.. فقط ابتعدي عن الانفعالات قدر الإمكان.

أومأت برأسها متفهمةً وهمّت بالمغادرة، لكنه استوقفها قائلًا بابتسامةٍ أنيقة: أعتقد أن هناك ما يمكن أن يفيدك.

ثم التقط قلمه وخط شيئًا ما على ورقةٍ أمامه مد يده بها إليها مردفًا: يمكنك استخدامه عندما تشعرين بذلك الألم يعاودك.

تناولت الورقة وألقت نظرةً على ما بها ليرتفع حاجباها في دهشة..

لم يكن ما خطه بالإنجليزية، لكن هذا لم يكن السبب الوحيد لكونه لا يصلح لأن يكون اسم دواءٍ بأي حالٍ من الأحوال..

" اهدئي "

هذه الكلمة فقط هي ما حوتها الورقة ودفعتها لترفع إليه عينيها المندهشتين، فطالعها وجهه المبتسم..

كللت شفتيها ابتسامةٌ كبيرة وقالت: سيكون حتمًا مفيدًا.

****

* ٧ *

*** " ها هي ذي "

انطلقت تلك العبارة في لهفة من أمام نافذة حجرة منى حاملةً صوت بسمة، التي وقع بصرها في هذه اللحظة على منى وهي تقترب باتجاه المنزل..

وصلت العبارة المتلهفة إلى مسامع منى، فرفعت عينيها إلى حيث تقف بسمة لتبدو عليها الدهشة من وجودها في منزلها..

كان والد منى ووالدتها يجلسان في غرفة المعيشة غارقين في بحرٍ من القلق والانتظار.. وما إن خرجت بسمة من غرفة منى حتى اتجهت عيونهما إليها، فقالت في سرعة: لقد عادت.

فُتح الباب لحظتها لتدخل منى وتلقي السلام في خفوت.

رد والدها السلام وهو يتنهد في ارتياح، في حين ظلت الأم صامتة وإن أطلت من عينيها نظرة حنانٍ مشفق وهي تتأمل ابنتها.. وبابتسامةٍ مريرة التفتت منى إلى بسمة قائلة: ولِمَ العجلة يا عزيزتي.. كنت سأخبرهم أنا.

شعرت بسمة بإشفاقٍ بالغ من المرارة التي يقطر بها صوتها، فأجبرت نفسها على الابتسام وقالت: لا يمكنك فعل ذلك لأنك - أنت نفسك - لا تعرفين.

ردت منى بنفس اللهجة: كفى عن ذلك التحذلق الكلامي أرجوك بسمة.

- أين كنت يا بنيتي؟ لقد حاولنا الاتصال بك كثيرًا.

كان هذا تساؤل أمها، فانتبهت فجأةً إلى أنها لم تسمع رنين هاتفها طوال تلك المدة، فقالت مندهشة وهي تخرجه من حقيبتها الصغيرة: حقًا؟!

ألقت نظرة على شاشته لتجد عشرات المكالمات الفائتة من بسمة ووالدها ووالدتها، في حين قالت بسمة: أراهن أنه على الوضع الصامت منذ كنا في آخر محاضرة.

تنهدت منى قائلةً وهي تلقي نفسها على أقرب مقعد: هذا صحيح.. لكن لِمَ كل هذا القلق؟ كنت....

قاطعتها بسمة: كنت متسرعة.. لماذا اختفيت بهذه السرعة؟ ولماذا لم تنتظري حتى تتأكدي مما سمعته؟

أشاحت منى بوجهها تحاول منع نفسها من معاودة البكاء، لكنها وجدت بسمة تفتح ورقةً مطوية كانت في يدها وتضعها أمام عينيها تمامًا..

أدركت منى ماهية الورقة على الفور.. كانت صورةً من كشف النتائج لمن تبدأ أسماؤهم بحرفي الميم والنون!

هبت واقفة واختطفت الورقة ونظرها ينتقل بسرعة من اسمها في منتصف الكشف إلى خانات النتائج حيث لم تكن هناك أية دوائر حمراء على الإطلاق! لا حول " علم السموم " ولا غيرها من موادهم الدراسية، بل على العكس، كانت النتائج جميعها جيدةً جدًا..

خفق قلبها بقوة وأعجزها الانفعال عن التفوه بكلمة.. رفعت عينين مندهشتين إلى بسمة، فأجابتها بابتسامةٍ كبيرة..

ترقرقت عيناها بالدموع فاقتربت والدتها واحتضنها بحنانٍ وهي تقول: مبارك يا حبيبتي.. لقد كانت زميلتك السخيفة تكذب تلاعبًا بأعصابك.

قالت بسمة: في الحقيقة كانت تمزح، لكنها لم تدرك مدى كارثية مزاحها وسخافته إلا متأخرًا.

اقترب والدها منها وربّت على رأسها قائلًا في حنان: فلتحمدي الله عز وجل على أنها لم تكن حقيقة.

تمتمت منى بحمد الله، ثم اتجهت نحو بسمة وعانقتها في قوة مغمغمة: أشكرك يا بسمة.. أشكرك كثيرًا.

ثم أمسكت كتفيها وقالت: ولكن أخبريني.. ماذا عن نتائجك أنت؟

رفعت بسمة حاجبيها في دهشةٍ مصطنعة قائلة: أخيرًا تذكرت أنني معك في نفس السنة الدراسية!

ضحكت، فأجابتها بسمة: نتائجي أيضًا جيدةٌ جدًا والحمد لله.

أطلقت منى تنهيدة ارتياحٍ قوية ورددت: حمدًا لله.

ثم عادت تجلس هاتفة: يا إلهي كم أشعر بالتعب.

سألتها بسمة وهي تتخذ مجلسًا بجوارها: أين كنت طوال هذه المدة؟ لقد فقدت أثرك منذ ساعتين على الأقل.

ابتسمت ابتسامةً شاحبة وقالت: أمشي بلا هدفٍ في الطرقات.. كنت محبطةً جدًا ولم أكن أريد التحدث مع أحد.

- لكنها أمطرت لنصف ساعةٍ على الأقل!!

قالت وهي تشير لرأسها: تلقيت المطر كله فوق رأسي، ثم ...

صمتت لحظةً اتسعت خلالها ابتسامتها قليلًا ثم أكملت: ثم عدتُ إلى هنا.

تصنعت بسمة السخط قائلة: كل هذا وأنا أبحث عنك في الجامعة حتى تقطعت أنفاسي.

ثم التفتت إلى والدة منى وقالت: أرأيت كم أعاني معها!

قالت والدتها ضاحكة: بصراحة.. كان الله في عونك.

ضحك الجميع في مرح.. ثم قالت بسمة: أتركك الآن ترتاحين.. وغدًا أراك في الجامعة.

هتفت منى بغتة: كلا.. إلى أين تذهبين؟! يجب.. يجب...

صمتت تبحث عما تتحجج به، ثم لم تلبث أن قالت: يجب أن نتناول الغداء سويًا.

اندفع والدها ووالدتها يؤيدان الفكرة بحماس، فقالت بسمة: اعذروني هذه المرة، فلقد تأخرت أنا أيضًا.

قالت منى معترضة: لكن...

قاطعتها بسمة وهي تصافحها: ربما فيما بعد.

تنهدت منى مستسلمةً وقالت: حسنًا.. كنت أريد فقط أن...

صمتت لحظة لتكمل بلهجةٍ ذات مغزى: أن أخبرك بشيءٍ مهم.

أشعلت لهجتها فضول بسمة ونظرت إليها في تساؤل، فزادت منى من إثارة فضولها بنظرةٍ غامضة..

- غدًا إن شاء الله سيكون لدينا الكثير من الوقت لنتحدث كيفما نشاء.

مطت منى شفتيها بإحباط، فمالت بسمة على أذنها وهمست: ماذا هناك؟ أشعر أنك ستخبريني بكارثةٍ كالمعتاد.

همست منى بدورها في غيظ: ومن قال أني سأخبرك بشيء؟ لقد غيرت رأيي.

غمزت بسمة بعينها وقالت: أتراهني؟

ابتسمت منى على الرغم منها، بينما بسمة تكمل: ملحوظةٌ صغيرة.. أنت تخسرين الرهان دائمًا!

ضحكت كلتاهما وتعانقتا في حرارة قبل أن تودعها منى عند الباب..

****

*** استيقظ عمرو بغتةً على صوت رنين هاتفه المتواصل، فتغضن حاجباه في ضيقٍ وهو يتساءل عمن يحاول الاتصال به في مثل هذا الوقت.. إنه لا يريد الاستيقاظ الآن..

اعتدل مرغمًا ومد يده يلتقط هاتفه ليُسكت رنينه مغمغمًا: هلا خرست قليلًا.

تجاهل إجابة الاتصال رغم كونه من باسل الذي سبقه بمغادرة الإسكندرية بيومٍ كامل.. سيعاود هو الاتصال به فيما بعد..

ألقى نظرة على الساعة التي أشارت أرقامها إلى العاشرة مساءً.. صارت له أربع ساعاتٍ تقريبًا منذ وصوله وخلوده للنوم، إلا أنه غمغم بإرهاقٍ وهو يمرر أصابعه في شعره: لم أشعر أنني نمت ربع هذا الوقت!

تثاءب في عمق وهمّ بالنهوض، لكنه أحس برغبةٍ عارمة في مواصلة النوم والعودة إلى دفء الفراش ، فعاد يغوص بجسده تحت الأغطية الثقيلة وقد استقر في نفسه أن لا شيء يستحق منه مغادرة هذا الدفء من أجله.

دفن رأسه في الوسادة ومد يده تحتها يضمها لتمنحه مزيدًا من الدفء، لكن هاتفه عاد يطلق رنين الاتصال فتنهد في قوة واعتدل يلتقطه مرةً أخرى قائلًا: يبدو أنه مُصرّ.

كان باسل ثانيةً، فأجابه عمرو هذه المرة وقال وهو يعاود الاستلقاء: أهلًا باسل.

أتاه صوت باسل يقول بحماس: عمّور.. كيف حالك؟

تثاءب وأجابه: بخير والحمد لله.

- أمازلت هناك؟

- هناك أين؟!

- في الإسكندرية!

- كلا بالطبع.. لقد عدت ظهر اليوم.

أظهر صوت باسل لهجة عتابه وهو يقول: أخبرتني أنك ستهاتفني فور وصولك.

- اعذرني.. فبمجرد وصولي لم أشعر بنفسي إلا الآن.

- وماذا تفعل الآن؟

أجابه عمرو بصوتٍ ناعس: نائمٌ في فراشي أنعم بدفئه، وأحتضن وسادتي الغالية وحبيبتي الحالية لحين صدور إشعارٍ آخر.

وصلته ضحكة باسل عبر الهاتف وهو يقول: حبيبتك الحالية؟! أتعشم ألا ترضى كثيرًا بالوضع الحالي وتظل بقية عمرك غير قادرٍ على إصدار أية إشعارات.

ضحك عمرو بدوره وقال: لا تقلق.. وضعي الحالي لا يرضيني كثيرًا.. لكن دعك من هذا.. ما رأيك في بعض النشاط؟

تساءل باسل: نشاطٌ من أي نوع؟

- فلنذهب إلى صالة الألعاب الرياضية، نتناول بعدها العشاء سويًا في أي مكان.

قال باسل ضاحكًا: لا أشتاق لممارسة الملاكمة مثلك، ثم إنني مدعو على العشاء اليوم.

مط عمرو شفتيه في إحباط وقال: عند خطيبتك بالطبع.

أتاه رد باسل بالإيجاب، فأردف: لو أنك تحتاج السيارة فلا مانع لديّ.

أطلق باسل ضحكةً باهتة وقال: لاااا.. شكرًا.. لقد عافت نفسي قيادة السيارات إلى أجلٍ غير مسمى.

اعتدل عمرو وقال وقد استغرب قوله: ماذا هناك؟ هل حدث شيءٌ ما سيئ ؟

وصلته عبر الهاتف تنهيدةٌ حارة من باسل أعقبها صوته يقول: كدت ألقى اليوم حتفي بسبب متهورٍ أحمق يقود سيارته بسرعةٍ جنونية.. كنت أعبر الطريق في أمان الله عندما فوجئت به أمامي و...

قاطعة عمرو قائلًا في قلق: وهل أصبت بسوء؟

أجابه باسل بسرعة: كلا اطمئن، فلقد تفاداني بمعجزة.. لكني في الواقع كدت أموت رعبًا.

قال له عمرو معاتبًا: يجب أن تكون أكثر انتباهًا أثناء عبور الطريق.

صاح باسل في اعتراض: لقد كنت منتبهًا.. قائد السيارة هو الذي كان متهورًا.

ابتسم عمرو وقال: ليس بالضرورة أن يكون متهورًا.. ربما فوجئ بك في طريقه مثلما فوجئت أنت به تمامًا.

ثم استطرد وهو يداعب شعره: لقد هذا حدث معي بالفعل!

- حقًا؟!

أومأ عمرو برأسه إيجابًا دون أن ينتبه إلى أن إجابته الحركية هذه لن تصل إلى باسل بالتأكيد، ثم تابع: كنت عائدًا من المستشفى الأسبوع الماضي في طريقي للمنزل، عندما فوجئت بفتاةٍ تعبر الطريق فجأةً وبدون مقدمات.

سأله باسل باهتمام: وكيف تصرفت في موقفٍ كهذا.. هل استطعت تفاديها؟!

- بالكاد.. استطعت التوقف بصعوبةٍ بالغة و...

بتر عبارته بغتة والتقى حاجباه وشيءٌ ما يضيء في عقله..

لقد كان يتحدث وذهنه يسترجع الموقف تلقائيًا، وعندما همّ أن يخبر باسل أنها أصيبت مثله برعبٍ وذعرٍ شديدين على نحوٍ أشعره بالذنب، استرجع عقله صورة الفتاة الرقيقة المذعورة التي شعر بارتجافة يدها بين يديه..

إنها هي!

هي من أتت العيادة اليوم..

بالتأكيد هي..

الآن عرف لماذا شعر بأن ملامحها مألوفة..

- عمرو.. إلى أين ذهبت؟

قطع صوت باسل أفكاره، فانتبه قائلًا: ها أنا ذا معك.. فقط تذكرت شيئًا ما.. المهم أنه قُدرت لكلينا السلامة.

حاكى باسل أسلوبه وقال: يجب أن تكون أكثر انتباهًا أثناء القيادة.

ضحك عمرو فاستطرد باسل: أراك غدًا في المستشفى.. إلى اللقاء.

- حسنًا.. إلى اللقاء.

أنهى عمرو الاتصال وأغلق هاتفه حتى لا يوقظه أحدهم مرةً أخرى، ثم تثاءب في إرهاق واستلقى في فراشه راغبًا في مواصلة النوم..

استعاد جسده استرخاءه سريعًا، لكن ذهنه ظل مستيقظًا.. كلما حاول دفعه إلى الاسترخاء والتفكير في لا شيء، أبى وانشغل بمواقف وأفكار غريبة غير مترابطة..

ومن بين ما مر بتفكيره، ما تذكره منذ لحظات..

كان يعلم أن ذاكرته بالنسبة للأشخاص ليست قويةً للغاية، ربما بسبب طبيعة عمله، فكم من مريضٍ يفحصه يوميًا سواءً في المستشفى أو في العيادة، وليس من الممكن أن يذكر كل هؤلاء.. لقد تعود أن ينسى بسرعة، لكنه برغم ذلك يذكر الآن وبكل وضوح ملامح تلك الفتاة التي فحصها اليوم والتي تذكر الآن فقط أنها هي من كادت تتسبب بحادث السيارة الأسبوع الماضي..

ماذا كان اسمها؟

منى؟ أجل.. منى..

غريبةٌ منى هذه.. ولا يدري لماذا!

أخذ يسترجع لحظات وجودها في العيادة محاولًا إيجاد ما يؤيد شعوره هذا في تصرفاتها، ولكن...

حقًا هي لم تفعل ما يمكن وصفه بأنه غريب.. صحيحٌ أنها تخاف من كل شيءٍ بلا مبرر، وصحيحٌ أنها...

أنها...

لا يدري.. ربما هناك شيءٌ ما في مجمل تصرفاتها.. ربما في...

في نظراتها!!

توقف تفكيره طويلًا عند نظراتها هذه.. نظراتها الـ... لا يدري بمَ يمكنه وصفها..

غريبة؟!

أجل.. غريبة.. غرابةٌ من النوع الذي يشعل الفضول إشعالًا لسبر أغوارها..

جذابة؟!

جدًا.. ليس لجمال عينيها - رغم أن عينيها جميلتين فعلًا - ولكن لسببٍ آخر لا يدري كنهه..

غامضة؟!

ربما.. لكنه حقًا لا يفهمها..

إنها المرة الأولى في حياته التي تواجهه نظرةٌ تشد انتباهه وتثير اهتمامه إلى هذا الحد..

نظرةٌ لا تحمل انفعالًا واضحًا يمكن لأي شخصٍ أن يستشفه..

نظرةٌ تجذبه وتشتت تفكيره، بل وتربكه!

التقط نفسًا عميقًا وتقلب في الفراش وهو يغلق عينيه في قوة وكأنما يجبر نفسه على إيقاف شلال الأفكار الذي يشغل عقله ويقف حاجزًا بينه وبين مواصلة النوم..

ظل على حالته هذه بضع دقائق أخرى قبل أن ينتصر النوم أخيرًا ويغوص به إلى الأعماق..

لم يدرِ أن تفسير كل ما يثير حيرته هذه واضحٌ كالشمس..

لم يدرِ أن الأمر كله يتلخص في كلمةٍ واحدة خرجت من أعمق أعماق قلبٍ محب..

كلمةٌ تطير الآن عبر الهواء بحروفٍ وردية لامعة، تحملها ورقةٌ صغيرة مطوية ويسافر بها مشبكٌ أحمر صغير في رحلةٍ جريئة تقصد سيارته..

كلمةٌ تقول..

"أحبك"

****

*** أطلقت منى تنهيدةٌ حارة وهي تغلق النافذة بعد أن تمت المهمة بنجاح ووصل المشبك بحمله الثمين إلى مكانٍ ظاهر على السيارة..

ألصقت ظهرها بالنافذة المغلقة بذهنٍ شارد.. لا تعرف إن كان قد عثر على رسالتها الأولى أم لا، لذا لم تستطع تخيل أبعاد رد فعله..

عادت لمكتبها الصغير وأخرجت الورقة الصغيرة التي تحمل " وصفته العلاجية " وتأملتها طويلًا.. خطه منمقٌ بأحرف كبيرة واثقة.. شعرت بدقات قلبها تتزايد وهي تستعيد تلك الدقائق القليلة التي جمعتهما، فغمغمت بابتسامة: امتثل للعلاج واهدأ يا أحمق.

تنهدت بقوة، ثم أخفت الورقة بعناية وانشغلت بالدراسة لبعض الوقت حتى قطع انهماكها رنين هاتفها..

ابتسمت مع رؤية صورة بسمة على شاشته، قبل أن تجيب اتصالها قائلة: أهلًا بسمتي.

- بسمتي! لا شكرًا.. لا أفضل الأرز على العشاء!

ضحكت منى كثيرًا مما دفع بسمة للضحك بدورها رغم غيظها، ثم لم تلبث أن قالت: سأسامحك إن أخبرتني ماذا حدث.

فهمت منى مقصدها على الفور، لكنها قالت مداعبة: وماذا حدث؟

قالت بسمة بفضولٍ لم تستطع اخفاءه: ما كنت ستخبريني به عندما كنت بمنزلك.

ردت بلا مبالاة مصطنعة: كنت أمزح.

بلغها صوت بسمة يقول بإصرار: كلا.. أنا أعلم أن هناك ما تخبريني به.

أفلتت منها ضحكةٌ خافتة وقالت: ولماذا لم تنتظري حينها لتعرفيه؟

قالت بسمة بحماس: لم أكن أتوقع أن فضولي لن يحتمل الانتظار، ولم أكن أعلم ساعتها أن الأمر يتعلق بعمرو!

سألتها متعجبة: ومن أدراك أن الأمر يتعلق بعمرو؟!

أجابت بسمة بثقة: سيارته التي وجدتها أمام المنزل عند رحيلي.

عادت منى تضحك، فتابعت بسمة تستحثها: هيا تكلمي.. أنا أريد النوم.

- فلتخلدي للنوم إذًا.

- لا أستطيع النوم والفضول يقتلني.

- كنت سأخبرك غدًا عندما نتقابل في الجامعة.

- أخبريني الآن.

قالت منى ضاحكة: يبدو أن فضولك قد اشتعل بالفعل ولم يعد أمامي سوى إطفائه.

- هذه هي منى صديقتي.

أخرجت منى ما بجعبتها و بسمة تستمع إليها مشدوهة.. ابتداءً من أول مشبك أحمر خرج من نافذتها حتى ذاك الذي مازال يرقد بحمله هناك على السيارة..

وطوال حديثها، لم تقاطعها بسمة ولو بكلمةٍ واحدة حتى انتهت، فقالت منى: بسمة.. أمازلت معي؟

- أجل.

- و.. ولمَ الصمت؟

قالت بسمة في بطء: في الواقع أنا أشفق على هذا الرجل!

بلغتها ضحكةٌ قصيرةٌ خافتة، فاستطردت: منى.. يا صديقتي العزيزة.. دعيني أخبرك بشيء مهم.

صمتت منى بانتظار ما ستفصح عنه، فتابعت بسمة: أنت مجنونة!!

تعالى صوتها في ضحكةٍ أخرى ثم قالت: هذا ليس جديدًا.

- كلا.. مجنونة فعلًا لا وصفًا.. و عمرو هذا لن يكون أمامه سوى خيارين لا ثالث لهما.. إما أن يُجن هو الآخر، وإما أن يحبك.. وثمة احتمال ثالث لا بأس به هو أن ينتحر ويستريح.

قالت منى مستنكرة: كل هذا من أجل...

قاطعتها بسمة ضاحكة: ليس من أجل ما حدث فقط، بل من أجل ما سيحدث أيضًا.. فمن تلقى بنفسها أمام السيارات المسرعة ومن ترسل رسائل بمشابك الغسيل ،يمكنها أن تفعل ما هو أكثر جنونًا.. هل تعلمين.. لن أندهش يومًا لو قلت أنك اشتريت مسدسًا وأنك ستذهبين إليه لتهدديه، إما أن يحبك ويتزوجك وأما أن تقتلي نفسك ثم تقتليه.. لا أدري طبعًا كيف ستقتلينه بعد أن تكوني قد متِ أصلًا، لكن هذه هي مشكلتك أنتِ لا مشكلتي أنا!

عادت منى تضحك فقالت بسمة: منى.. احذري.. كل تصرفاتك حتى الآن تتسم بتهورٍ بالغ وبدأت أخاف عليك بالفعل.

- لا تقلقي.. صدقيني أنا في أفضل حال.

كانت بسمة تعلم أنها تتصرف بدافعٍ من الصعب جدًا التحكم فيه، وللأسف تعلم أيضًا أن المناقشة فيه بلا فائدة، فتنهدت في عمق، في حين قالت منى: أحبك يا بسمتي.

- أنا! متأكدة؟!

- طبعًا.. لكني أحبه أكثر قليلًا.

ضحكت كلتاهما، ثم قالت بسمة: سأنسحب بكرامتي.. أراك غدًا يا... يا مجنونة.

****

* ٨ *

*** استيقظ عمرو مبكرًا وارتدى زيه الرياضي استعدادًا لأن يخرج للتريض كعادته..

التقط نفسًا عميقًا ملأ به صدره قبل أن يخرج إلى الحديقة حيث وقف يمارس بعض تمرينات الإحماء الخفيفة..

وبينما هو كذلك.. وهناك، خلف نافذة الطابق الثاني للبناية المواجهة كانت منى قد استيقظت لتوها..

أزاحت ستائر النافذة وفتحتها بحذر، ثم وقفت تتطلع منها عبر فرجةٍ ضيقة، لتقع عينيها عليه داخل الحديقة..

ابتسمت.. وتألق في عينيها انفعالٌ يتناسب تمامًا مع ما يخفق به قلبها.. وكما تفعل دائمًا، وقفت صامتة تسبح في بحرٍ من المشاعر المتدفقة بينما عيناها وقلبها برفقته..

رأته يتجه بخطواتٍ سريعة نحو الخارج، فتزايدت خفقات قلبها واندفعت تبحث بعينيها عن مشبكها الصغير على سيارته.. انزعجت بشدة عندما لم تجده على سقف السيارة حيث أسقطته أمس، لكنها لم تلبث أن تنهدت في ارتياح عندما رأته مستقرًا على حقيبة السيارة.. يبدو أن الهواء قد دفعه ليسقط هناك أثناء الليل..

عادت عيناها إلى عمرو الذي ألقى نظرةً روتينية على سيارته ثم بدأ عدوه بطول الشارع..

أدركت من اتجاهه أن حقيبة السيارة ستصبح في مواجهته عندما يعود وعندئذٍ...

هاجمها التوتر وطفق يتزايد خلال العشر دقائق التي غاب فيها عن ناظرها، قبل أن ترتفع حدته بغتة مع اقترابه عائدًا، فضيّقت فرجة النافذة التي تنظر عبرها بحركةٍ غريزية..

وبالفعل لمحه..

لمحت عيناه شيئًا أحمر على سيارته أدرك ماهيته على الفور، فانعقد حاجباه في شدة وهو يتوقف بحركةٍ مفاجأة كادت تخل بتوازنه.. وبصوتٍ لاهث مندهش قال وهو يلتقطه: أنت ثانيةً!!

وبانفعالٍ ولهفة لم يدرِ من أين أتيا، أزال المشبك الصغير وفتح الورقة الصغيرة ليقرأ ما بها هذه المرة و...

"أحبك"

نفس الكلمة.. بنفس الخط الأنيق والحبر الوردي اللامع..

نفس الكلمة بنفس الغموض والحيرة..

ومن مكانها رأته منى يقف متسمرًا يتطلع إلى رسالتها المستقرة بين أصابعه، ثم يتلفت حوله في حيرة..

أما ما لم تراه وما لم تعرفه، أن قلبه كان يخفق منفعلًا في قوة!

إنه هو.. هو المقصود بلا شك بهذه الـ.. الرسائل الغريبة..

لكن من تكون مرسلتها؟!

لا يدري.. وإذا استمر الأمر على هذا الحال، فلن يدري أبدًا..

شعر بحيرةٍ شديدة ولدهشته، شعر أيضًا بالسرور..

وبابتسامةٍ باهتة، عاد يتطلع إلى الورقة الصغيرة ثم لم يلبث أن طواها وأودعها جيبه في عناية.. وما إن فعل حتى كادت منى تطير فرحًا فهي لم تتمنَ حقًا أكثر من هذا..

أما هو، فشعر أن رغبته في مواصلة التريض قد تبخرت، فمال يستند على السيارة مطلقًا لأفكاره العنان..

هناك احتمالان لا ثالث لهما.. إما أن أحدهم يعابثه، وإما أن هناك بالفعل من يعنى ما يكتبه..

في الحالة الأولى ستكون الدعابة ثقيلةً سخيفة، وفي الثانية ستكون كارثة! فلا أحد عاقل يفعل هذا بالتأكيد..

لو ترك الأمر لحدسه لكان الاحتمال الثاني.. لا يوجد عبثٌ بمثل هذا الاتقان ولا هذا التعقيد.. العبث يبدو دائمًا عبثًا لأنه عبث!

حسنًا.. مازال السؤال الآخر قائمًا بلا إجابة.. من؟!

أخذه الشرود.. وكانت منى مثله، لكنها كانت شاردةً فيه! لهذا لم تنتبه إلى أنها زادت من اتساع فرجة النافذة التي تراقبه عبرها..

لم تنتبه إلا حينما حانت من عمرو التفاتةً إلى حيث هي و...

لم تدرِ حقًا متى تراجعت برأسها، ومتى أغلقت النافذة، وكيف أصبحت الآن تقف فوق الفراش.. ولا ما هو هذا الشيء الذي يدق داخلها.. أهو قلبها حقًا، أم طبلةٌ أفريقية!

وبقدمين مرتجفتين.. هبطت عن الفراش وهي تشعر بألمٍ حاد في جانب رأسها جعلها تدرك أنه قد ارتطم بإطار النافذة وهي تتراجع مسرعة.. لكن هذا لا يهم الآن.. المهم هو هل .....؟

لم تجرؤ على إلقاء السؤال، ولم تجرؤ على الإجابة ولا حتى على العودة إلى النافذة.. كل ما استطاعت أن تفعله هو أن عادت للفراش وغاصت منكمشةً تحت الأغطية وأغلقت عينيها في انتظار أن يحين موعد ذهابها إلى الجامعة..

لكنها لو كانت قد عادت، لأدركت أن عمرو لم ينتبه لأي شيءٍ على الإطلاق.. لقد كان يتطلع شاردًا بالفعل إلى البنايات المقابلة بطول الشارع.. كل النوافذ مغلقة.. كل الناس نيام.. هناك نافذةٌ تغلق في البناية المواجهة يبدو أن صاحبها قد استيقظ لتوه.. الجو بارد.. وهو لا يدري لماذا يقف هكذا ولا لماذا ينشغل بالتفكير في الأمر إلى هذا الحد؟!

زفر بعمق، ثم اعتدل واتجه عائدًا إلى منزله مقررًا طرد هذا الأمر من عقله.. الوقت يكفي بالكاد ليتناول إفطاره قبل ذهابه إلى المستشفى..

وبخطواتٍ سريعة، مر عبر الحديقة وهو يضع يده في جيبه بحركةٍ تلقائية، فارتطمت أصابعه بها.. الورقة الصغيرة..

التقى حاجباه وأدرك أنه لن ينفذ قراره.. سيعود ليفكر في الأمر.. وكثيرًا.. جدًا..

****

*** " وهل رآكِ؟ "

ألقت بسمة السؤال بانفعال، بينما تقف ومنى في آخر معمل الكيمياء الصيدلية تنتظران انتهاء عملية فلترة أحد المحاليل، فردت منى وهي تستند بظهرها على الحائط: لست أدري حقًا يا بسمة.. ربما نعم وربما لا.. لكنى أغلقت النافذة بسرعةٍ لم أكن أتخيلها أنا نفسي، وهذا يعنى أنه حتى لو كان قد رآني فهو بالتأكيد لم يجد الوقت الكافي ليتعرفني.

هزت بسمة أحد كتفيها وقالت: ربما هو ثاقب البصر.

- الأمر لا يتعلق بقوة البصر بل بقوة الملاحظة، والملاحظة تحتاج حتمًا إلى وقت.

غلفهما الصمت لحظات، قبل أن تقول بسمة بتعجب: عجيبةٌ أنت يا منى وتتصرفين بتناقض.. لماذا لا تريدين أن يعرفك؟! المفترض أنك تسعين لذلك!

أجابتها منى بتعجبٍ مماثل: وماذا أفعل أكثر من اعتراض سيارته وادعاء مرضٍ مجهول لأُحادثه؟!

أشارت بسمة بسبابتها موضحة: أنا أقصد رسائلك ذات المشابك.

ابتسمت منى ابتسامةً صغيرة وقالت: لأنها تحمل كلمةً صريحة واعترافًا واضحًا لا يمكن أن أنسبه لنفسي أبدًا.. ثم إنني لا أريد منها سوى إثارة حيرته.

بتعجبٍ أكبر عادت بسمة تسألها: وماذا سيحدث لو أصبح حائرًا؟!

تطلعت منى إليها في صمت ولم تدر بماذا تجيب، لكنها لم تلبث أن قالت: لست أدري.. لكنى لا أفكر في الأمر على هذا النحو.. أنا أترك مشاعري تقودني وقلبي يدرك أنه سيكون لذلك قيمةً في وقتٍ ما.

- خطأ.

- عذرًا!

كررت بسمة بجدية: خطأ.. أقول خطأ.. القلب والمشاعر معًا لا يصلحان للقيادة فكلاهما أعمى.

ردت منى بشيءٍ من الحدة: ومن قال أن قلبي أعمى.. قلبي يراه جيدًا.

التقطت بسمة نفسًا عميقًا ثم قالت: يراه نعم.. لكنه منبهرٌ به، وهذا هو العمى بعينه.

التقى حاجبا منى وغمغمت: كفى فلسفةً أرجوك.

التقطت بسمة أنبوب اختبارٍ بينما تقول: أنا لا أتفلسف، لكن تفكيرك هو الذي تغير وبشدة منذ أن ظهر الـ " د. عمرو " .

ارتفع بغتة صوت الأستاذ يطالب الجميع بالانتباه.. وبصوتٍ جهوري ألقى إليهم بيانًا مفاده أنه مطلوبٌ من كل مجموعةٍ من الطلاب تقديم بحث عن أحد المركبات الدوائية حديثة الاكتشاف على أن تجمع مادته من على أحدث المواقع العلمية الإلكترونية، وسيتم تقييمه باعتباره مشروعًا للتخرج..

انتهى الفرمان وغادر الأستاذ إلى المعمل المقابل ليلقي إلى طلابه بهذه الكارثة، فتصاعدت همهمات الاعتراض والضيق من الجميع تقريبًا..

قالت منى بضيق: يا للسخافة.. ليس لدينا وقتٌ لهذا الهراء.

مطت بسمة شفتيها قائلة: بالطبع.. فنحن نستيقظ مبكرًا جدًا، ونحرص أشد الحرص على مشاهدة برنامج التريض اليومي، ونمضي وقتنا ما بين التفكير الولهان والبحث عن مشابك الغسيل الحمراء، ونستطيع بالكاد حضور المحاضرات و...

قاطعتها منى وهي تعقد حاجبيها في غضب: هكذا إذًا.. لن أخبرك بشيءٍ بعد الآن.

قالت بسمة بابتسامةٍ عابثة: لن تستطيعي.

ردت منى بنفس اللهجة الغاضبة: وسأذهب وأترك لك المكان أيضًا.

قالتها واندفعت تحمل أدواتها، فأمسكت بسمة ذراعها وقالت ضاحكة: لِمَ كل هذا الغضب؟ أنا أمزح.

أفلتت منى ذراعها من يد بسمة وهي تقول: لم يكن هذا مزاحًا.

أشارت بسمة بيدها قائلة: أصبحت تغضبين بسرعة.. تعملين أنني أمزح.

أشاحت منى بوجهها ولم تعلق، فعادت بسمة تقول: دعينا نفكر الآن في البحث.

- لا يوجد تفكير.. سنعده سويًا كما نفعل دائمًا.

- للأسف.

أمسكت منى قارورة بسمة التي تحوى المحلول المفلتر وهمت بسكبها في الحوض، فاندفعت بسمة تمسك القارورة وهي تقول ضاحكة: أقصد يالحظي السعيد ويالشرف البالغ!

ابتسمت منى وقالت وهي تترك القارورة: هذا أفضل.

- ومتى تحبين أن نبدأ سيادتك؟

- أنا لا أحب سوى عمرو !

بدا على بسمة الغيظ، فاستطردت منى: ولكنى أفضل أن نبدأ من اليوم.

- دعيها غدًا لأننا سنذهب سويًا اليوم إلى وسط المدينة فأنا أحتاج إلى شراء بعض الأشياء.. اتفقنا؟

مطت منى شفتيها قائلة: حسنًا..

ثم عادت هي و بسمة تواصلان ما كانتا تجريانه من تجارب.

****

*** تحرك عمرو في هدوء عبر أروقة المستشفى متجهًا نحو بوابتها الرئيسية في طريقه للانصراف بعد أن انتهت فترة عمله المعتادة، وبينما هو يهبط درجات السلم الخارجي ارتفع من خلفه صوتٌ يقول: عمّور.. انتظرني.

تعرف صوت باسل على الفور، فالتفت إليه قائلًا بلهجةٍ معاتبة: قلت لك لا تخاطبني بـ"عمّور" هذه داخل المستشفى.. لو فعلتها ثانيةً فسأناديك بـ"بسّول" أو ربما "بسلّة".

ضحك باسل وقال: آسف آسف.. لكن لا داعي لـ "بسلّة" تلك أرجوك.

لحق به باسل فاستطرد متسائلًا: لماذا أنت متأخرٌ دائمًا.. أين ذهبت؟ لقد انتظرتك بالداخل لعشر دقائق كاملة.

قال باسل ببساطة: ها أنت ذا قد قلت عشر دقائق فقط، وهذا يعنى أنني لم أتأخر!

تطلع عمرو إليه بدهشة، بينما هو يكمل: ولو أردت رأيي لأخبرتك بأنك أنت الذي أصبحت دائم التعجل.. بضع دقائق لن تشكل فارقًا.

ابتسم عمرو وقال وهما يسيران سويًا باتجاه سيارته المتوقفة في مكانها الخاص: أي تعجل.. إنها الرابعة عصرًا، والمفترض أن أكون في العيادة بدءًا من الخامسة.

قال باسل وهو يدلف إلى السيارة: آه.. نسيت أنا أمر العيادة هذه التي تستولى على معظم وقتك، والتي لو أضفنا إليها عملك في المستشفى لوجدنا أنه لم يعد لديك وقتٌ لفعل أي شيءٍ آخر.. قل لي يا بُني.. متى ستمنح نفسك فرصةً كي تعيش حياتك؟

استقر عمرو خلف مقود السيارة وهو يقول ضاحكًا: أعيش حياتي؟! تتحدث كما لو كنت أعيش معزولًا عن العالم لمجرد أنني أولي عملي اهتمامي الأول والأكبر.. دعني أخبرك إذًا أنك مخطئ.. أنا أعيش حياتي كأحسن ما يكون.

قالها وانطلق بالسيارة، فهز باسل رأسه بمعنى أنه لا فائدة من الحوار معه أبدًا.

غلفهما الصمت وعمرو يقود السيارة عبر شوارع المدينة، بينما أخذ باسل يعبث فيما حوله باحثًا عن شيءٍ ما، فسأله عمرو: عما تبحث؟

- بطارية هاتفي على وشك النفاذ.. ألم تكن لديك وصلة لشحن الهاتف هنا؟

أشار عمرو بيده إلى درج السيارة قائلًا: أضعها هناك دائمًا.

فتحه باسل وقال وهو يلتقطها ويوصلها بهاتفه: ولِمَ هذه المشقة؟ ضعها في مكانٍ ظاهر حتى... لحظة.. ما هذا؟!

التفت إليه عمرو التفاتةً سريعة فرآه يمسك بالمشبكين الحمراوين الصغيرين اللذين يحتفظ بهما في الدرج، فابتسم وعيناه تعودان إلى الطريق بينما باسل يقول بدهشة: لِمَ تضع أشياء كهذه هنا؟!

تنهد عمرو في عمق، ودون أن يشعر ضغطت يده أكثر على مقود السيارة وهو يقول: هل تذكر الورقة الصغيرة التي وجدتها في جيب سترتي؟

ابتسم باسل وقال متسائلًا: الرسالة الغرامية مجهولة الهوية؟ مازالت لا أصدق أنك...

قاطعه عمرو قائلًا: عندما وجدتها على سيارتي كان هذا المشبك ممسكًا بها.

تطلع باسل إليه مندهشًا وهو يقول: معقول؟!

هز عمرو كتفه وقال: هذا ما حدث.

صمت باسل للحظاتٍ يحاول ابتلاع الأمر، لكنه لم يلبث أن قال: لو أنك تخفي علّى شـ.....

بهدوءٍ قاطعه عمرو: لا يوجد سببٌ منطقيٌ واحد يدفعني لأخفي عليك أي شيء يا باسل.. أنت صديقي.

قال باسل وهو يطالع ما في يده: لكن هذين مشبكان.

- وجدت الثانية صباح اليوم وعلى السيارة أيضًا.

- حقًا!

أومأ عمرو برأسه إيجابًا وهو يمد يده إلى جيب سترته الداخلي ليُخرج ورقتين صغيرتين مطويتين، اختطفهما باسل من بين أصابعه بسرعة، ثم قال: إنهما متشابهتان تمامًا!

لم يعلق عمرو على عبارته فعاد يقول: ولم تعلم بعد من يـ... أقصد ترسلها؟

حرك عمرو رأسه نافيًا، فاستطرد باسل: أمرٌ يثير الحيرة بالفعل، لكن ليس للأبد.. سيأتي وقتٌ ما تفصح فيه عن نفسها بالتأكيد.

هز عمرو كتفه بمعنى أن الامر لا يعنيه كثيرًا، فتساءل باسل: ألا يُثير هذا اهتمامك؟

- بل فضولي.

تطلع باسل إليه في شك، في حين عاد عمرو لصمته بعدما استعاد الورقتين وأعادهما لجيبه..

بلغا أحد الشوارع التجارية الضخمة وكان مزدحمًا، فأبطأ عمرو من سرعته إلى حدٍ كبير، بينما باسل يقول مغيرًا مجرى الحديث: هل علمت ماذا فعل د. طارق اليوم في قسم الجراحة؟

لم يتلقَ من عمرو ردًا، فالتفت إليه وهّم بتكرار سؤاله، لكنه وجده يتطلع إلى شيءٍ ما أمامه في اهتمامٍ بالغ..

بحث بنظره عما شد انتباهه صديقه إلى هذا الحد فلم يجد سوى عشرات المارة والسيارات، فقال متسائلًا: إلام تنظر؟!

وجد عمرو يغمغم: هل من الممكن أن تكون هي؟!

بدت الدهشة على وجه باسل و عمرو يزيد من سرعة السيارة بغتة وكأنما يحاول اللحاق بشخصٍ ما، قبل أن تُجبره حركة السيارات أمامه على الإبطاء مرةً أخرى.. فعاد يسأله: من تقصد؟

أشار عمرو إلى ما أمامه وقال في اهتمام والسيارة تتقدم بنفس البطء الذي يسير به الطريق: هل ترى هذه الفتاة هناك.. بعيدًا.. عند تلك اللافتة الزرقاء الكبيرة؟

انتقلت عينا باسل إلى حيث يشير ولمح بالفعل اللافتة التي يقصد، فعاد يسأل: أيهن بالضبط؟ هناك عشر فتياتٍ على الأقل حيث تشير.

قال عمرو: تلك التي ترتدي شيئًا ما وردي وتحمل معطفًا أبيض.

أخذ باسل يبحث بعينه حتى رأى بالفعل فتاتين تمشيان متجاورتين ومعطفٌ أبيض بحوزة كلٍ منهما، وتلك التي يقصدها عمرو هي التي ترتدي كنزةً وردية اللون.. فقال في فضول: ومن تكون؟

التقى حاجبا عمرو وقال: لا أعرف!

بدت على باسل الدهشة مجددًا، ورغم أن عمرو لم يلتفت إليه إلا أنه أدرك ذلك فتابع موضحًا: أقصد أنني لا أعرفها شخصيًا، لكنها زارت العيادة ذات مرة.

بدهشةٍ أكبر قال باسل: طوال فترة معرفتي بك، لم أرك يومًا تتذكر مريضًا فحصته، اللهم إلا من تتابع علاجهم لفترةٍ طويلة.. دائمًا تذكر الحالة وتنسى الوجوه!

- لا تشغل بالك.. انسَ الأمر.

قالها عمرو منهيًا الحديث ومتجنبًا المزيد من الأسئلة، فلاذ كلاهما بالصمت.. لكنه حقًا لم يستطع منع نفسه من متابعة حركة الفتاة، والتي شعر برغبةٍ عارمة في التأكد من أنها الفتاة التي تُدعى منى أم لا..

بدأ الزحام يخف تدريجيًا فواصل عمرو اقترابه منهما، بينما باسل يراقبه هو في اهتمام..

والتفتت الفتاة.. حانت منها التفاتةٌ سريعة إلى الوراء عادت بعدها تواصل مشيها هي ورفيقتها..

لم تكن هي، فشعر عمرو بإحباطٍ عجيب أورثه حنقًا من نفسه انعكس على قيادته للسيارة فأصبحت أكثر خشونة..

تجاوز الزحام أخيرًا فأطلق للسيارة العنان..

أتاه صوت باسل يتساءل بهدوءٍ مستفز: أهي من كنت تقصد فعلًا؟

قال عمرو وقد استعاد بعض هدوءه: كلا.

- ألن تخبرني بشيءٍ آخر؟

ابتسم عمرو على الرغم منه وقال: يالفضولك القاتل.. أعلم أنك لن تهدأ حتى تعرف كل شيء.. حسنًا.. لا شيء أكثر من أن الفتاة التي أقصدها هي من كدت أدهسها بسيارتي الأسبوع الماضي.. لقد أخبرتك بهذا مساء أمس على الهاتف.. أتذكر؟

- بالتأكيد.

- ثم إن زيارتها للعيادة كانت أمس ولهذا مازلت أذكرها، وعندما رأيت تلك التي تشبهها تذكرتها وأردت التأكد من أن ذاكرتي مازالت قوية.. هذا كل ما في الأمر.

- فقط؟

- فقط.

مط باسل شفتيه في عدم اقتناع، لكنه لم يحاول إلقاء المزيد من الأسئلة، بل اكتفى بأن قال: على الأقل هناك شيءٌ مطمئن.

التفت إليه عمرو بنظرةٍ متسائلة، فأكمل بابتسامةٍ عابثة: أنك تهتم، وهذا مطمئنٌ حقًا.

رمقه عمرو باستنكار وتجاهل التعليق على عباراته المستفزة عمدًا، ثم إنه كان غارقًا بالفعل في بحرٍ من الأسئلة التي ألقاها على نفسه ولم يجد لها جوابًا!

شعر بالتوتر.. شعر بالارتباك.. وبعصبيةٍ ندر أن يتحدث بها قال: لماذا أصبح منزلك بعيدًا هكذا يا باسل.

****

* ٩ *

*** انهمكت كلٌ من منى وبسمة لأكثر من عشرة أيامٍ متواصلة في إعداد البحث المطلوب..

كانتا تقضيان الكثير من الوقت معًا - بعد انتهاء يومهما الدراسي - في منزل إحداهما لتجمعا مادةً جيدة لبحثهما المشترك..

ورغم انشغالها الشديد، لم تغفل منى ولو لمرة عن أيٍ من مواعيد عمرو التي تمثل فرصتها الوحيدة لرؤيته..

لم ترسل له رسالةً ثالثة ولم تدرِ لماذا.. فقط شعرت أنه من الأفضل ألا تتلاحق رسائلها، ففعلت..

لكنها حقًا كانت تشعر بسعادةٍ بالغة وهي ترى أن أول ما يفعله عمرو عندما يغادر منزله صباحًا، هو أن يفحص سيارته باحثًا فوقها وجوارها وحولها عن أي شيءٍ أحمر اللون يمسك بورقةٍ صغيرة!

ورغم أنها تراه كل يوم، إلا أنه لم يفارقها لحظةً شعورها بأنها تفتقده.. تفتقده جدًا..

افتقدت وجهه وابتسامته العذبة.. افتقدت صوته وأسلوب حديثه.. افتقدت حتى دقات قلبها وهي أمامه..

إنها حقًا تحبه!

تنهدت بقوة وهذه الأفكار تطوف بذهنها، بينما تجلس في المدرج في انتظار بداية المحاضرة الأولى..

لم تكن بسمة برفقتها فقد هاتفتها صباحًا لتخبرها بعدم مقدرتها على الحضور اليوم، وكانت تتوقع ذلك فهي تعاني من نوبة بردٍ شديدة منذ عدة أيام..

قررت أن تهاتفها لتطمئن عليها بعد انتهاء المحاضرات.. وقد كان..

أتاها صوتها المتعب يجيبها عبر الهاتف فقالت: كيف حالك الآن؟

- الحمد لله.. أفضل قليلًا عن الصباح.

- حمدًا لله.

- كنت أود بشدة الحضور اليوم خاصةً أننا كنا سنُنهي البحث.

- لا عليك.. سأنهيه أنا اليوم.

قالت بسمة من بين سعالٍ خفيف: لست أعتقد أنك ستستطيعين وحدك يا منى، فمازال يحتاج الكثير من الجهد.. انتظري غدًا وإن شاء الله سأكون قد...

قاطعتها منى بهدوء: غدًا ستكونين أيضًا بحاجةٍ إلى الراحة، وأنا مللت هذا البحث وأود إنهاءه في أقرب فرصةٍ ممكنة.. ثم إننا قد انتهينا تقريبًا من جمع المعلومات.

أتاها صوت بسمة يقول: لا تستهيني بالأمر، فمازالت هذه المعلومات تحتاج إلى ترتيبٍ وتنسيقٍ جيد قبل أن تُطبع وهذا سيستغرق الكثير من الوقت خاصةً إن كنت بمفردك.

بزفيرٍ عميق قالت: لا تحطمي معنوياتي أرجوك.. سأحاول وليكن ما يكون.

صمتت بسمة لبضع لحظاتٍ ثم قالت: حسنًا.. إذا وصلت إلى مرحلة الطباعة، أين ستطبعينه.

- لم أقرر بعد.. ربما أسأل الفتيات.. سأبذل قصارى جهدي لأخرجه بصورةٍ جيدة فلا تقلقي.. فقط ادعي لي.

قالت بسمة بصوتها المنهك: وفقكِ الله.

قالت منى في مرح: أما أنتِ فأفضل دعوةٍ لك هي شفاكِ الله.. سأذهب أنا الآن فقد أوشك معاد المعمل.

- سأنتظر اتصالك عندما تعودين.. اتفقنا؟

- اتفقنا.. إلى اللقاء.

اتجهت منى إلى المعمل لتفاجأ بتأخر موعده، ولم تدرك السبب إلا بعد ساعتين من الانتظار عندما فوجئت أيضًا بعددٍ كبير من التجارب التي تستغرق معظمها الكثير من الوقت..

في الخامسة تقريبًا أنهت عملها وجلست لترتاح قليلًا في ساحة الكلية التي خلت أو كادت من الطلاب..

كانت تشعر بالإرهاق، لكن قرارها بإنهاء البحث لم يتزعزع، فهاتفت والدتها لتنوه بتأخرها ثم اتجهت إلى خارج الجامعة بعد أن تناولت وجبةً سريعة استعادت بها نشاطها وتركيزها..

دلتها إحدى زميلاتها على مكتب طباعةٍ ممتاز - على حد وصفها - تعاملت معه من قبل وأعجبها جدًا.. ورغم أنه في أطراف المدينة، إلا أنها قصدته بلا تردد..

استغرق الطريق وقتًا وتفرع إلى الكثير من الشوارع الجانبية في ذلك الحي الجديد الذي امتلأ عن آخره ببناياتٍ وبيوت في مختلف مراحل الإنشاء..

غادرت سيارة الأجرة أمام اللافتة المضيئة التي تحمل اسم وجهتها، ودفعت الباب الزجاجي لتخطو داخلها..

كان المكان واسعًا أنيقًا.. تفقدته بنظرةٍ شاملة فأدركت أنه حديث الانشاء ويقتني أجهزة طباعةٍ حديثة.. أشعل ذلك حماسها فاتجهت إلى حيث مدير هذا المكان وأخبرته بما تريد، فقادها الرجل إلى أحدث جهاز حاسوبٍ لديه ثم تركها لتعمل بحرية..

وللحظات.. استرخت في مقعدها وعزلت نفسها عن ضوضاء رواد المكان والعاملين فيه، ثم أخرجت من حقيبتها الصغيرة الأسطوانة المدمجة التي تحمل عملها السابق هي وبسمة والتقطت نفسًا عميقًا وبدأت العمل..

انهمكت بشدة في قراءة المعلومات المتراصة أمامها حتى تستطيع اختيار أفضلها وتتمكن من ترتيبها وتنسيقها بما يوافق موضوع البحث، وقد التهم هذا الكثير من الوقت على نحوٍ لم تشعر به مطلقًا..

وعندما أتمت عملها بالفعل، أخذت تراجعه كليةً في رضا وسعادة غير مصدقة أنها قد انتهت منه أخيرًا، ثم التفتت تطلبت من أحد العاملين تولي التنسيق النهائي والطباعة..

انتبهت لحظتها أنه لم يعد هناك أحدٌ في المكان سواها ومديره.. طالعت ساعتها ففاجأها بشدة كونها تشير إلى الحادية عشرة مساءً.

- معقول! لقد تأخرتُ كثيرًا.

غمغمت بها ثم أخرجت هاتفها بسرعة مستغربةً ألا تتصل بها والدتها أو بسمة طوال هذا الوقت، فوجدته جثة هامدة ! لابد أن بطاريته فرغت منذ وقتٍ طويل..

شعرت بالتوتر عندما تخيلت مقدار ما يشعر به والديها الآن من قلق وهما عاجزين عن الاتصال بها، فألقت الهاتف في حقيبتها بضيقٍ وقالت: كيف لم أشعر بمرور كل هذا الوقت.

ابتسم مدير المكتب وقال: لقد كنت منهمكةً بشدة فيما تعملين حتى أنني ناديتك أكثر من مرة ولم تجيبيني.

قالت بحرج: حقًا! آسفةٌ جدًا لكني لم أسمعك بالفعل.

- لا عليك.

استفسر منها عن طبيعة التنسيق الذي تريده وبعض الأمور الخاصة بالشكل النهائي، ثم بدأ العمل عليه على الفور..

سألته في قلق: هل سيستغرق هذا الكثير من الوقت؟

- دقائق.. لا تقلقي.

شعرت فعلًا بالقلق وبالوقت يمر بثقلٍ شديد، لكن ما إن خرجت أولى صفحات البحث من الطابعة حتى انزاح القلق جانبًا لتحل مكانه لهفةً شديدة لرؤيته كاملًا بين يديها..

لم تمضِ نصف ساعة حتى كان البحث كاملًا ومطبوعًا بأناقة، تحمل مقدمته اسمها واسم بسمة بالخط العريض..

ابتسمت في رضا وشكرت الرجل بحرارة وهي تنقده أجره، ثم التقطت حقيبتها وحملت البحث بعناية وغادرت المكان..

وأمام باب المكتب الزجاجي وقفت تتطلع إلى المكان من حولها..

كان من الواضح أنها لن تجد سيارة أجرة في هذا الشارع الجانبي وفي هذا الوقت المتأخر، لذا أدركت أن عليها الخروج إلى الشارع الرئيسي..

تعلم أن ذاكرتها ليست جيدةً في حفظ الطرق بالذات، فاعتصرتها اعتصارًا لتذكر كيف كان طريقها إلى هنا..

بدأت تمشي بخطواتٍ سريعة لتعود بأسرع وقتٍ ممكن، إلا أن الشارع امتد أمامها طويلًا وبلا تفرعات رغم إنها لا تذكر أنه كان بهذا الطول!

شعرت بالقلق، وهمت أن تعود أدراجها، لكنها لمحت لحظتها إحدى التفرعات الجانبية، فتنهدت في ارتياح وأسرعت في مشيتها أكثر وهي تغمغم: يبدو أن قلقي من تأخري حتى هذا الوقت سيجعلني أشك في كل شيء.

أراحها كثيرًا أن وجدت ذلك الطريق الجانبي مضاءً إلى حدٍ ما، وأخذت ترمق ما حولها من معالم.. الكثير من البنايات المظلمة غير مكتملة البناء والكثير من التلال الرملية متناثرةً حولها هنا وهناك.. لشد ما غير الظلام طبيعة المشهد عما كانه في ضوء النهار!

بدأت الأنوار المضاءة تقل، فعاد قلقها يتزايد يصحبه هاجسٌ يُلح عليها بأنها ضلت الطريق!

" يبدو أنني أخطأت عندما لم أسأل أحدًا منذ البداية "

كان هذا ما حدثت به نفسها وهي تتلفت حولها تبحث عن أي شخصٍ يمكنها سؤاله، لكن لم يكن هناك أحدٌ في الجوار سواها ! فغمغمت بانفعال: ماذا يحدث بالضبط؟ لسنا في منتصف الليل.

انتبهت لحظتها أن منتصف الليل ليس بعيدًا كما تظن فساعتها الآن تشير إلى الثانية عشرة إلا بضع دقائق!

شملتها موجةٌ من التوتر أعاقت تفكيرها، لكنها لم تلبث أن التقطت نفسًا عميقًا وقالت في محاولةٍ للسيطرة على أعصابها: ماذا دهاني.. أنا لست طفلةٌ صغيرة.. ليس هذا هو الطريق الصحيح، إذًا فلأعود.

مرت عليها الدقائق طويلة وهي تعود أدراجها، إلى وجدت إلى يمينها طريقًا آخر فوقفت على بدايته تحاول استكشافه.. كان أقل اتساعًا، طويلًا يغلب عليه الظلام ويمتد بين مجموعة من مشاريع البنايات الصغيرة التي لازالت في مرحلة الأعمدة الخرسانية وحوائط الطوب الأحمر، لكن ما استحوذ على انتباهها كان الأضواء التي بدت في نهايته.. لعله الشارع الرئيسي أو على الأقل تفرعٌ مباشرٍ منه..

خفق قلبها ارتياحًا وحمدت الله في سرها وشرعت تقطعه بخطواتها السريعة وهي تتحاشى النظر لما حولها..

مع اقتراب الأضواء أبطأت قليلًا من مشيتها التي كادت تتحول إلى عدو وهمّت بقول شيءٍ ما، عندما رأتهم..

خمسة أشخاص وربما أكثر، يتخذون من أحد القواعد الخرسانية مجلسًا ومتكأً.. لم يُتح لها الظلام رؤية ملامح أيٍ منهم ولم تدر سببًا لذلك الخوف الذي شملها فجأة.. أهو الدخان الكثيف الذي يتصاعد من أفواههم، أم تلك الضحكات الغريبة والعبارات غير الواضحة التي صاحبت اقترابها منهم؟

أيا ما كان السبب، فذلك الخوف لم يستمر طويلًا إذ تحول بعدها إلى فزعٍ حقيقي عندما انفصل أحدهم عن رفاقه ووقف عاقدًا ذراعيه أمام صدره متطلعًا إليه بوقاحةٍ وسادًا عليها الطريق!

كانوا على بعد أمتار، ونهاية الشارع أصبحت فجأة بعيدةً جدًا..

جال بخاطرها لوهلةٍ التحلي ببعض الشجاعة وتجاهله ومواصلة الطريق، لكنها اعترفت بغبائها سريعًا.. لا شيء أسهل من افتراس فتاةٍ قادتها حماقتها إلى التواجد بمفردها في منطقةٍ كهذه وفي وقتٍ كهذا..

وبعقلٍ تشوش تفكيره، وجدت نفسها تتراجع بسرعة وتنعطف بين أقرب بنايتين..

فوجئت بطريقٍ أكثر إظلامًا يمتلأ بمخلفات البناء ولا تبدو له نهاية، فمضت تتعثر بخطواتها المتسارعة بينما تتلاحق أنفاسها بشدة وتعصف بها الأفكار السوداء..

قاطع أفكارها تلك ما كانت تخشاه.. صوت خطواتٍ ثقيلة مسرعة تقترب باتجاهها !

هذا بالفعل ما كان ينقصها حتى تنهار أعصابها تمامًا، وقد كان..

انفلتت أعصابها دفعةً واحدة وانطلقت تركض لا تدرك إلى أين.. كل ما كانت تدركه هو أنه لا ينبغي لها التوقف.. لا أحد يمكنها الاستنجاد به ولا أحد سيسمعها ولو ملأت الدنيا صراخًا..

تناهى إلى مسامعها صوت تلك الخطوات تركض بدورها، فانتابها الرعب ولم تعد تتبين اتجاه.. تخرج من شارعٍ مظلم لتدخل في آخر أكثر إظلامًا، وتنعطف من طريقٍ إلى طريق ثم تتمنى مع أولى خطواتها فيه أنها لم تفعل.. اللعنة على هذه المنطقة بأكملها.. ألا يسكنها بشر!!

أفضى بها ركضها المتخبط إلى أحد الشوارع المضيئة نوعًا.. لم يكن ضوء أعمدة إنارة، لكنه ضوء بعض المنازل المتفرقة التي يسكنها أصحابها..

وكما يتعلق الغريق بقشة، اندفعت بلا تفكيرٍ إلى أقربهم وأخذت تطرق بوابته الحديدية بقوة فوجدتها تُفتح أمامها..

كان صوت الخطوات الراكضة خلفها مازال يتردد، فدفعت البوابة ودلفت بلا تفكير، ثم صعدت بسرعة درجات السلم الأمامية لتقف بعدها في ركن المدخل خافت الإضاءة ترتجف من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها، يدها تقبض على حقيبتها وعلى الملف الذي يحتوى أوراق البحث في قوة، بينما تلهث في شدة شاعرةً بأن هناك شيئًا ما يدق بعنفٍ في رأسها مع دقات قلبها المنتفض ذعرًا..

مر عليها بعض الوقت وهي على حالها متجمدةً في مكانها ترهف السمع، ورغم أنه لم يبلغ مسامعها أي صوت، إلا أن انفعالها لم يهدأ وشتى الاحتمالات تضرب عقلها من كل اتجاه..

ربما يتبعها ذلك الوغد متسللًا، وربما ينتظر خروجها في مكانٍ ما وربما ما هو أسوأ!

وبصوتٍ يوشك على البكاء همست: يا إلهي.. ماذا يحدث لي؟! بل ماذا فعلت بنفسي؟!

اختنقت عبراتها في عينيها وهي تقف عاجزةً عن اتخاذ أية قرارات، بل عاجزةً حتى عن التفكير..

بلغ مسامعها فجأةً صوت بابٍ ما في الأعلى يُفتح ثم يُغلق في هدوء، تلاه صوت خطواتٍ واثقة تهبط السلم..

تزايد انفعالها وتسمرت في مكانها تدعو الله على ألا تكون قد استجارت من الرمضاء بالنار، فآخر شيءٍ تريده الآن هو العودة إلى الشارع..

مرت لحظاتٌ ثقيلة واصلت فيه تلك الخطوات هبوطها، قبل أن يظهر ظلٌ طويلٌ مهيب تبعه ظهور شخصٍ يرتدى السواد.. حاول عقلها المبعثر صياغة عبارةٍ ما تبرر اقتحامها للمنزل على هذا النحو، لكن الكلمات احتبست في حلقها على نحوٍ جعلها تشعر بالاختناق..

- آنسة منى ؟!!

انتفضت بقوة وهذا الصوت المندهش يخترق أذنيها وحدقت في ذلك القادم الذي ألقى عبارته وواصل هبوطه حتى تبينت ملامحه و...

وانتفضت مرةً أخرى.. انتفضت أعماقها وجسدها في آنٍ واحد وهي تهمس في ذهول: عمرو؟!!

شعر عمرو بدهشةٍ بالغة وهو يراها هنا وجال بخاطره للحظة أنها تقطن هذا المنزل، لكن وقفتها المنزوية إلى زاوية الجدار ووجهها الممتقع جعله يسأل بصوتٍ حمل دهشته البالغة: ماذا تفعلين هنا؟!!

لم تجبه منى بكلمات، بل بانفجار!

امتزجت انفعالاتها المنهارة كلها داخلها، وانفجرت في صورة سيلٍ من الدموع سال من عينيها فجأةً مع انتهاء سؤاله، يصحبه سيلٌ آخر من الكلمات غير المترابطة وهي تحاول أن تخبره بكل شيءٍ في آنٍ واحد..

اقترب منها ودهشته تكتسب انفعالًا عجيبًا، فتتشبث بيده ليسقط ما تحمله أرضًا دون أن تشعر..

هالَهُ بكاؤها بشدة، وهالَهُ أكثر ملمس يديها الباردتين كالثلج، فاحتواهما وهو يقول مقاطعًا حديثها الباكي الذي لم يفهم منه حرفًا واحدًا: اهدئي.. اهدئي أرجوك.

لم يبدُ عليها أنها وعت ما قاله، فقد واصلت بكاءها وحديثها معًا الذي تبين منه عبارتين هذه المرة.. "أنا خائفة" و"يركض خلفي" ، فعاد يقول وهو يضغط على يديها ويتطلع إلى عينيها مباشرة: اهدئي.. اهدئي.. لا تخافي أبدًا.. أنا معك.

توقفت عن البكاء والكلام دفعةً واحدة مع التقاء عينيها بعينيه..

أهو معها الآن حقًا؟!

أعيناه هما اللتان تنظر فيهما الآن؟!

أيداه تلك اللتان تحيطان بيديها الآن؟!

ربما لو كانت في ظروفٍ أخرى لاندهشت، بل ذهلت من وجوده في هذا المكان وفي هذا الوقت.. أما الآن، فلم تعد تدرك سوى أنه موجود.. موجودٌ وحسب..

موجودٌ معها..

عادت الدموع تسيل من عينيها ثانيةً بعد لحظةٍ من توقفها وعلى نحوٍ تزايد معه انفعاله، فقال: لا تبكي أرجوك..

أومأت برأسها بمعنى أنها ستفعل، والتقطت نفسًا عميقًا حاولت به كبح جماح دموعها المنهمرة..

ترك عمرو يديها ومنحها بعض الوقت لتهدأ، ثم لم يلبث أن قال بصوتٍ حاول أن يجعله هادئًا لكنه خرج على الرغم منه يحمل قدرًا هائلًا من الدهشة: ما الذي يخيفك ويبكيك؟ أتقطنين هذا المنزل أو قريبًا منه؟!

حركت رأسها نافية ومسحت دموعها بأصابع مرتجفة، ثم ابتلعت ريقها بصعوبة لتقول في خفوت: ذلك الوغد يتبعني.

سألها بنفس الدهشة: أي وغد؟!

رفعت يدها إلى منتصف صدرها وكأنها تحاول تهدئة خفقات قلبها المضطرب بشدة، ثم قالت بصوتها الباكي: لست أدري.. كنت أمشي وحدى عندما فوجئت به يسد طريقي ويتبعني.. خفت وركضت مبتعدة فركض خلفي.. لست أدري ماذا يريد مني.. أنا خائفة ولا أعرف كيف أعود.

كانت تتحدث وهي تحاول منع نفسها من معاودة البكاء، لكن دمعةً خانتها واستطاعت الإفلات من عينها والانهمار حارةً على وجنتها، فانعقد حاجبا عمرو والغضب يحتشد داخله..

إذًا فقد أرعبها أحدهم وأراد أذيتها.. يا له من شخصٍ حقير..

كان قد لاحظ حركة يدها إلى صدرها، فتصور أن ذلك الألم الذي يعتقد أنها تعانيه مع انفعالها يهاجمها الآن كأبشع ما يكون..

فاقم ذلك من غضبه، فقال: لا تخافي.. ستكونين بخير.. لن يستطيع أحدٌ الاقتراب منك وأنا معك.

ارتجف قلبها مع عبارته ورفعت عينيها إلى حيث عينيه، ولحظتها فقط شعرت بالأمان..

لم تنبس ببنت شفة، لكن نظراتها نحوه أعلنت ضمنيًا رغبتها في قربه واحتياجها له..

قرأ نظراتها هذه المرة وفهمها.. شعر بها تُلقى إليه بمسئولية ما، وأنه راغبٌ بشدة في أن يقوم بها كاملة..

وفي حزم، انحنى يلتقط حقيبتها وأوراقها وناولهما لها وهو يسألها: أتسكنين قريبًا من هنا؟

قالت بذلك الصوت المتهدج الذي يعقب البكاء: كلا.. ولم آتِ إلى هنا من قبل.

عاد يتساءل بتعجب: وما كان سبب قدومك؟!

أجابته بسرعة: كنت في مكتب الطباعة أطبع هذا البحث لكنى تأخرت دون أن أشعر.

- مكتب الطباعة؟! إنه يبعد كثيرًا عن هنا.

ثم أردف بابتسامةٍ هادئة: يبدو أنك توغلت في المنطقة بدلًا من الخروج منها.

- لكنها منطقةٌ موحشة جدًا.

- هكذا المناطق الجديدة، تحتاج وقتًا طويلًا لتعمر بالسكان.

ثم أشار بيده وقال: والآن.. هيا بنا؟ يمكنني أن أوصلك إلى حيث تريدين.

شقت ابتسامةٌ صغيرة طريقها إلى شفتيها وإن تكفلت أنفاسها المتهدجة بالإفصاح عن حجم انفعالها الحقيقي وهي تقول بصوتٍ خفيض: شكرًا لك.. لست أدري ماذا كنت سأفعل بدونك.

اكتفى بابتسامةٍ مماثلة وتقدمها إلى خارج المنزل يحاول تجاهل ذلك الانفعال الذي أثارته لهجتها داخله..

تبعته بلا تردد، ووقفت قريبةً منه وهو يغلق البوابة الحديدية وينحني ليغلق رتاجها جيدًا..

انتبهت لحظتها أنه خاطبها باسمها فور رؤيتها.. يبدو أنه لم ينسَ بعد زيارتها له في العيادة!

أسعدها هذا كثيرًا.. لكن.. ماذا كان يفعل في هذا المنزل بالضبط؟! أهو منزله؟!

انتقل السؤال إلى لسانها على الفور، فقالت: أهذا المنزل لك أيضًا؟

" أيضًا! وكأنها تعرف أن هناك آخر يملكه بالفعل! "

كان هذا ما تعجبت به نفسه، لكنه أجاب ببساطة: كلا.. يسكن هذا المنزل أحد مرضاي الذين أتابعهم باستمرار، وقد كان يمر بحالةٍ طارئة فطلبني على استعجالٍ في هذا الوقت المتأخر.

كان جوابه بديهيًا حتى أنها شعرت أن سؤالها كان ساذجًا، بينما تابع هو موضحًا أكثر: هو رجلٌ مسن كما أنه متعبٌ الآن، لذا طلب مني أن أغلق البوابة جيدًا قبل رحيلي.

أومأت برأسها بتفهم، وتبعته إذ تحرك مبتعدًا بخطواتٍ هادئة وهو يضع يديه في جيبي سترته الجلدية..

غلفهما الصمت لبرهة حاكت فيها خطواته وجاورته على مسافة، بينما انتقى هو أحد الطرق وتحرك خلالها بثقة العارف بالمكان..

لاحظ أنها لا تتلفت حولها وهي تتبعه وكأنما لم يعد هناك ما يخيفها، لكنه فضّل سؤالها بشكلٍ مباشر: أمازلت خائفة؟!

- كلا.

أتاه جوابها سريعًا خافتًا لا يشوبه التردد، فحرك شيئًا ما في أعماقه لم يدرِ كنهه.. لعله الارتياح لكونه نجح في مساعدتها.. لابد أيضًا أن الألم الذي تعانيه قد هدأ الآن..

لدقائق واصلا المشي، ثم اتجه عمرو يمينًا وهمّ بأن يصف لها الطريق الذي سيسلكه، عندما لمح أحدهم يقف في الظلام مستندًا إلى جدار أحد المنازل.. وقبل ينبثق عن ذهنه أي استنتاج، كانت منى تقترب منه هامسةً في انفعال: إنه هو.

قال لها في خفوت: فليجرؤ على أن يقترب.

بقي الرجل حيث هو ينقل بصره بينهما وقد بدا على وجهه الغضب لكون الفتاة وجدت من تستنجد به..

أخذ يزن الأمر بعقله.. الفتاة كانت صيدًا سهلًا بالتأكيد، لكن الرجل لا يبدو قويًا.. فليقطع ذراعه لو لم يجمده الذعر أمام مديته..

زاد غضبه وعمرو يواصل مشيه بهدوءٍ مستفز وكأنما لم يرَ أحدًا، فاستل مديته وتحرك يقطع الطريق أمامهما ملوحًا بها في شراسة..

شهقت منى بفزع وهي ترى نصل المدية الحاد يلتمع في الظلام وتجمدت حيث هي، بينما واصل عمرو اقترابه رغم شعوره بالتوتر، ثم توقف وقال مخاطبًا الرجل: من الأفضل لك أن تبتعد.

ابتسم الرجل كاشفًا عن صفٍ من الأسنان القذرة، ثم اقترب ببطءٍ وهو يقول بلهجةٍ شرسةٍ آمرة: أخرج حافظتك نقودك وحقيبتها وكل ما بحوزتكما الآن وإلا...

قاطعه عمرو ببرودٍ مصطنع وعيناه لا تفارقان المدية: لن أعطيك شيئًا فلتغرب عن وجهي.

ثار الرجل واندفع نحوه مصوبًا مديته كما توقع بالضبط، فقبض على يده بقوة يوقفها قبل أن تلامس المدية جسده، ثم أطلق قبضته الأخرى في وجهه..

اندفع الرجل للخلف وسقط أرضًا، فاستغل عمرو الفرصة ليركل المدية من يده بعيدًا..

شعر عمرو بالارتياح والمدية تغوص في كومة رمالٍ قريبة.. بغياب هذا السلاح الخطر، يمكنه تلقين هذا الوغد درسًا لن ينساه..

اشتعل الرجل غضبًا وهمّ بأن ينقض على عمرو بكل قوته، لكن عمرو لم ينتظره، بل اندفع يلكمه في كل مكانٍ طالته يداه مفرغًا فيه غضبه حتى سقط الرجل متأوهًا في قوة، ثم لم يلبث أن قام مترنحًا وانطلق يعدو مبتعدًا..

ظل عمرو يقف متحفزًا لبضع لحظات وأنفاسه تتلاحق، قبل أن تندفع إليه منى قائلة: هل أنت بخير؟!

حملت لهجتها الكثير من اللهفة، فالتفت إليها ليجد أيضًا الكثير من القلق متجسدًا على وجهها..

أفرج صدره عن زفيرٍ عميق ثم قال: أجل.

رددت في ارتياح: حمدًا لله.

ثم استطردت بقلق: دعنا نغادر هذا المكان بسرعة أرجوك، فهناك المزيد من أمثال هذا الشيء.

جذبته من ذراعه برفق فاستجاب لجذبتها وهو يغمغم: حسنًا.

وبخطوات سريعة هذه المرة، واصل مشيه وهو يعدل هندامه ويزيح شعره الذي تناثر على جبهته إلى الوراء..

طالعته بصمتٍ وقلبها يدق بقوة يراودها شعورٌ قوي بأنها عادت مراهقةً صغيرة .. لقد بدا لها الآن كفارس الأحلام وبلا أدنى مبالغة.. فارس أحلامٍ يجيد رياضة الملاكمة!!

لقد كانت ترتجف خوفًا منذ قليل وهي تمشي وحدها في هذه الطرق المظلمة، أما الآن فلم تعد تشعر أنه من الممكن أن يثير خوفها أي شيء.. لا الظلام ولا وحشة المكان وكآبته ولا حتى خلوه من البشر.. هي بجواره وهذا يكفيها..

تناهي إلى مسامعهما بغتة صوت خطواتٍ ثقيلة تقترب في سرعة، فتوقفا دفعةً واحدة قبل أن يظهر من بعيد ما كانت منى تخشاه.. لقد استنجد الرجل برفاقه وجمعهم ليأخذوا بثأره..

شعر عمرو بتوترٍ شديد وهو يحصي عددهم ببصره.. إنهم سبعة أشخاص يقتربون في وحشيةٍ كالثيران الهائجة..

لا مجال للخيال ها هنا.. لن يستطيع التغلب على كل هؤلاء دفعةً واحدة خاصةً وبصحبته فتاة سيؤذيها أحدهم بالتأكيد.. لابد من حلٍ آخر للخروج من هذا المأزق وبسرعة، فلقد بدأوا يقتربون ببطءٍ وشراسة وكأنما يحاولون محاصرته..

اقتربت منى منه أكثر وكأنها تستمد منه أمانها، فهمس بانفعالٍ دون أن يرفع عينيه عنهم: لا تخافي.

كان الرجال قد اقتربوا أكثر وتعالت أصواتهم بالتهديد والسباب البذيء، فأمسك يدها في قوة، وقبل أن تدرك ماذا يحدث، جذبها فجأةً وانطلق يركض بأقصى سرعته نحو أقرب طريقٍ جانبي..

وما إن فعل، حتى ترك الطريق نفسه وعاد ينعطف مارًا بين أقرب بنايتين..

بقايا الطوب الأحمر المتكسر والحصى الملطخ ببقايا الإسمنت الجافة يفترش الأرض ويعرقل حركتهما، لكنهما لم يتوقفا، خاصةً وقد أنبأتهما أصوات هؤلاء الأوغاد بانطلاقهم خلفهما..

تأوهت منى في هذه اللحظة، فانتبه إلى أنه يجذبها من يدها بشدة، فأفلت يدها وهو يقول لاهثًا: اركضي بأقصى سرعتك.. هيا.

كانت تركض بأقصى سرعتها بالفعل، لكن مقارنةً به فهي لا تركض أصلًا.. ولم تمضِ ثانيتين حتى كان قد سبقها بعشرة أمتارٍ على الأقل، فتوقف وعاد يقبض على يدها قائلًا: أسرعي.

قالت لاهثة: مهلًا.. أنا لا أتريض يوميًا كما تفعل.

أدهشه ردها هذا بشدة، فكيف لها أن تعرف شيئًا كهذا؟! لا يمكن أن يكون هذا استنتاجًا !!

كاد يسألها بالفعل، لكنه نحّى ذلك جانبًا فلا وقت الآن لهذه التساؤلات..

فوجئ بأحدهم يثب من بين البنايات بغتةً ويعترض طريقه، فلكمه في وجهه بكل قوته دون حتى أن يتوقف أو يتخلى عن يد منى.. وقد تكوم الرجل أرضًا وهو يتأوه بصوتٍ مكتوم، قبل أن يبرز له آخر احتاج منه وقتًا أطول ليطرحه أرضًا بلكماته ويواصل ركضه..

أما منى فكانت تشعر أنها تعيش في حلم.. حلمٍ غريب..

أمعقول أن يكون ما يحدث لها الآن واقعًا!

قاطع عمرو أفكارها وهو يتوقف فجأةً حتى كادت ترتطم به، وقبل أن تفهم لذلك سببًا، وجدته يقول بصوتٍ لاهث: إنهم يعرفون هذه الطرق جيدًا وسيجدوننا حتمًا.

قالت وهي تلهث بدورها: ماذا نفعل إذًا؟

انعقد حاجباه في توترٍ بالغ، بينما صوت الخطوات المقتربة من أكثر من جهةٍ يؤكد ما يقول..

دارت عينيه في المكان تبحثان عن مخرج، ثم لم تلبث أن توقفتا عند ممرٍ ضيق بين منزلين تحت الإنشاء.. ربما لو مرا عبره، سيكون بإمكانهما الانسلال من بينهم..

اقتربت الأصوات أكثر، فاتجه نحوه بسرعة.. كان تام الإظلام على نحوٍ مقلق، لكن الأصوات الغليظة التي تعالت تنادي بعضها بعضًا حسمت تردده، فأشار لمنى أن تتبعه..

توغلا في ذلك الممر المظلم بخطواتٍ حذرة آملين ألا ينتبه إليهما أحدهم.. توقع عمرو أن يكون طويلًا وإلا ما كان بهذا الإظلام لكنه كان مخطئًا، إذ فوجئ أمامه بجدارٍ ضخم يسد نهاية الممر على نحوٍ يشي بخطأ هندسي شنيع..

همست منى بانفعال: إنه مسدود!

ازداد انعقاد حاجبي عمرو وقفز توتره إلى الذروة.. لا سبيل إذًا.. حتى العودة لم تعد ممكنة، فأصواتهم أصبحت قريبةً جدًا..

تجمد في مكانه آملًا أن يبتعدوا عندما يفقدون أثرهم، ولكن ارتفع في اللحظة ذاتها صوت من يفترض أنهما من الممكن أن يكونا قد اختبئا في أحد المنازل..

وبقلبٍ يخفق اضطرابًا، سمعت منى صوت من يقتحم المنزل المجاور وصوت من يقترب من الممر، فالتفتت إلى عمرو الذي كرر في خفوتٍ شديد: لا تخافي.

جذبها لتقف خلفه بجوار الجدار عازمًا على أن يدافع عنها وعن نفسه بكل ما أوتى من قوة..

لكن فجأة، لمح ذلك الجزء المتهدم من جدار المنزل في أقصى الركن عند الجزء الذي يلتقى بالجدار الذي يسد نهاية الممر، فاندفع نحوه يتحسسه، ولدهشته وجد أنه يخفي مكانًا ما خلفه.. مد يده فيه يستكشف أبعاده بينما صوت الرجل القادم إلى الممر قد أصبح قاب قوسين أو أدنى..

وبتوترٍ عنيف ندر أن يشعر به، حشر عمرو جسده محاولًا عبور الجزء المتهدم من الجدار واختفي خلفه ثم مد يده نحو منى يلتقط ذراعها ويجذبها في قوة..

لم تكن ترى شيئًا في الظلام، لكنها شعرت بأنها تعبر الفراغ الذي أوجده تهدم الجدار ثم تقف شبه ملتصقةً بعمرو في مكانٍ شديد الضيق لم يستوعب جسدها تمامًا..

أدرك هو ذلك فحاول دفع نفسه للخلف أكثر مقاومًا أشياءً ما لم يدرِ كنهها تعوق حركته، فدفعها بيده بقوة لتنزاح قليلًا بعد أن أدمى أحد أطرافها الحادة راحته..

تجاهل الألم الحاد الذي شعر به وتراجع للخلف محيطًا خصر منى بذراعه وجاذبًا إياها في قوة..

اختفي جسد منى بالفعل خلف الجدار المتهدم في نفس اللحظة التي اقتحم فيها ذلك الرجل الممر يصحبه آخر..

بانفعالٍ شديد همست منى: أنا....

بترت عبارتها مرغمةً عندما رفع عمرو أصابعه إلى شفتيها ليمنعها من الكلام دافعًا بتواثب خفقات قلبها إلى الذروة وبدماء جسدها كله إلى وجنتيها..

بدا لها كل ما يحدث عجيبًا إلى أقصى حد.. طغمة من الأوغاد يلاحقونها، وهي في مكانٍ لا تدري كيف وصلت إليه، تقف لا ترى شيئًا، شبه ملتصقةً بعمرو لا يفصلها عنه سوى ورقات البحث الذي ضمته إلى صدرها في قوة، ومازالت تشعر بذراعه تحيط خصرها وكأنما يخشى إن أبعد يده أن يراها أحدهم، لا تسمع سوى صوت أنفاسه وأنفاسها وصوت خطوات الرجلين اللذين أصبحا بالفعل في نهاية الممر..

كان أحدهما يقول بصوتٍ أجش: قلت لك إنه مسدود.

أجاب الثاني في ثورة: أين ذهبا إذًا.. لابد وأن أنتقم من ذلك الرجل.. سأقتله.

عاد الأول يقول: لقد تركتهما يفلتان بينما تصر على البحث عنهما هنا.. قلت لك أنهما ذهبا في الطريق الآخر فلم تصدقني.

- اخرس ودعنا نبحث عنهما.

ابتعد صوت خطواتهما، فأفرج عمرو عن نفسٍ كان يحبسه في صدره وحمد الله على أنهما لم ينتبها لهما..

ولثوانٍ، ظل حيث هو يرهف سمعه في انتظار أن يبتعدوا تمامًا، حتى سمع منى تهمس: هل ابتعدوا؟

أجابها بخفوتٍ شديد: أجل.. لكن ليس كثيرًا.

عادت تهمس وهي تحاول الابتعاد عنه قليلًا: هلّا أبعدت يدك إذًا!

التقى حاجباه وهو ينتبه لتوه أن ذراعه تضمها إليه، فأبعده بسرعة وتنحنح في حرجٍ قائلًا: معذرة.

غمر كلاهما الارتباك، قبل أن يقول عمرو محاولًا الهرب منه: أعتقد أنه بإمكاننا الخروج الآن.

تحركت فور سماعها لعبارته ودفعت جسدها خارجًا، وتبعها وهو يمسك راحته المصابة بقوة، ثم سبقها ليتأكد من كون المكان أصبح آمنًا..

لم تنتبه إلى أنه جُرح إلا بعدها، فقالت بجزع: يا إلهي.. أنت تنزف.

ابتسم قائلًا: لا عليك.. إنه جرحٌ سطحي.

اندفعت تفتح حقيبتها وتلتقط بضعة مناديل ورقية مد يده الأخرى ليأخذها منها، لكنها التقطت يده المصابة وأخذت تنظف الجرح وتمسح عنه الدماء وهي تتساءل بقلق: ما الذي جرحها هكذا؟!

لم ينتبه عمرو إلى سؤالها فقد ترك لها يده متأملًا ما تفعله، ثم لم يلبث أن وجد نفسه يتأملها هي وذهنه يشرد في أفكارٍ شتى، وعندما رفعت إليه عينيها المتسائلتين انتبه وقال: ماذا؟

ابتسمت وقالت وهي تواصل العناية بيده: كنت أسأل عن سبب هذا الجرح.

هز كتفه قائلًا: لا أدري.. شيءٌ ما خلف الجدار الذي كنا نختبئ خلفه.

غمرها شعورها بالذنب فقالت وصوتها يتهدج: آسفة.. لقد حدث كل هذا بسببي.. كان من الممكن أن يصيبك أحدهم بمكروه.

رد عمرو بهدوءٍ وبساطة: إنهم قطاع طرق.. كان من الممكن أيضًا أن يخرجوا لي وأنا بمفردي كما خرجوا لك.. لعله خيرًا.

طالعته بامتنانٍ بالغ، ثم عادت تفتح حقيبتها لتلتقط هذه المرة منديلًا قماشيًا أنيقًا ورديّ اللون تحتفظ به دائما في حقيبتها منذ كانت صغيرة إذ كان هديةً من أمها.. وبعنايةٍ شديدة، أحاطت به جرح يده ثم ربطته في إحكام..

ولبضع ثوانٍ إضافية، ظلت محتفظةً بيده بين يديها تتظاهر بأنها تتأكد من إحكام ما فعلته، واستسلم عمرو لها هو الآخر دون أن يعرف لذلك سببًا!

أنهت ما تفعله أخيرًا، فرفع يده يتأمل منديلها الملتف حول راحته ثم قال مبتسمًا: شكرًا لك.

قالت في خفوت: أنا التي لا أعرف كيف أشكرك.

هز كتفه وقال مداعبًا وعلى شفتيه ذات الابتسامة: قولي شكرًا.

رفعت عينيها إلى عينيه قائلةً بنفس الخفوت: وهل تكفى؟

أراد أن يجيب في بساطة أن نعم، لكن رغبته هذه تشتت تمامًا وعيناه تتعلقان بعينيها اللتين تألقت فيهما نظرةٌ بات يعرفها جيدًا..

نظرة عينيها الـ.. الساحرة..

نظرة عينيها التي اعترف أخيرًا بأنها نجحت في أن تحفر لنفسها مكانًا داخله، والتي لا يملك أمامها سوى أن ينجذب لها.. وبشدة..

والآن بالذات لم يشعر أن انجذابه لها قد خالطه ارتباكٌ أو فضول لسبر أغوار غموضها، بل شعر بها تجذبه وحسب..

ولأول مرةٍ في حياته، شعر بقلبه يخفق على نحوٍ مختلف وشفتاه تهمان بقول شيءٍ ما يعبر عما بداخله و...

ولكنه أومأ برأسه إيجابًا في صمت وهو يواصل التطلع إلى عينيها..

هي أيضًا كانت ضائعةً بين أمواج مشاعرها التي اجتاحتها كلها، فهمست دون أن تشعر: أنت رائع.

بدت عليه الدهشة والتفاجؤ مع عبارتها هذه حتى أنه تصور أنها قالت شيئًا آخر أخطأ هو سماعه، فتداركت نفسها بسرعة وتصنعت السعال للحظةٍ قبل أن تقول: أقصد أنت.. أنت... أعنى.. أنا أشكرك بشدة.

قالتها وهربت بعينيها بعيدًا عنه وهي تضم أوراقها إلى صدرها شاعرةً بالدماء تتجمع في وجنتيها للمرة الألف..

تطلع إليها عمرو بصمتٍ مندهش، بينما رفعت هي يدها تُلقي نظرةً على ساعتها ثم تقول في قلقٍ بالغ: لقد تأخرت كثيرًا جدًا.

نجح قولها بالفعل في أن يشتت تفكيره فيما قالت آنفًا، إذ طالع ساعته بدوره وقال: أنتِ على حق.. هيا بنا نبتعد عن هذا المكان الكئيب.

تحركا معًا في حذر عائدين إلى طريقهما الأول وتواصل مشيهما دون أن يعترض طريقهما أحد، حتى بلغا سيارته المتوقفة في أحد الشوارع الممهدة والمتفرعة مباشرةً من الشارع الرئيسي..

يبدو أن الطرق الرملية غير الممهدة هي التي دفعته لترك سيارته بعيدًا عن وجهته..

كان هذا ما جال بخاطرها وهي تقترب منها بصحبته، بينما أخرج هو مفتاح السيارة وهمّ بأن يفتح لها بابها الأمامي عندما سمعها تتنحنح في حرج، فالتفت متسائلًا ليجدها تقول وهي تشير إلى ما أمامها: سأستقل أنا إحدى سيارات الأجرة.

قال وهو يفتح الباب فعلًا: الوقت متأخر.. سأُقلك أنا.

تراجعت مرتبكةً رغم سرورها البالغ، وقالت: لا داعى لأن أشق عليك.. يكفي ما سببته لك اليوم من متاعب.

قال مبتسمًا: لا عليك.. لست متعبًا على الأطلاق.

عادت تقول: أشكرك.. أشكرك جدًا ولكن.. لا داعي حقًا لذلك.

صمت لحظاتٍ يحاول إقناع نفسه بتجنب إلحاحٍ ليس من عادته، لكنه شعر حقًا أنه لا يريد أن يتركها تذهب وحدها..

سألها في خفوت: هل يضايقكِ أن أُقلك إلى منزلك؟

يضايقها؟!

يا له من سؤال.. إنه أكثر ما يسعدها في الدنيا هي كونها بجواره أينما يكون.. لكن أنّى لها أن تخبره بهذا الآن؟!

لا يمكن قط، كما لا يمكنها قبول عرضه..

التقى حاجباها في انفعالٍ وقالت: مطلقًا.. لكني لا أريد أن أتعبك حقًا.

أدرك بالطبع أنه اعتذارٌ أنيق ليس إلا..

تُرى.. هل هي خائفةٌ منه؟!

ربما.. ولمَ لا.. لا ينبغي له أن ينسى أنها لا تعرفه، ثم أنه لم يعرف في حياته أحدًا يخاف من كل شيءٍ وأي شيءٍ مثلها..

لكن لماذا تخافه هو ولا تخاف سائق سيارة الأجرة؟!

هكذا تساءل في نفسه بحنق، لكنه لم يلبث أن تنهد في استسلامٍ وأغلق باب السيارة الذي فتحه لتوه ثم قال: حسنًا.. كما تشائين.. اسمحي لي على الأقل بأن أوقف لك إحدى سيارات الأجرة؟

تدافع قلبها بدقاته مع عبارته واهتمامه الواضح ولم تدرِ بم تجيبه..

لم يمنحها وقتًا لهذا ولم يمنحها حتى فرصةً للاعتراض، إذ تحرك فور انتهاء عبارته باتجاه الشارع الرئيسي، فلم تجد أمامها سوى أن تتبعه..

توقفت إلى جوارهما أول سيارة أجرةٍ أشار لها، فالتفتت تشكره لمرةٍ أخيرة..

منحها واحدةً من ابتساماته العذبة وقال: انتبهي لنفسك جيدًا.

أومأت برأسها وهي تنتزع من قلب انفعالاتها المتأججة ابتسامةً باهتة، ثم مضت في طريقها..

****

* ١٠ *

*** وصلت منى إلى منزلها في الواحدة صباحًا تقريبًا لتجد والدتها على وشك الجنون، ووالدها على وشك أن يخرج باحثًا عنها في جميع مكاتب الطباعة في المدينة والمدن المجاورة!

وما إن دخلت حتى قامت في وجهها عاصفةٌ هوجاء حملت من القلق والغضب والارتياح الكثير حقًا..

لم يكن هكذا الحال في منزلها فقط، بل في منزل بسمة أيضًا لأنهم اتصلوا بها بالطبع عندما عجزوا عن الاتصال بابنتهم..

كان من الصعب أن تخبرهم بما حدث فعلًا وهم بهذه الحال، يكفيهما ما شعرا به من قلقٍ وخوفٍ عليها، ثم إنها الآن بخيرٍ فلا شيء ستجنيه من إخبارهما بأنها كادت تتعرض للأذى من طغمة من الأوغاد بسبب تأخرها ليلًا بمفردها..

أخبرتهم بالجزء الخاص بتأخرها دون أن تشعر، وهاتفت بسمة أيضًا وطمأنتها متحملةً سيل كلمات التقريع الذي أسمعتها إياه طالبةً منها أن تؤجل ذلك للغد..

وبعد أن مرت اللحظات العصيبة بسلام، أوت إلى غرفتها أخيرًا وألقت نفسها على فراشها بإنهاك..

مر بعقلها سريعًا كل ما مرت به، فتزينت شفتيها بابتسامةٍ كبيرة وأسبلت جفنيها هامسة: أنا أحبك جدًا.

- من هذا يا منى؟!

بلغها صوت أمها المندهش، فانتفضت وهي تهب جالسةً على الفراش، فعادت الأم تقول بهدوء: رويدك يا ابنتي.. رويدك.

زفرت منى بعمقٍ قبل أن تقول في اضطراب: لقد أفزعتني يا أمي.

ابتسمت والدتها في حنان واقتربت تجلس على الفراش بجوارها، ثم سألتها بصوتها الهادئ:

هل ستنامين هكذا دون أن تغيري ملابسك؟

قالت وشعورها بالإرهاق يتزايد: لكم أنا متعبةٌ يا أمي حتى أنني أشعر أن تغيير ملابسي بات مهمةً ثقيلة جدًا.

ربتت أمها على كفتها ثم قالت وهي تنهض: هيا.. تحلي ببعض النشاط وغيري ملابسك ريثما أجهز لك شيئًا تأكلينه.

أومأت برأسها وهي تتثاءب، فتحركت الأم تغادر الغرفة، إلا أنها تذكرت ما سمعته منها فالتفت تقول في تساؤل: من كنت تقصدين بقولك " أحبك جدًا " ؟!

هتفت منى في استنكار مصطنع: أنا؟!

- أجل.. لقد سمعتك وأنا على باب الغرفة.

ردت منى بارتباك: آه.. لقد كنت أقصد النوم يا أمي، فكما قلت لك أنا مرهقةٌ جدًا وأشعر برغبةٍ عارمة في النوم.

تطلعت إليها والدتها في شك، فهربت بعينيها بعيدًا عنها..

- حسنًا يا منى.. لا تتأخري.

قالتها أمها وغادرت الغرفة، فتنفست الصعداء وغمغمت: معذرةً يا أمي.. لا يمكنني أن أخبرك بشيءٍ الآن.

قامت لتغير ملابسها بذهنٍ شارد، ولم يكن شرودها سوى فيه..

عمرو..

أي صدفةٍ تلك التي بعثته إليها في أحلك لحظات حياتها؟!

لقد كانت وحدها.. خائفة.. مذعورة.. مشوشة التفكير وعلى بعد خطوةٍ من الانهيار..

ثم وجدته أو وجدها لا فارق.. المهم أنه أصبح معها..

يكفيها شعورها عندما كانت تمشى إلى جواره..

لقد انمحى خوفها كأن لم يكن.. حتى عندما طاردهما هؤلاء الأوغاد لم تكن خائفة، بل منفعلة!

منفعلةً مما يحدث ومما سيحدث، ومنفعلةً أكثر من ردود أفعاله هو وهو يتصرف وكأنه المسئول عنها وعن حمايتها.. ولكم أسعدها هذا ودغدغ شعورها بأنوثتها..

لقد شعرت إلى جواره بأنها صغيرة.. صغيرة.. يكفي أن يحتويها كلها بين أصابعه..

شعرت بأنها إلى جوار أعظم رجل في الدنيا وأكثرهم رجولةً وشهامة و...

شهامة؟!!

أمن الممكن أن يكون كل هذا مجرد شهامة؟!

لا.. لا يمكن أبدًا..

ليست شهامةً فحسب..

قلبها يشعر بأن هناك شيئًا ما إلى جوارها.. ولكم تتمنى ألا يكون شعورها هذا وهمًا..

خفق قلبها في قوة لحظتها وكأنما يؤيد ما تشعر به!

تُرى.. أبدأ يشعر بقلبها حقًا؟

أستقبل قلبه شيئًا ما من مشاعرها تجاهه؟

أم مازال أمامه حتى يفعل مزيدٌ من الوقت؟

أم تراه لن يفعل مطلقًا؟

اتجهت بحركةٍ آلية نحو الفراش واندست تحت الأغطية الثقيلة ناسيةً أن أمها تنتظرها بالخارج..

كانت متعبةً جدًا ولقد سقطت في شباك النوم بعد لحظةٍ واحدة من ملامسة رأسها للوسادة، وقبل أن يتلاشى وعيها تمامًا همست: سأنتظر.

****

*** هي نامت وهي تفكر فيه.. وهو أيضًا كان يفكر فيها، لكنه لم يستطع النوم مطلقًا!

لقد كان يعتقد وهو يتجه لغرفته أنه - ومع كل ما يشعر به من إجهادٍ وإرهاق - سينام قبل حتى أن يصل إلى الفراش، لكنه لم يفعل، بل لم يستطع أن يفعل.. فها هو ذا يتقلب في الفراش منذ ساعةٍ أو يزيد لا يفعل شيئًا سوى أن يشرد، ثم يفيق من شروده ليشرد مرةً أخرى!

وعندما ألقى نظرةً على شاشة هاتفه التي أشارت أرقام ساعتها إلى الثانية والنصف صباحًا لم يشعر بالضيق، بل بالدهشة.. الدهشة من كل هذا الوقت الذي مر دون أن يشعر به!

كان يعلم أن سهره حتى هذا الوقت المتأخر يعني أن يومه غدًا سيصبح عسيرًا للغاية، لكن ذلك لم يكن كافيًا ليثير ضيقه خاصةً وهو يشعر بارتياحٍ غريب ولا يدري له سببًا..

فقط يشعر به يغمره كلما تذكرها..

كلما مرت صورتها بذهنه.. كلما تحسست أصابعه منديلها الملتف حول راحته، يكتشف بعدها أن هناك ابتسامةً كبيرة تغفو على شفتيه، فيزفر بعمق ويغمغم: كم هي رقيقة!!

ثم يعود ليتقلب في الفراش ويواصل محاولته المستميتة للنوم، لكنه مجددًا لا يستطيع!

شيءٌ ما يدفعه دفعًا للتفكير فيها.. للشرود في استرجاع لحظات وجودها معه..

شيءٌ ما لا يدري كنهه لكنه يشعر بأنه ينبع من داخله.. من أعمق أعماقه..

ثم أنه لا يقاومه كثيرًا وعلى نحو يثير دهشته، فليس من عادته أن يفعل ذلك.. ليس من طبيعته أن يستسلم لأي شعورٍ بسهولة، لكنه ولدهشته فعل!

ربما لأنه يختلف.. وربما لأنه يرتبط بها هي..

حقًا.. لكم هي رقيقةٌ جذابة..

منذ أول مرةٍ رآها فيها وهو يشعر بأنها كذلك..

منذ أن أحس لأول مرةٍ بارتجافة يدها بين أصابعه..

منذ أن شعر بنظراتها تنفذ داخله.. تخترقه.. بينما غموضها يشعل أعماقه نارًا..

منذ أن علمته عيناها كيف يتطلع إليها كما تتطلع هي إلى عينيه..

كل ما فيها يُشعره برقته وجاذبيته..

ملامحها.. ابتسامتها.. حديثها.. وحتى خوفها وذعرها..

وكل هذا شيء، ولمسات أناملها الرقيقة بينما تعتني بجرحه شيءٌ آخر تمامًا..

و.. وعيناها..

عيناها الآسرة..

عجيبٌ أمره..

مضى عمره ولم تُثر إعجابه أي فتاة.. كلهن جميلات الوجوه وأحيانًا بارعات الحسن، لكن خاويات الروح..

أما هي، فبرغم جمال ملامحها ورقتها، ورغم امتلاكها لأجمل عينين رآهما في حياته كلها، إلا أن روحها أجمل.. أجمل بكثير..

تدافع قلبه بخفقاته في هذه اللحظة بالذات، فأفاق من شروده وتحرك يتقلب في فراشه للمرة الألف مغمغمًا: يبدو أنني لن أنام في ليلتي هذه أبدًا!

ألقى نظرةً أخرى على ساعة هاتفه، ثم عاد يغمغم في غيظ: رائع.. الثالثة صباحًا والمفترض أن استيقظ في السادسة.

دفن رأسه تحت الوسادة وسكنت حركته تمامًا لعدة دقائق على نحوٍ يوحي بأن النوم قد غلبه أخيرًا، لكن قدمه ارتفعت بغتة تركل الغطاء بعيدًا ثم اعتدل وأمسك الوسادة وطوحها جانبًا في سخط..

ولدقائق، ظل حيث هو جالسًا على الفراش مبعثر الشعر يستند برأسه على قبضتيه المضمومتين، ثم لم يلبث أن اقترح على نفسه أن يقوم ليغسل وجهه ورأسه ببعض الماء البارد، عاد بعدها إلى حجرته وعلى رأسه منشفةٌ صغيرة جفف بها شعره ووجهه، ثم وقف أمام المرآة يصفف شعره بأصابعه بعد أن أضاء الأنوار..

وبينما يفعل وجد نفسه يتساءل..

ترى كيف شعرها؟

بالتأكيد أسود كالليل.. كلون عينيها.. كلون حاجبيها.. كلون رموشها الطويلة الـ... الرائعة..

ولو أطلق لخياله العنان لقال إنه ناعمٌ وطويل أيضًا.. لا يمكن أن يحيط هذا الوجه الرقيق سوى شعرٍ أسود ناعمٍ وطويل، وحتى لو لم يكن ناعمًا أو طويلًا سيكون برغم هذا جميلًا وسيعجبه بالتأكيد..

انتبه فجأةً ليجد نفسه مبتسمًا لصورته في المرآة، فتلاشت ابتسامته على الفور وعقد حاجبيه قائلًا في حدة: ولِمَ من الضروري أن يعجبني؟! مالي أنا وشعرها أصلًا؟!

زفر في عمق ومد يده يمرر أصابعه في شعر قائلًا: يبدو أنني قد جننت أخيرًا.

ظل حيث هو واقفًا صامتًا لبعض الوقت وكأنما ضايقه أن تطرق تفكيره إلى شيءٍ كهذا، ثم لم يلبث أن تحرك ومد يده المصابة ليطفئ الأنوار عندما انتبه إلى أن المنديل المربوط حول راحته قد تراخت عقدته وتزحزح عن موضع جرحه، فتحسسه بيده الأخرى ليكتشف كونه مبتلًا أيضًا!

حله على مضض واستبدله برباطٍ طبيٍ صغير..

التقط المنديل المطوي بشكلٍ قطري وفرده يتأمله، فضايقته بقعة الدماء التي توسطته والتي أفسدت شكله الأنيق تمامًا.. لفت انتباهه نقشٌ صغير في أحد أطرافه، فرفعه إلى مستوى عينيه يتطلع إليه في اهتمام..

تسللت إلى أنفه رائحةٌ عطرة رقيقة في نفس الوقت الذي ميزت فيه عيناه حروف اسمها المزخرفة بأناقة والمنقوشة بدقة بخيطٍ مقارب للون المنديل..

ارتفعت زاوية فمه بابتسامة، وقرب المنديل من أنفه أكثر ليلتقط نفسًا عميقًا محملًا برائحة عطرها قبل أن يقول: ألم أقل أنها رقيقة!

عاد يتأمل اسمها المنقوش على طرف المنديل عندما شعر بغتة أن تلك الزخرفة تبدو مألوفةً إلى حدٍ كبير، إلا أنه تجاهل الأمر سريعًا وهو يودع المنديل جيب منامته..

أطفأ أنوار الحجرة واستلقى في فراشه وتدثر بأغطيته الثقيلة شاعرًا بالفعل أنه أكثر استرخاءً وانتعاشًا.. وعندما أسبل جفنيه هذه المرة لم يشعر أن النوم مازال بعيدًا كما كان.. عليه فقط ألا يفكر في أي شيءٍ سواه..

وبعقل بدأ اللاوعي يغزوه فعلًا مد يده يغلق هاتفه.. لا يريد الاستيقاظ في السادسة ولا في أي ميعاد بعينه.. سينام حتى يشعر أنه اكتفى ويستيقظ وحده.. لا بأس أن يتأخر عن المستشفى قليلًا مع إنه يكره ذلك، ولا بأس ألّا يتريض قبل خروجه للعمل كما يفعل دائمًا.. ولا...

مهلًا.. لقد كانت تعرف!!

تعرف أنه يخرج للتريض يوميًا.. إنه يذكر عبارتها جيدًا.. " أنا لا أتريض كل يومٍ مثلك "!

ترى.. ماذا كانت تعني؟

أهو مجرد استنتاج؟ أم كنايةٍ عن سرعة عدوه؟!

كم أن أمرها عجيب..

أشياءٌ كثيرة تتعلق بها يشعر أنها تحمل غرابةً وإما غموضًا..

لم يمهله النوم ليفكر أكثر، إذ سرعان ما ظفر بعقله وجذبه إلى الأعماق..

أخيرًا..

****

*** استيقظ عمرو بغتة على صوت جلبةٍ بالأسفل، فنهض قلقًا ليرى ما هنالك..

" أمازلت نائمًا ؟!! "

بلغته العبارة محملةً باستنكارٍ شديد ودهشة بمجرد خروجه من غرفته، فحدق في قائلها وقال: باسل؟! كيف دخلت إلى هنا؟!

اقترب منه باسل قائلًا بغيظ: لم أخترق الجدران بالتأكيد.. عندما وصلت كان سيد يعتني بالحديقة ففتح لي لأدخل.. أما لماذا أتيت فهذا لأن هاتف سيادتكم مغلق وباءت اتصالاتي جميعها منذ الصباح الباكر بالفشل.. والآن هيا أيها الطبيب الكسول.. إنها العاشرة والنصف صباحًا.. لقد تأخرنا كثيرًا.

غمغم عمرو: العاشرة والنصف؟!

- أجل.. هيا تحرك بسرعة.. لم أتخيل أبدًا وأنا قادم أن أجدك نائمًا حتى الآن.

تثاءب عمرو بقوة ومرر أصابعه في شعره شاعرًا بأنه مازال يريد مواصلة النوم، في حين كرر باسل بنفاذ صبر: هيا.. لقد تأخرنا.

تركه عمرو وعاد إلى غرفته بل واستلقى مجددًا على الفراش ثم قال بصوتٍ ناعس: اتركني أنام قليلًا يا باسل أرجوك.. لقد تأخرت على المستشفى وانتهى الأمر.

عادت الدهشة والاستنكار إلى وجه باسل وهو يقول: أي مستشفى؟! اليوم الخميس.. هل نسيت المؤتمر الطبي الذي من المفترض أن يبدأ في الثانية عشرة؟

اعتدل عمرو على الفور وقد التقى حاجباه، ثم هتف وهو يضرب جبهته براحته في قوة: يا إلهي.. المؤتمر! كيف نسيت؟!

نظر باسل إلى ساعته وهمّ بقول شيءٍ ما، لكنه وجد عمرو يقفز من الفراش ويدفعه خارج الحجرة قائلًا: معذرة يا باسل انتظرني بالخارج.. عشر دقائق على الأكثر وأكون جاهزًا.

مط باسل شفتيه في سخط وقال وهو يغادر الحجرة: سلامة عقلك يا صديقي العزيز.

ثم هبط درجات السلم إلى أسفل قائلًا بصوتٍ أعلى: من الأفضل لك ألا تتأخر، لأنني بعد إحدى عشرة دقيقة من الآن سأتركك وأذهب.

لم يتلقَ ردًا من عمرو ولم يكن ينتظره، فقد واصل هبوطه ثم انتقى مقعدًا وثيرًا مواجهًا لإحدى النوافذ العريضة المطلة على الحديقة وجلس ينتظر..

لم تمضِ عشر دقائق بالفعل حتى سمع صوت عمرو من خلفه يقول: هيا بنا.

التفت فوجده يهبط درجات السلم في سرعة حاملًا سترته على أحد كتفيه بينما يعقد رباط عنقه في عجل، فقال: أخيرًا.. بدأت أندم على اقتراحي بالذهاب إلى هناك سويًا.

سأله عمرو وهو يرتدي سترته متجهًا إليه: كم الساعة الآن؟

- إلا الثلث.. ألم تنتهي بعد؟

- لقد انتهيت بالفعل.. هيا بنا.

قالها والتقط سلسلة مفاتيحه واتجه للخارج بخطواتٍ سريعة، فطالعه باسل بدهشة ثم لم يلبث أن ابتسم وقال وهو يلحق به: ألا تلاحظ معي أنك لم تُحضر أيًّا من أوراقك.. أين الدراسة التي أعددتها لموضوع رسالة الدكتوراه والتي أخبرتني أنك ستعرضها على لجنة المناقشة في المؤتمر؟

توقف عمرو بغتة وقد اكتشف أنه نسيَ ذلك بالفعل، فابتسم في ارتباكٍ واتجه نحو غرفة مكتبه قائلًا: أنت على حق.

تحولت ابتسامة باسل إلى ضحكةٍ وقال: كثرة النوم تفعل هذا وأكثر.

أتاه صوت عمرو مقترنًا بصوت أدراج المكتب التي تفتح وتغلق: بل قلة النوم.. أذكر أن الساعة وصلت الرابعة صباحًا وأنا مازلت مستيقظًا!

سأله باسل في دهشة: ولم؟!

زفر عمرو بعمق، ثم قال في اقتضابٍ وهو يخرج من حجرة المكتب حاملًا بضعة ملفات: أرق.

خرجا سويًا من المنزل إلى الحديقة بينما باسل يقول ضاحكًا: وفيما الأرق حتى الرابعة صباحًا؟ لا أظنك قد سهرت تعد النجوم.

رمقه عمرو بنظرةٍ جانبيةٍ ساخطة ولم يعلق، وظل على صمته حتى خرجا من البوابة الأمامية..

انتبه باسل إلى يده المضمدة فتساءل: ماذا أصاب يدك؟

- مجرد جرحٍ سطحي.. لا تشغل بالك.

اتجه عمرو إلى السيارة وفتح بابها الخلفي ليضع أوراقه، ففوجئ بصورته المنعكسة على زجاج السيارة وقال: أرأيت نتيجة استعجالك.. لقد نسيت أن أصفف شعري.

رفع يده يحاول تصفيفه بأصابعه بينما باسل يقول في نفاذ صبر: هيا يا عمرو.

بدا على عمرو الضيق وهو يتطلع إلى ساعته، قبل أن يلقي بمفاتيحه إلى باسل قائلًا: دقيقةٌ واحدة وأعود يا باسل.. انتظرني.. لن أتأخر.

التقط باسل المفاتيح مندهشًا، لكنه أمسك بيد عمرو قبل أن يذهب قائلًا: كلا أرجوك.. لقد تأخرنا كثيرًا.. أقسم أنك في قمة الأناقة والروعة.

حاول عمرو جذب يده من يد باسل القابضة عليها بقوة وهو يقول: لن أتأخر صدقني.. نصف دقيقةٍ فقط و...

قاطعه باسل وهو يتشبث بيده أكثر: مهلًا.. انتظر.. لدي ما تحتاجه!

قالها وأخرج من جيبه مشطًا صغيرًا ناوله له، فابتسم قائلًا: هذا أفضل.

نظر إليه باسل في غيظ، ثم تركه يصفف شعره في عناية أمام زجاج السيارة وفتح بابها الأمامي ودلف إليها ينتظره في استسلام..

لم يستغرق عمرو سوى لحظات دلف بعدها إلى السيارة بدوره قائلًا بابتسامةٍ كبيرة: ما رأيك؟

قال باسل في حنق: مبهر.. تمامًا كعريس في ليلة زفافه.. والآن هلّا تكرمت وانطلقت بنا قبل أن أصاب بالشلل الرعاش.

أطلق عمرو ضحكةً عالية وأدار محرك السيارة قائلًا: سأندهش حقًا لو لم يحدث هذا.

وكأنما شعر برغبةٍ في أن يعبث قليلًا، انطلق عمرو بالسيارة انطلاقةً عنيفة جعلت قلب باسل يهبط بين قدميه وهو يرى نفسه مندفعًا نحو أسوار المنزل في قوة فهتف: عمرو!

اعتدل عمرو بالسيارة بحركةٍ أكثر عنفًا جعلت باسل يهتف مرة أخرى: يا مجنون!

جاوب عمرو هتافه بضحكةٍ مرحةٍ عالية وهو يعاود الانطلاق في هدوء، ثم قال: معذرة يا صديقي.. أردت فقط اختبار مدى ثباتك الانفعالي، ويبدو أنه عالٍ جدًا فلقد أصبت بالذعر بسرعةٍ خرافية.

ابتسم باسل على الرغم منه وقال: هكذا إذًا.. حسنًا.. دعني أقود أنا وسأوريك كيف يكون الذعر الحقيقي.

رفع عمرو كفه في استسلام وقال ضاحكًا: كلا أرجوك.. أريد أن أصل إلى المؤتمر قطعةً واحدة.

هز باسل كتفه وقال وهو يسترخى في مقعده: مهما قلت.. تعلم أني أفوقك مهارةً في القيادة.

رفع عمرو أحد حاجبيه وخفضه مغمغمًا: آه.. طبعًا.

قالها بلهجةٍ عابثة جعلت باسل يلتفت إليه قائلًا بلهجةٍ مماثلة: على الأقل أنا لم أُفاجئ إحداهن أبدًا بقيادتي المتهورة أثناء عبورها الطريق.

تلاشت ابتسامة عمرو على الفور والتقى حاجباه بينما منى تقتحم تفكيره اقتحامًا مقترنةً بانفعالٍ غريب لم يجد له سببًا فأورثه ضيقًا جعله يلوذ بالصمت..

- عمرو!

صاح بها باسل عندما طال صمته، فالتفت إليه متسائلًا ليجده يقول في دهشة: إلى أين ذهبت؟!

قال في بساطة وعيناه تعاودان تركيزهما على الطريق: كنت أفكر في ردٍ لاذع يليق بكلامك السخيف.

عقد باسل ذراعيه أمام صدره وقال مستعيدًا لهجته العابثة: حقًا؟! أم تُراك تذكرت شيئًا ما أكثر أهمية؟

تحولت ابتسامة عمرو إلى ضحكةٍ قصيرة قال بعدها: دعك من هذا الآن وألقِ نظرةً على الدراسة التي أعددتها للمناقشة اليوم.. أريد أن أعرف رأيك بسرعة.

قال باسل مستنكرًا: الآن؟

- أجل.. لا أضمن أن نجد وقتًا لهذا عندما نصل.

انشغل باسل بمطالعة الأوراق، فزفر عمرو في ارتياح..

كان رأي باسل في الدراسة التي أعدها يهمه بالتأكيد، إلا أنه أراد فعلًا أن يشغله عنه الآن ولو قليلًا..

يعرف كم هو فضولي ولا يكف عن إلقاء أسئلةٍ غريبة لا يعرف إجابتها هو نفسه، فكيف يجيبه!!

****

*** وقفت منى أمام المرآة بكامل أناقتها تضع لمساتها الأخيرة على ثوبها وحجابها وزينتها البسيطة..

كانت لازالت تشعر بإرهاقٍ شديد منذ الأمس فلم تستطع الاستيقاظ مبكرًا.. وبرغم أنها فوتت وقت المحاضرة الأولى، إلا أنها قررت الذهاب إلى الجامعة لتلحق بالمحاضرات التالية..

اتجهت إلى مكتبها الصغير والتقطت دفتر محاضراتها والبحث الذي أنهت إعداده بالأمس بعد أن وضعته في حافظةٍ بلاستيكية أنيقة..

غادرت المنزل وهبطت درجات السلم في سرعة، وقبل أن تعبر بوابة البناية، توقفت لحظةً أمام الجزء الزجاجي المصقول منها تُلقى نظرةً على نفسها لتتأكد من أن كل شيءٍ على ما يرام..

لم يكن حجابها قد تزحزح سنتيمترًا واحدًا عن موضعه إلا أنها رفعت يدها تعدل من وضع أحد الدبابيس ثم ابتسمت وهي تعبر البوابة مغمغمة: بالطبع أبدو جم....

" دقيقةٌ واحدة وأعود يا باسل.. انتظرني.. لن أتأخر"

بترت عبارتها مرغمةً وهذه العبارة تصل إلى مسامعها يحملها صوتٌ مألوف جعلها تلتفت بسرعة نحو مصدره..

أدهشتها رؤية عمرو كثيرًا، فعندما استيقظت متأخرًا لم تُطل من النافذة لثقتها بأنه ذهب لعمله منذ الصباح الباكر..

تعلقت عيناها به وهو يتابع حديثه حتى أنها لم تنتبه إلى كونها تبدو واضحةً للغاية من مكانها هذا، وإلى أن أي التفاتةٍ بسيطة من عمرو تجاهها تكفى ليراها ويتعرفها، لكنها لم تكن تعي سوى وجوده..

ابتسمت وهي تستمع إلى حواره مع صديقه ابتسامةً تحولت سريعًا إلى ضحكةٍ خافتة وهي تراه يقف أمام زجاج السيارة يصفف شعره..

انطلاقته العنيفة بالسيارة جعلتها تطلق شهقةً خافتة وهي تتراجع إلى الوراء بحركة غريزية، ثم لم تلبث أن ملأتها الدهشة بدلًا من الاضطراب وضحكته تصل إلى مسامعها واضحة، بينما يعتدل بالسيارة بحركةٍ عنيفة أخرى قبل أن يعاود الانطلاق في هدوء..

تعجبت مما فعل، ومن تأخره حتى هذا الوقت، وأيضًا من نفسها التي ينقلب حالها في غمضة عين بمجرد رؤيته..

لم تفارقه عيناها حتى غاب في نهاية الطريق، فتحركت تمشي وهي تفكر..

فيه طبعًا.. وفي نفسها..

حقًا تساءلت من أعماقها..

ما هذا الذي يحدث لها حين تراه!

أيّ مشاعر تجتاحها!

أتراها دهشةٌ لوجوده المفاجئ؟!

أم فرحٌ وسعادةٌ لرؤيته؟!

أم تراه شوقٌ جارف إليه؟!

أم هو حبٌ وحنين؟!

أتراها لهفةٌ ورغبةٌ هائلة في أن تهتف تناديه.. في أن تقترب منه.. في أن تتطلع إلى وجهه عن قرب؟!

أم هو خوفٌ من اللحظة التي سيبتعد فيها؟!

أم رهبةٌ من كل هذا الوقت الذي سيمضى إلى أن تراه ثانيةً؟!

تنهدت بقوة..

لقد شعرت بكل هذه المشاعر مجتمعة.. شعرت بكل هذه الأحاسيس دفعةً واحدة على نحوٍ كفيل بجعل قلبها يئن بخفقاته..

وكيف لا وهو ينبض بكل هذه المشاعر.. ينبض معترفًا لها في كل لحظةٍ أنه يحبه..

يحبه جدًا..

كانت قد بدأت مرحلة البحث عن مواصلات، فتنهدت في عمقٍ وغمغمت: حان الوقت الذي أشعر فيه أنني أحسدك يا بسمة على نوبة البرد اللطيفة التي أراحتك من الجامعة يومين كاملين.

ولحظها الـ... السعيد، استغرق الطريق هذه المرة وقتًا أطول من المعتاد.. حتى أنها حدثت نفسها ساخطة وهي تعبر أبواب الجامعة الرئيسية: ساعةٌ كاملة! لو كنت قد جئت مشيًا لوصلت قبل هذا!

أسرعت الخُطى حتى تستطيع اللحاق بمحاضرتها فهي تعلم أن الأستاذ الذي سيلقى محاضرة اليوم من ذلك النوع السخيف الذي لا يسمح لأحدٍ بالدخول بعده..

مع اقترابها، لمحت الكثير من زميلاتها وصديقاتها يجلسن بالخارج في ساحة الكلية، ولم يطل الوقت حتى علمت بإلغاء المحاضرة..

أثار هذا تعجبها وإحباطها، فاتجهت إلى حيث صديقاتها مغمغمةً بسخط: ها أنا ذا أحسدك للمرة الثانية يا بسمة.

كانت هناك محاضرةٌ أخرى فلم يكن هناك مفرٌ من الانتظار..

- أراهن أنه المؤتمر الطبي.

كانت هذه عبارة إحداهن، فتساءلت منى: أي مؤتمر؟

ردت وهي تشير إلى إحدى لافتات الإعلان الكبيرة المعلقة بساحة الكلية: إنه مؤتمر عديم الفائدة كباقي المؤتمرات التي تعقد في كلية الطب.. ولا بد أن أستاذ الكيمياء الحيوية قد شعر فجأة أنه مثقفٌ للدرجة التي تجعله يرغب في حضوره.

قالت أخرى ضاحكة: أعتقد أن الأمر لا علاقة له بالعلم ولا بالثقافة.. إنه بالتأكيد الغداء الفاخر الذي يتناولونه في مثل هذه المؤتمرات.

ضحك الجميع في مرح وهمت منى بقول شيءٍ ما عندما شعرت بمن يضع يده على كتفها وسمعت صوت بسمة يقول: هذا هو السبب الحقيقي بالتأكيد.

التفتت منى في دهشة قائلة: بسمة !! حمدًا لله على سلامتك.. كيف حالك الآن؟

قالت بسمة بصوتٍ مازال يحمل آثار نوبة البرد: بخيرٍ والحمد لله.. أنا أفضل اليوم بكثير.

ابتسمت منى وقالت: حمدًا لله.. لم تخبريني أنك ستأتي اليوم!

هزت بسمة كتفها وقالت في مرح: لم أكن أنوى بالفعل.. وعندما فعلت، قررت أن أجعلها مفاجأة.

رفعت منى البحث الذي تحمله أمام عيني بسمة وهي تقول: أنا أيضًا أحمل لك مفاجأة.

التقطت بسمة البحث في لهفة وتصفحته في سرعة قائلة: رائعٌ يا منى.. رائع.. إنه يستحق بالفعل أن تسبي لنا كل هذا القلق من أجله.

- لقد أتعبني جدًا.. وكدت أضيع بسببه لولا أحدهم.

قالت بسمة مازحةً وهي تواصل تصفحه: لا بأس يا منى لا بأس.. البحث أكثر أهميةً بالتأكيد.

انتبهت بغتةً إلى لهجتها، فرفعت عينيها إليها لترى ما خشيته!

تلك الابتسامة البلهاء لا تعني خيرًا أبدًا..

أغلقت البحث ومسحت جانب وجهها بكفها وهي تقول: لولا أحدهم! قلبي يحدثني أن جنونك قد تسبب في كارثةٍ كالمعتاد.

ضحكت منى، فتأكدت بسمة أن ظنونها في محلها تمامًا!

****

* ١١ *

*** في الثالثة تقريبًا انتهى المؤتمر.. وحول المبنى الذي يحوي قاعة المؤتمرات بالجامعة، احتشد عددٌ كبير من الطلبة يرمقون في اهتمامٍ هذا الجمع من الوجوه الجديدة المتأنقة والتي بدا واضحًا أنها لا تنتمى لعالم الطلبة بأي حالٍ من الأحوال بهذه الأزياء الرسمية الكاملة وأربطة العنق الأنيقة..

كان عمرو يشعر بالكثير من الارتياح والثقة بعد أن أُعتمدت الدراسة التي أعدها من قِبل اللجنة المنوطة لتكون رسالته في الدكتوراه..

وفي مرح، وقف هو وباسل بين مجموعةٍ من أصدقائهما يتبادلون الحديث حول المؤتمر والعمل في المستشفيات وأيام الجامعة أيضًا..

قال باسل: أشعر أنني أصحبت عجوزًا كلما نظرت إلى هؤلاء الطلبة المراهقين.. ترى هل كنتُ أبدو بهذه البلاهة عندما كنت طالبًا؟

قال الجميع بصوتٍ واحد تقريبًا: طبعًا.

ضحك عمرو وباسل يقول مصدومًا: حقًا!!

قال أحدهم: كلنا كنا كذلك.. كانت أيامًا جميلة، ولكننا كالمعتاد لا نشعر بقيمتها إلا بعد مرورها.

رد آخر: أنت على حق.

تناقل الحديث بينهم على نحوٍ لم يُشعرهم بمرور الوقت وقد جلس بعضهم على المقاعد العريضة المنتشرة في طرقات الجامعة في حين استند الآخرون على السيارات المتوقفة حولهم.

وفي حماس قال أحدهم: ما رأيكم في أن نذهب جميعًا إلى أي مكانٍ هادئ لنواصل حديثنا فلست أظن أن نتجمع هكذا قريبًا.

أيده البعض في حماس مماثل، في حين اعتذر آخرون وكان من بينهم عمرو..

قال باسل: عمرو.. لن تتكرر هذه الفرصة قريبًا.

رد عمرو: أعلم هذا بل وأريد الذهاب معكم أيضًا.. لكنها العيادة كما تعلم.

قال باسل معترضًا: مازال الوقت مبكرًا.

- بالكاد استريح قليلًا قبل أن أذهب.. أنا لم أنم جيدًا أمس وأشعر بالإرهاق.

- ستندم على إضاعة الفرصة.

- أعلم هذا أيضًا!

قالها عمرو مبتسمًا، ثم صافح أصدقاءه في حرارة واعتذر لهم وتركهم وهو يلوح بيده متمنيًا لهم وقتًا طيبًا..

اتجه بخطواتٍ سريعة إلى حيث ترك سيارته بالقرب من أحد مباني كلية الطلب والتي كانت بعيدةً نوعًا عن مبنى قاعة المؤتمرات فلقد كان المكان حولها عند وصوله مزدحمًا بالسيارات المتوقفة..

كان يمشي متأملًا المكان من حوله وكأنما يشتاق إليه.. أيام الجامعة هذه لا تُنسى..

لاحت له سيارته من بعيدٍ وكانت مقدمتها تجاهه، وبينما يواصل خطواته السريعة نحوها لمح فتاةً وضعت أشياءها على حقيبة سيارته وانهمكت في كتابة شيءٍ ما مستندةً عليها..

ابتسم عمرو وهو يتذكر أنه لطالما فعل ذلك عندما كان طالبًا.. كانت السيارات المتوقفة والمقاعد شيئًا واحدًا تقريبًا، لكن ابتسامته هذه تلاشت عندما اقترب للحد الكافي لتبين ملامحها و...

واستحوذ عليه ذلك الانفعال الغريب مجددًا..

إنها هي..

منى !!

ما... ما الذى أتى بها إلى هنا؟!

ما الذى ...؟! يا له من سؤال.. إن وجودها هنا أكثر منطقيةً من وجوده هو نفسه.. أليست طالبة صيدلية!!

هكذا قال لنفسه، ولكن.. لماذا تقف عند سيارته بالذات؟!!

انتبه لحظتها أن خطواته قد أبطأت حتى توقف في مكانه دون أن يشعر، فالتقى حاجباه بتوتر وأراد أن يواصل تقدمه، لكنه خطى خطوةً واحدة عاد يتوقف بعدها دون أن يرفع بصره عنها وانفعالاتٌ أخرى تموج داخله..

ما هذا الذى يشعر به.. ما هذا الانفعال الذى يجتاحه.. لماذا لا يتحرك؟!

كانت لاتزال منهمكةً فيما تكتبه غير منتبهةٍ إلى وجوده على الإطلاق، رغم أنه يقف على بُعد بضعة أمتار..

أما هو، فظل حيث يقف يتأملها في صمت..

بدت له في هذه اللحظة كالرقة ذاتها واقفة بجوار سيارته.. رقيقةٌ للغاية كما عهدها، وقد أخذ الهواء يتلاعب بأطراف ثوبها وحجابها فزادها رقة.. أنيقةٌ للغاية بتلك السترة الجلدية البيضاء القصيرة ذات الأزرار الفضية والتي تركتها مفتوحة لتكشف عن كنزةٍ أكثر أناقة حمراء اللون..

شعر بالدهشة من نفسه فهذه أول مرةٍ ينتبه فيها إلى ملابسها ولا يدري لماذا!

كانت مندمجةً فيما تفعله على نحوٍ منحة الفرصة ليتأملها أكثر وأكثر..

ترى.. ماذا سيحدث إذا اقترب أكثر حتى تراه هي؟

هل سيطالعه وجهها الرقيق عن قرب؟

هل سترفع عينيها الجميلتين إلى عينيه؟

هل سيرى فيهما تلك النظرة التي...

التي يحبها؟

انعقد حاجباه في شدة عندما وجد نفسه يستخدم هذا التعبير، وحقًا.. همّ بأن يلتفت ويبتعد عن المكان بأكمله..

لكن وفي اللحظة ذاتها، أطار اندفاع الهواء القوي أحد أوراقها فتحركت يدها بسرعة تمسك بباقي الأوراق حتى لا تتطاير هي الأخرى، ثم رفعت بصرها تتابع ورقتها الطائرة التي دفعها الهواء إلى أعلى وابتعد بها ثم تخلى عنها لتسقط متدحرجةً على الأرض..

عيناها أيضًا لم تواصلا متابعة الورقة حتى النهاية، فقد تخلت عنها هي الأخرى مرغمةَ وعمرو يقتحم مجال رؤيتها بغتة لترتفع خفقات قلبها إلى الذروة دفعةً واحدة..

شعرت بدهشةٍ بالغة وهي تراه أمامها هكذا وبدون مقدمات، لكن دهشتها هذه لم تستمر طويلًا وكأنما لا يهمها كثيرًا الأسباب والمبررات.. لقد تلاشت سريعًا مفسحةً المجال أمام سيلٍ من المشاعر الأخرى اندفع داخلها..

وعلى ملامحها ظهرت كل هذه المشاعر مجتمعة، وتألقت في عينيها التي توقفت عنده دون أن تنتبه إلى أن ورقتها التي أطارها الهواء قد سقطت عند قدميه..

كان عمرو في هذه اللحظة يجد أمامه ما كان يفكر فيه منذ لحظات..

ما كان يتمناه.. ويخشاه..

فها هو ذا وجهها يطالعه بملامحه الرقيقة..

ها هي ذي عيناها تنظر إليه بتلك النظرة الجذابة المحيرة..

تلك النظرة التي لا يعرف بالضبط ما الذي يحدث له أمامها، فها هو ذا يبتسم دون أن يشعر..

ولثوانٍ، ظل كلاهما يتطلع إلى الآخر، قبل أن ينحني عمرو في بساطة ويلتقط الورقة ثم يعتدل ويواصل تقدمه نحوها وكأنما لم يوقفه إلا سقوطها أمامه..

تطلعت منى إلى وجهه المبتسم كالمأخوذة حتى أصبح أمامها يمد يده إليها بالورقة قائلًا: تفضلي.

ظلت منى تتطلع إليه وكأنها لم تستوعب وجوده بعد، لكنها لم تلبث أن شعرت بالدماء تتجمع في وجنتيها أمام نظراته المباشرة، فخفضت عينيها في سرعة والتقطت الورقة قائلةً في خفوتٍ وارتباك: شـ.. شكرًا.

لاحظ عمرو احمرار وجهها فاتسعت ابتسامته، بينما أخذت هي تلملم أوراقها بارتباكٍ وتضعها أسفل حقيبتها الصغيرة حتى لا يطيرها الهواء مرة أخرى..

وفي أعماقه شعر بالحيرة، لكنه شعر أيضًا أنه حقًا مسرورٌ لوجودها معه، وأنه لا يريدها أن تذهب..

وهكذا وجد نفسه يستند بظهره على حقيبة السيارة بجوارها، ثم يعقد ذراعيه أمام صدره قائلًا بابتسامته العذبة: كيف حالك؟

التفتت منى إليه بدهشة، ولم تدرِ بماذا تجيبه..

لم يكن سؤاله وحده هو مبعث دهشتها، لكنها أيضًا وقفته تلك.. هذه اللهجة التي يتحدث بها وكأنها أحد أصدقائه المقربين.. نظرته المباشرة.. هذه الابتسامة الـ...

عادت تشعر بالدماء تتجمع في وجنتيها وخفقات قلبها تزيد وتزيد، فابتعدت بعينيها عنه معترفةً لنفسها أن قربه مرهقٌ للغاية..

- بخير.. بخيرٍ والحمد لله.

كان هذا كل ما استطاعت قوله وهي تحاول جاهدةً أن تبتسم في بساطة..

- هل وصلت بسلامٍ ليلة أمس؟

عاد يسألها بلهجةٍ قلقة..

اختلج قلبها مع سؤاله وكادت ترفع عينيها مرةً أخرى لتغوص في بحر عينيه، لكنها تمالكت نفسها بصعوبة.. حاولت أن تجيبه فلم تستطع سوى أن تومئ برأسها إيجابًا..

صمت عمرو لحظةً ثم قال: لقد كنت أحمقًا عندما تركتك تذهبين وحدك في هذا الوقت المتأخر ليلة أمس.

أجبرتها كلماته هذه المرة على الالتفات إليه بكيانها كله، لتجد أمامها أرق ابتسامةٍ حملتها شفتاه وهو يكمل: ماذا لو أصابك مكروه.. لم أكن لأسامح نفسي أبدًا.

حدّقت فيه غير مصدقة هذا الذى تسمعه، وضبطت نفسها متلبسةً بالابتسام في سعادة، وحقًا.. وجدت الكثير من توترها وارتباكها لوجوده المفاجئ يتلاشى شيئًا فشيئًا..

ولتُخفى ابتسامتها هذه، تظاهرت بالبحث في أوراقها عن شيءٍ ما وهي تقول: شكرًا لك.. يكفي ما سببته لك من متاعب.

اتسعت ابتسامته وهمّ بقول شيءٍ ما، لكنها سبقته بسؤالها: كيف حال يدك الآن؟

أحس بنبرةٍ حانيةٍ قلقة غلفت سؤالها، ودفعه هذا إلى تأمل ملامحها محاولًا استشفاف ما يدعم إحساسه، لكنها تحاشت النظر إليه وواصلت التظاهر بالانشغال في أوراقها، فحل ذراعيه من أمام صدره وتطلع إلى يده المصابة قائلًا: أعتقد أنها أصبحت على ما يرام.

ثم التفت إليها مردفًا: لو كنت أعلم أنني سأراك اليوم لأحضرتك منديلك.. لقد بللته أمس وأنا أغسل وجهي فاضطررت إلى تغييره.

قالت بسرعة: لا عليك.. لم أكن أنوى استرداده عندما أعطيته لك.

صمتت لحظةً ثم أكملت عبارتها في تردد: يمكنك... يمكنك الاحتفاظ به لو أردت.

ابتسم قائلًا: حقًا.. إنه ليسعدني بالتأكيد أن أحتفظ بشيءٍ بمثل هذه الرقة.

تراقصت دقات قلبها مع كلماته الرقيقة وكللت شفتيها ابتسامةٌ خجلى، إلا أنها لم تقوَ على رفع عينيها إليه مرةً أخرى..

لاحظ عمرو أنها بدأت تتحاشى النظر إليه على نحوٍ مباشر.. حتى عباراتها الأخيرة ألقتها وبصرها لا يتجاوز مستوى كتفيه وكأنما أصبحت تخشى أن تلتقي عيناها بعينيه..

زاد هذا من شعوره بالحيرة فتنهد في عمق، ثم خطر بباله شيءٌ ما جعله يرفع يده المصابة ويحل الرباط الطبي من حولها..

أسرعت منى تقول في قلق: لِمَ تفعل ذلك؟ لست أعتقد أن الجرح قد التئم بهذه السرعة.

واصل عمرو حل الرباط الطبي قائلًا: إنه جرحٌ بسيط.. ثم إن هذا الرباط يضايقني أكثر مما يفعل الجرح نفسه.

ثم رفع يده في مواجهتها مكملًا: أرأيتِ.

نظرت إلى يده في قلق.. كان الجرح قد التئم بالفعل ولكن ليس تمامًا، تكفى أي حركةٍ عنيفة لتجعله ينزف مرةً أخرى..

تحركت يدها نحو يده في حركةٍ تلقائية وكأنما تريد الاطمئنان بنفسها، لكنها توقفت بغتة وسحبت يدها في سرعة قائلةً في ارتباك: ألا... ألا يؤلمك؟

لم يغب ذلك عن عينيه، فابتسم وقال وهو يتحسس الجرح بأصابعه: قليلًا.

ثم أخرج مفاتيح سيارته وتحرك يفتح بابها الجانبي المجاور له ويلقى الرباط الطبي على المقعد ثم يغلق الباب..

التفت فوجدها تنظر إليه بدهشةٍ وهي تقول: أهذه سيارتك؟!!

ابتسم وهو يومئ برأسه إيجابًا.. كان قد توقع أنها لم تقصد الوقوف بجوار سيارته بالذات وإلا لما ظهرت عليها الدهشة عندما رأته.. لقد انتقت واحدةً عندما أرادت أن تستند على شيءٍ ما لتكتب، ولم يكن اختيار سيارته سوى صدفةٍ جميلة..

أما منى فقد كان شعورها بالصدفة أكبر بكثير.. تعرف بالتأكيد شكل سيارته، بل وتحفظه عن ظهر قلب، لهذا انتقت هذه السيارة.. انتقتها لأنها تشبه سيارته كثيرًا.. ليس لأنها هي سيارته!! فما الذى سيأتي به هنا إلى الجامعة!!

وهي التي كانت تتساءل منذ أن رأته لماذا هو هنا؟!

لماذا اتجه نحوها بالذات وكأنما كان يبحث عنها؟!

لقد كان يتجه نحو سيارته إذًا.. ولم تكن هي سوى متطفلةٍ عطلته عما كان يريد فعله..

شعرت بحرجٍ شديد جعلها تلملم أشيائها بسرعة وتقول في ارتباك: آسفة.. لم أكن أعلم أنها سيارتك.

قال بسرعة: لا عليك.. هذا لا يضايقني البتة.

حملت أوراقها ومعطفها وحقيبتها الصغيرة وقالت مبتسمةً في خجل: معذرة.. إنها عادةٌ سخيفة يبدو أنني لن أتخلص منها قريبًا.. ولكن كما ترى، لا يوجد شيءٌ آخر يصلح للاستناد عليه.

ابتسم بدوره وقال: لا داعي للاعتذار.. لقد اعتدت على ذلك منذ أيام الجامعة.

ثم ربّت على سيارته مكملًا: ثم إن سيارتي العزيزة تبدو سعيدةً بوجودك إلى جوارها.

تشتت انتباهها إلى فحوى عبارته عندما وجدته يرفع يده يتطلع إليها وقد بدا على وجهه أن تلك الحركة قد جعلت الجرح يؤلمه، فأسرعت تقول في قلق: أمازال يؤلمك؟

- ليس كثيرًا.. لا تشغلي بالك.

- على الأقل ضمده بلاصقٍ طبي.

هز كتفه وقال: لا أملك واحدًا الآن.. ربما عندما أعود إلى البيت.

عادت منى ترمق يده بنفس النظرة القلقة، ثم لم تلبث أن قالت بحزم: حسنًا.. انتظرني بضع دقائق وسأحضر لك واحدًا.

ارتفع حاجباه في دهشة عندما تحركت مبتعدةً بالفعل.. فهتف يستوقفها: مهلًا.. إلى أين؟؟

قالت في سرعة وهي تشير بيدها: هناك صيدلية قريبة من بوابة كلية الطب سأ...

هتف مرةً أخرى يقاطعها وهو يتحرك ليلحق بها: انتظري..

توقفت مرغمةً عندما أمسك بطرف معطفها الذى تحمله بينما يكمل ضاحكًا: لحظة.. انتظري لحظة.

قالت في اعتراض: لكن...

عاد يقاطعها وابتسامةٌ كبيرة تملأ وجهه: سأبحث في السيارة ربما أجد شيئًا.

ترك معطفها وعاد إلى السيارة يبحث فيها وبالفعل وجد بغيته، فخرج به إليها حيث وقفت تنتظره قائلًا: هذا ما وجدته.

كان لاصقًا طبيًا عريضًا وطويلًا من النوع الجيد جدًا.. بالطبع!

فقالت منى مبتسمة: إنه ممتاز.

أزال عمرو غلافه وتظاهر بأنه لا يستطيع لصقه بشكلٍ صحيح بيده اليسرى، ثم لصقه قاصدًا أن يكون مائلًا ولا يغطى الجرح بالكامل، فقالت منى وهي تشير بيدها توضح له كيف يعدل من وضعه: ليس هكذا.. بل هكذا.

واصل عمرو تظاهره بالحمق مدعيًا نفس الادعاء، فترددت منى لحظةً ثم لم تجد أمامها سوى أن تترك ما تحمله على حقيبة السيارة وتقترب منه و... وتمسك يده..

وكان هذا هو كل ما يريده..

أن يشعر بلمساتها الرقيقة مرةً أخرى، فمنذ أن ضمدت جرحه ليلة أمس وهذا الشعور يؤرقه ويحيره..

أما هي فكانت تشعر بالكثير من الارتباك، وقد ظهر هذا واضحًا في حركات أصابعها على نحوٍ جعل عمرو يستشفه أيضًا.. وفي بطءٍ وحذر، أزالت اللاصق الطبي ثم عاودت لصقه بشكلٍ صحيح..

لم يستغرق الأمر لحظات، تركت بعدها يده على الفور وقالت وهي تعاود حمل أشياءها متحاشية النظر إليه لتخفى ارتباكها: هكذا أفضل.. أليس كذلك؟

أجابها مبتسمًا: بالتأكيد.. شكرًا لك.

هزت كتفها بمعنى أن الأمر لا يستحق..

ساد الصمت لبرهة.. ثم استجمعت منى شجاعتها وسألته: هل تأتي إلى الجامعة أحيانًا؟

أجابها بهدوء: كلا.. لكن كان هناك مؤتمرٌ طبى اليوم في كلية الطب.

أومأت برأسها متفهمة وردت بخفوت: آه.. المؤتمر.. لقد سمعت عنه.

ثم أردفت: أعتقد أنني عطلتك بما فيه الكفاية.. سأذهب، فقد اقترب موعد المحاضرة.

طالعها عمرو بصمتٍ على نحوٍ أربكها ثم أومأ برأسه متفهمًا بدوره وقال: حسنًا.. إلى اللقاء.

اللقاء!

سمرتها الكلمة وأثارت مشاعرها رغم بساطتها وتلقائيتها.. آهٍ لو يعرف كم تتمنى لقاءه في كل وقتٍ وحين!

أرادت أن ترد بشيءٍ مشابه، لكن الاضطراب الذي انتابها حال دون ذلك، فآثرت الانسحاب بسرعة..

تابعها عمرو ببصره قبل أن يفرغ صدره كله في زفرةٍ عميقة وكأنما ينفث عن بعضٍ مما احتشد داخله..

التفت إلى السيارة فلمح ما أثار دهشته..

كان قلمًا يبدو أنها قد نسيته وهي تجمع أوراقها في استعجال.. قلمًا ورديًا ذا حبرٍ لامع!

التقطه متعجبًا وأزال غطاءه وخط به خطًا صغيرًا على راحته تأمله للحظات، ثم لم يلبث أن التفت إلى حيث ابتعدت منى هاتفًا: آنسة منى.

لم تكن قد استجمعت شتاتها بعد عندما بلغها نداؤه، فالتفت بسرعةٍ ودهشة لتجده يلوح بالقلم مبتسمًا..

تضاعف اضطرابها وهي ترى هذا القلم بالذات في يده، بينما اقترب هو بخطواتٍ سريعة قائلًا: لقد نسيته على السيارة.

ابتسمت في ارتباك، بينما واصل هو اقترابه حتى أصبح أمامها يمد يده لها بالقلم..

رفعت يدها لتأخذه، لكن ما إن كادت تلمسه حتى أبعده فجأةً عن متناول يدها على نحوٍ جعلها ترفع عينيها إليه في دهشةٍ وتساؤل و...

حقًا لم تدرِ ما الذى يحدث..

ما إن رفعت عينيها إليه حتى وجدت عينيه في انتظارها على نحوٍ لم تعهده منه قط، بل وتحملان لها ما لم تعهده منه قط..

تدافع قلبها بدقاته وتلاشت دهشتها بعد لحظة.. فقط لحظة.. وتلاشى أيضًا شعورها بالزمان والمكان..

لم تشعر أنها خفضت يدها في بطء.. نسيت أصلًا أنها كانت تريد أخذ القلم!

لم تعد تشعر سوى بعينيه.. عينيه فقط!!

وأمامهما.. أطلقت عيناها كل ما يحويه قلبها من مشاعر..

كان عمرو لا يدرك حقًا لماذا فعل ذلك، ولا لماذا أبعد القلم عن يدها على هذا النحو العابث؟

كل ما كان يدركه أنه شعر بالضيق لأنها كانت تتحاشى النظر إليه مثيرةً المزيد والمزيد من حيرته..

كل ما كان يدركه أنه تمنى لو يرى تلك النظرة اللذيذة في عينيها قبل أن يذهب..

تمنى لو فهم ما الذي تعنيه بالضبط.. ولماذا يضطرب مع مرآها..

لام نفسه بشدة على هذا العبث عندما رأى دهشتها وكاد يعيد إليها القلم قائلًا شيئًا ما ساذجًا ومتظاهرًا بالبساطة..

لكنه لم يفعل!

هذا لأن دهشتها لم تستمر سوى لحظة وجد بعدها ما كان يبحث عنه ويتمناه..

وخفق قلبه..

خفق وخفق على نحوٍ جعله يدرك أخيرًا حقيقة ما يشعر به..

ولبرهةٍ لم يشعرا بمضيها، ظل كلاهما يتطلع إلى عيني الآخر في صمت، ثم لم يلبث أن مد عمرو يده وأمسك يدها في رفق.. احتواها للحظةٍ ثم رفعها ووضع القلم فيها قائلًا بخفوت:

قلمٌ جميل.

خفضت منى عينها إلى يدها الممسكة بالقلم والتي تحيطها يده ثم عادت ترفعها إليه فابتسم قائلًا: إلى اللقاء.

قالها وترك يدها بنفس الرفق، ثم التفت مبتعدًا واستقل سيارته وانطلق بها على الفور.

****

*** " غير معقول! "

تمتمت بها بسمة لنفسها في خفوت..

كانت تقف مستندةً على إحدى السيارات المتوقفة على الجهة الأخرى من الطريق والتي لم تكن تبعد كثيرًا عن المكان الذي كانت فيه سيارة عمرو منذ قليل، ترمق منى التي مازالت متسمرةً في مكانها..

كانت تدرك تمامًا ما الذي يمكن أن تشعر به منى الآن.. تدركه وتخشاه، فهي تعرف صديقتها جيدًا.. ثم إنها رأت ما حدث بعينها هذه المرة..

لقد تركت منى منذ قليلٍ وذهبت لتشتري بعض الأدوات الخاصة بالمعامل، وعندما عادت رأت عمرو يتجه نحوها فتوقفت مندهشة.. لكن دهشتها تحولت إلى ذهول وهي ترى تطور الموقف..

" غير معقول! هل من الممكن أن عمرو قد ...؟!! "

كان هذا هو السؤال الوحيد الذي ما لبث يتردد داخلها..

أما ما تمنت لو قالته لمنى فكان " يا لك من بلهاء!! "

لم تكن دهشتها مما حدث لها أمس قد فارقتها بعد، لهذا كان شعورها بالدهشة مضاعفًا.. ورغم أنها شعرت بالسرور لرؤيتهما سويًا، إلا أن شعورها بالقلق كان أكبر..

منى المجنونة هذه..

لقد نجحت بالفعل في أن تجعله يدرك وجودها.. يدركه تمامًا.. لكن تصرفه الأخير ذاك بدا محيرًا..

أمن الممكن أن يكون هذا مجرد عبث؟!

شابٌ في مثل سنه ووسامته، وفي وضعه الاجتماعي والمادي، من الصعب حقًا ألا يكون عابثًا، ومن المؤكد أن هناك الكثير من الفتيات اللاتي حاولن خطب وده ولفت انتباهه واهتمامه، وفتيات هذه الأيام بارعاتٌ في هذا.. بارعاتٌ للغاية.. ومنى لا تمثل شيئًا أمامهن..

منى التي لا تملك سوى مشاعرها الصادقة والعميقة و.. والصريحة، وتصرفاتها المجنونة التي تؤذيها بأكثر مما تفيدها، وشخصٌ مثلها لن يتحمل أبدًا أن يعبث أحد بمشاعره..

التقطت نفسًا عميقًا واتجهت نحوها، وبصوتٍ هادئٍ خافت نادتها: منى !

التفتت إليها منى ببطء، ففوجئت بالدموع المترقرقة في عينيها..

- يا لكِ من بلهاء!!

أخيرًا قالتها لها، ثم أردفت في خفوت: لم الدموع؟!

- لا أدري.

قالتها منى في خفوت مماثل..

- حسنًا.. لقد رأيت كل شيء ولا أرى لها سببًا.

- حقًا.. حقًا يا بسمة؟

أومأت بسمة برأسها إيجابًا وابتسمت قائلة: أليس من المفترض أن تكوني سعيدةً الآن.

- لست أدري.. حقًا لست أدري.. أنا مرتبكة بشدة.. لقد شعرت لأول مرةٍ بـ.... شعرت أنه....

لم تكمل عبارتها، لكن عينيها أفصحت عما تريد قوله..

صمتت بسمة لحظاتٍ تتطلع إلى عينيها المتلهفتين، ثم تنهدت وقالت: ربما.

كانت تتوقع استنكارًا عنيفًا منها، لكنها أطلقت تنهيدةً مماثلةً ولاذت بالصمت وقد ظهر بعض الحزن في عينيها..

فقالت بسمة وهي تتأبط ذراعها وتجذبها لتمشيا نحو مبنى الكلية: حسنًا.. هذا ما لديّ.

نقلت إليها الجانب القلق من أفكارها بكل تخوفاته، وقد ظلت منى صامتةً تستمع إليها ثم قالت: ولكن لماذا العبث؟ لو كان غير مهتمًا يكفيه التجاهل.. أليس كذلك؟

- ربما يكون هذا صحيحًا، ولكن.. أي رجلٍ في الدنيا يسعده بالتأكيد أن تكون هناك من تهتم لأمره بغض النظر عن مشاعره.. ومعظم تصرفاتهم تكون من منطلق " هي تحبني.. حسنًا.. فلنرَ ماذا ستفعل " .

صمتت منى للحظةٍ ثم قالت: أنتِ على حق.. منطقيٌ تمامًا كل ما تقولين.. ولكنى أشعر أنه...

قاطعتها بسمة مبتسمة: أعلم.. لن تكوني منى التي أعرفها إن لم تشعري بهذا.. أحسدك بصراحة على طاقة التفاؤل هذه التي تملكينها.. سيخسر عمرو هذا كثيرًا لو لم يحبك!!

ابتسمت منى أخيرًا وقالت: سيفعل بالتأكيد.. أنا وراءه والزمن طويل!

أطلقت بسمة ضحكةً قصيرة وقالت: هذه هي أيضًا منى التي أعرفها.

- بسمة!!

- ماذا هناك أيضًا.

- لا أريد حضور المحاضرة.

- آه.. هذا ما كنت أخشاه.. ولماذا يا حبيبتي!

- ربما...

قاطعتها بسمة ضاحكةً وهي تدفعها أمامها: هيا يا مجنونة!!

****

* ١٢ *

*** تحرك باسل في هدوء عبر أروقة المستشفى بعد أن أنهي جولته التفقدية للحالات التي يتابعها، عندما لفت انتباهه تجمع بعض الممرضات بالقرب من المصعد.. أثار الأمر فضوله فاقترب، وعندما فعل تناهى إلى مسامعه حديثهن الخافت عن مشاجرة د. عمرو مع إحداهن!!

التقى حاجباه في استغرابٍ وغمغم: عمرو؟!

كاد يتجه نحوهن ويسألهن، لكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه وقرر أن يبحث عن عمرو نفسه ويسأله..

أمام إحدى النوافذ الزجاجية الضخمة المطلة على ساحة المستشفى الخارجية وجده بعدما طال بحثه..

كان يقف واضعًا يديه في جيبي معطفه الطبي يتطلع من النافذة ويبدو عليه الشرود..

اقترب منه مناديًا إياه، لكن عمرو لم يلتفت ولم يبدو عليه أنه قد سمعه، فاقترب أكثر ووضع يده على كتفه قائلًا: عمرو!

التفت إليه عمرو وبدا عليه الشرود لحظة، ثم لم يلبث أن ابتسم وقال: أهلًا باسل.

ابتسم باسل بدوره وقال: لقد ناديتك عشر مراتٍ على الأقل ولم تسمعني.. إلى أين ذهبت؟!

عاد عمرو يتطلع من النافذة وقال: طالما قلت عشرًا فهي بالتأكيد مرةً واحدة فقط!

ضحك باسل ثم وقف بجواره ووضع يديه في جيبي معطفه هو الآخر وهو يقول: فيمَ هذا الشرود العميق يا ترى؟

أجابه عمرو ببساطة: لا شيء محدد.. وجدت أن لدي بعض الوقت بعد أن انهيت عملي ولم أجد شيئًا أفعله.

تطلع إليه باسل بنظرةٍ جانبية وعاد يبتسم.. يعرف هو جيدًا أن عمرو بالذات لا يمكن ألا يجد ما يفعله.. عبارة " وقت فراغ " هذه لا توجد في قاموسه.. لكن يبدو أن مزاجه غير رائقٍ اليوم.. ألهذا تشاجر مع الممرضة؟!

نقل إليه تساؤله، فرد مستنكرًا: أنا؟!

هز باسل كتفه وقال: هكذا سمعت.

- ممن؟

- من الممرضات.. سمعتهن يتحدثن، لكني لم أسألهن وفضلت سؤالك أنت مباشرة.

تنهد عمرو ثم قال في شيءٍ من العصبية: كل ما في الأمر أنني كنت أفحص أحد المرضى واكتشفت أن الممرضة المسئولة عنه لم تعطه علاجه في وقته وكاد هذا يسبب تدهورًا في حالته، فعنفتها قليلًا.. هل تعتبر هذه مشاجرة؟

ضحك باسل قائلًا: توقعت هذا.. لا عليك.. أنت تعرف الممرضات.. إنهن دائمًا حمقاوات ويحببن المبالغة.

لكنه كان يعلم أن الممرضات لم يبالغن كثيرًا.. الأمر نسبي تمامًا.. لو صدر هذا التصرف من طبيبٍ آخر لكان الأمر عاديًا، بل إن هذا يحدث غالبًا.. ولكن عندما يصدر من عمرو أكثر الأطباء هدوءًا ورصانة وحزمًا حتى في أثناء غضبه، فالأمر سيبدو حتمًا كمشاجرة..

- ألا ترى معي أنك تبدو مختلفًا منذ فترة؟

كان هذا ما أردف به، ليجيبه عمرو مستغربًا: مختلفًا؟! كيف؟

هز باسل كتفه وقال: منذ عدة أيام.. تحديدًا بعد المؤتمر، وأنت تبدو عصبيًا قليلًا، قليل الكلام.. ربما لا يكون هذا واضحًا ولكنك لا تبدو كما أنت دائمًا.

طالعه عمرو بصمت، فنظر باسل إلى عينيه مباشرةً وقال مفسدًا عليه أي محاولةٍ للإنكار: أنا أقرب أصدقائك وأعرفك جيدًا.

كان عمرو يدرك كم أنه على حق، فبقي على صمته لحظاتٍ أخرى عاودت خلالها عيناه النظر عبر النافذة، ثم لم يلبث أن قال مراوغًا: أنا على ما يرام تمامًا.. قليلٌ من العصبية لا يعني بالضرورة أن هناك سببًا.. ربما أكون مرهقًا بعض الشيء ولا أجد وقتًا للدراسة.. هذا كل ما في الأمر.

لم يبدُ على باسل أنه اقتنع بما قال، لكنه لم يُعقب في عرضٍ صامتٍ للاستماع إن رغب صديقه بالتحدث وإفراغ ما بداخله..

كان يتوقع أي شيء إلا أن يلتفت إليه عمرو فجأة ويقول: هل تحب البيتزا؟

طالعه بوجهٍ تجلت عليه دهشته، فغالب عمرو تردده وجداله مع نفسه ليردف: ما رأيك أن أدعوك اليوم إلى تناول البيتزا على الغداء؟

واصل باسل النظر إليه بتعجبٍ للحظات، ثم لم يلبث أن قال: ما أعرفه أنك لا تفضل البيتزا.

ابتسم عمرو وقال وهو يتأبط ذراعه ويجذبه ليسير معه: بالعكس.. أصبحت أحبها جدًا.. هيا بنا.

جاوره باسل باستسلام ولسان حاله يقول " حسنًا.. ولمَ لا "

غادرا المستشفى سويًا واستقلا سيارة عمرو..

سأله باسل وهما ينطلقان بالسيارة: إلى أين ستأخذنا؟

مرت بذهن عمرو تلك الورقة التي لمحها بين أوراق منى حينما كانت تلملمها على حقيبة سيارته.. كانت ورقة إعلانٍ ملونة عن افتتاح أحد مطاعم البيتزا في وسط المدينة.. منذ مساء أمس والأمر يداعب تفكيره بإلحاح.. بالتأكيد هي مهتمة وإلا لما احتفظت بورقة الإعلان.. أما هو فيشعر برغبةٍ عارمة في رؤيتها لدرجة أن احتمالًا ضئيلًا كاحتمال أن يلقاها هناك إن ذهب، تعاظم داخله..

التقط نفسًا عميقًا ثم قال مجيبًا صديقه: سمعت عن مطعمٍ جديد للبيتزا في وسط المدينة افتتاحه اليوم، ففكرت أن أحظى بغداءٍ مختلف بصحبتك.

ابتسم باسل وقال: حسنًا.. أظن أنني بحاجةٍ أيضًا للتغيير.

لم تمض ربع ساعة حتى وصلا إلى هناك.. بلافتة ضخمة تلفت الأنظار أدرك عمرو أن المطعم يحتل الطابق الثاني من إحدى البنايات الضخمة والتي تراصت السيارات من حولها في جميع الاتجاهات، على نحوٍ يوحي بضخامة الافتتاح..

اضطر عمرو إلى أن يبتعد قليلًا حتى وجد مكانًا مناسبًا لصف السيارة، ثم غادرها وهو يبادل باسل الحديث بذهنٍ شارد.. كانت عيناه تطوف على الوجوه من حوله، بينما يعلو بداخله صوتٌ يخبره كم هو أحمق!

لم تمضِ لحظات حتى انتصر المنطق ليقرر بعدها طرد احتمال لقائها من ذهنه.. لقد قدِم وانتهى الأمر.. سيحاول الاستمتاع بتناول البيتزا التي لا يحبها وستساعده ثرثره باسل بالتأكيد على شغل تفكيره بأمورٍ أخرى..

بخطواتٍ سريعة اتجها نحو مدخل البناية، وبينما يصعدان درجات السلم الرخامي الكبير نحو الطابق الثاني حيث المطعم، فتح عمرو موضوعًا خاصًا بالعمل، فقال باسل: أرجوك يا عمرو لا تتحدث عن العمل والمستشفى.. كفانا يا أخي.

رد عليه عمرو باسمًا: عن ماذا أتحدث إذًا؟

لوّح باسل بذراعه قائلًا: عن أي شيءٍ غير ذلك.. ألا يوجد شيءٌ آخر في هذه الدنيا يثير اهتمامك؟

رمقه عمرو بنظرةٍ جانبية وقال: بلى.

قال باسل في شغف: من؟

ضحك عمرو ضحكةً قصيرة وقال: ولمَ قلت من.. المفترض أن تقول ماذا؟

تنهد باسل قائلًا: حسنًا.. ماذا؟

ثم أكمل بلهجةٍ عابثة قاصدًا استفزازه: أهي الرسائل ذات المشابك مثلًا؟

رآه باسل يبتسم على عكس ما توقع ويهم بقول شيء ما، لكنه تسمر فجأةً وهو ينظر إلى ما أمامه..

كانت درجات السلم الرخامي الفخم ملتفة بشكلٍ شبه دائري كنوعٍ من الديكور.. وعندما ألقى باسل عبارته الأخيرة كانا في بداية آخر هذه الالتفاتات والتي امتدت درجات السلم أمامها على نحوٍ مستقيم حتى مدخل المطعم..

التفت باسل بتلقائيةٍ إلى حيث ينظر، فوجد مجموعةً من الفتيات يخرجن من المطعم..

عاد بصره إلى عمرو ليُفاجأ بابتسامةٍ غريبة يصحبها تعبيرٌ أغرب لم يره على وجهه من قبل..

وقبل أن يُفصح عن دهشته بتساؤل، تحولت تلك الدهشة إلى ذهول وهو يرى ما يحدث أمامه..

****

*** لوهلة.. لم يصدق أنه يراها..

أمعقولٌ أن استنتاجه كان صحيحًا والاحتمال الضئيل صار واقعًا !

واقعًا منحه بسخاء بضع لحظاتٍ كان بحاجتها !

لم يدرِ لمَ توقف، ولا متى نسيَ وجود باسل..

فقط شعر بقلبه الذي اختلج واضطرب..

شعر بسيلٍ من الانفعالات يتسرب من داخله ولا يدري كيف!

ودون أن يشعر ابتسم..

كانت تغادر المطعم مع مجموعةٍ من الفتيات اللاتي سبقنها بهبوط الدرج، بينما كانت منشغلةً بالحديث مع إحداهن..

اتسعت ابتسامته مع ضحكةٍ خافتة أطلقتها وهي تبدأ في الهبوط بينما لا تزال تنظر إلى زميلتها التي وقفت أمام باب المطعم الزجاجي تضع شيئًا ما في حقيبتها..

همّ بمواصلة الصعود ليصبح في مواجهتها تمامًا وقد انتابته فجأة رغبةٌ شديدة في رؤية تعبير وجهها حينما تراه، لكنه فوجئ بها تتعثر على أولى درجات السلم وتلتوي قدمها بذلك الحذاء ذو الكعب العالي الذي ترتديه، وقد جعلها هذا تنظر إلى أمامها مرغمةً وهي تحاول استعادة توازنها..

عندها رأته..

توقفت عيناها عنده وتألقت بما أدمن أن يراه، يصحبه قدرٌ هائل من الدهشة والارتباك جعل قدمها الأخرى تلتوى وتدوس على طرف ثوبها الطويل على نحوٍ جعلها تفقد توازنها أكثر بدلًا من أن تستعيده..

وأمام عينيه، كبّل ثوبها الذي داست عليه حركة قدمها وفقدت توازنها تمامًا، وهوت بثقلها كله نحو درجات السلم وهي تشهق شهقةً قوية وزميلتها تهتف في هلع: منى!

هو أيضًا هتف باسمها، لكن هتافه لم يتجاوز داخله وهو يندفع نحوها متخطيًا درجات السلم التي تفصله عنها بقفزةٍ واحدة..

وكان الارتطام قويًا..

لكن به هو، بعدما اعترض طريق سقوطها بجسده..

كاد يدفعه ذلك إلى الوراء ويسقطه معها، إلا أنه تحمل وحافظ على اتزانه بصعوبة، ثم اعتدل وهو يمسك كتفيها في قوة..

كان من حولهما يتنفسون الصعداء وهم يرونه ينفذها من اصطدامٍ محقق لم تكن بالتأكيد لتخرج منه دون أذى.. أما هما، فكانا في قمة انفعالهما ولا يشعران حقًا بمن حولهما..

لحظةٌ مرت، تعالى فيها ضجيج خفقات القلوب عاليًا في محاولةٍ منهما لاستيعاب هذا الاجتياح المفاجئ من الانفعال.. وفي اللحظة التالية، كانت تعتمد بذراعيها على صدره محاولة تحرير قدميها اللتين مازالتا على وضعهما المعقد حتى تستطيع الوقوف والابتعاد عنه قبل أن يخذلها قلبها ويتوقف للأبد!!

مدركًا محاولتها تلك، ترك عمرو كتفيها وأحاطها بذراعيه ورفعها قليلًا حتى استطاعت الوقوف بالفعل، لكنه لم يكن يدرك أن مساعدته تلك ستجعله يضمها أكثر وستثير مشاعره بهذه القوة..

أما هي، فما إن استطاعت الوقوف على قدميها حتى أبعدت رأسها عن صدره ليطالعه وجهها الذي احمّر جدًا.. احمّر بشدة.. وقد تهدلت خصلةٌ من شعرها على جبهتها من أثر ارتطامها به..

وزاد هذا الأمر سوءًا بالنسبة له..

حقًا.. أراد أن يتفوه بأي شيء..

هل أنتِ بخير؟ هل أصابك مكروه؟ احترسي..

أي شيءٍ يصلح لأن يقال، لكنه لم يستطع..

حقًا.. أراد أن يبعد ذراعيه عنها، بل بذل مجهودًا ليفعل.. لكنه أيضًا لم يستطع..

فقط تعلقت عيناه بعينيها مستمتعًا بشدة بما يراه فيهما وقد اصطبغ بخجلٍ شديد.. لذيذ!

ثم جالت في وجهها كله..

تتأملان ملامحها بأدق تفاصيلها وهي بعد سنتيمترات..

تتأملان خصلة شعرها السوداء التي تلوت بنعومة على جبهتها المتوردة كباقي وجهها خجلًا..

كل هذا جعله - ودون فعلًا أن يشعر - يخفض عينيه إلى شفتيها الحمراوين وذراعاه تضمها أكثر و...

واستعاد سيطرته على نفسه فجأة وأبعد ذراعيه عنها على الفور، في نفس الوقت الذي دفعت هي يديها في صدره مبتعدةً عنه، واندفعت تهبط درجات السلم في سرعة على الرغم من أن قدميها مازالت تؤلمها من أثر الالتواء.. كادت تتعثر ثانيةً، إلا أنها استعادت توازنها هذه المرة واستمرت في هبوطها دون حتى أن تجرؤ على النظر خلفها..

التفت عمرو يتابعها ببصره حتى اختفت، وظل صامتًا واقفًا حيث هو للحظات التقط خلالها نفسًا عميقًا ومرر أصابعه في شعره، ثم أمسك جبهته وكأنه يقول لنفسه " ما الذي فعلته يا أحمق!! "

لم يستغرق الأمر كله ثوانٍ معدودة، ولم ينتبه إليه أحدٌ سوى اثنين..

باسل الذي يقف عند بداية درجات السلم، وزميلة منى التي تقف عن نهايتها والتي لم تكن سوى بسمة..

هما فقط اللذان فهما وأدركا ما حدث..

كانت بسمة مندهشةً بشدة من الصدفة ومما حدث، بل ومن انفعالات عمرو والتي بدت واضحةً للغاية..

أما باسل فكان مذهولًا، وأخذ يتطلع إلى عمرو وكأنما يشك في أن هذا هو عمرو صديقه الذي يعرفه منذ سنواتٍ طويلة!

كانت بسمة أول من تحرك.. هبطت درجات السلم في هدوء وهي ترمق عمرو بنظرةٍ جانبية تكاد تخترقه، لكنه لم ينتبه إليها مطلقًا، ثم تجاوزته لتلحق بمنى سريعًا، في حين صعد

باسل إلى حيث وقف عمرو وجذبه معه ليكملا صعودهما سويًا ويدخلا المطعم حيث انتقيا مكانًا هادئًا وجلسا..

كان عمرو مازال مرتبكًا وتحاشى النظر إلى باسل تمامًا، لكن باسل لم يمهله، فلم يكد يستقر في مقعده حتى قال: عمرو.

زفر عمرو في عمقٍ وقال: حسنًا.. حسنًا.. هيا أمطرني بسيل أسئلتك الفضولية.. أنا مستعد.

ابتسم باسل وقال: ولمَ السؤال وقد تكفل وجهك بالإفصاح عن كل خباياك وجعلني أدرك كل شيء.

ثم أمسك يده وصافحها مكملًا: تهانيَّ يا صديقي العزيز.. " congratulation "!!

ثم تراجع في مقعده أمام عينيه المندهشتين وتنهد قائلًا: أخيرًا اطمأننت عليك وعلى مستقبلك وتأكدت تمامًا من أن هذا الشيء الذي يصاب به كل الناس قد تسرب إليك أخيرًا و...

قاطعه عمرو قائلًا: مهلًا.. مهلًا.

صمت باسل وطالعه محتفظًا بابتسامته، فزفر عمرو مرةً أخرى ثم استند بذقنه على قبضته المضمومة وقال: ما هذا الذي أدركته؟

- أنها ليست أي فتاة.. أظنها الفتاة عابرة الطريق الشاردة التي شغلت بالك حتى أصبح لها وضعٌ خاصٌ جدًا بالنسبة لك.. فلنقل مثلًا...

صمت لحظةً ثم أكمل وهو ينظر إلى عينيه مباشرة: أنك تحبها؟

كان يتوقع استنكارًا وتهربًا من الإجابة كالمعتاد، لكن عمرو عاد يمرر أصابعه في شعره ثم قال: هل بدا هذا واضحًا إلى هذا الحد؟!

ارتفع حاجبا باسل دهشةً من هذا الاعتراف الصريح غير المتوقع، ثم لم يلبث أن ابتسم وقال: جدًا.

تطلع إليه عمرو بصمت، ثم مطّ شفتيه قائلًا: يا لي من أحمق!

أومأ باسل برأسه إيجابًا مؤيدًا قوله، ثم أضاف بلهجته العابثة: بل وتفقد السيطرة أيضًا أيها الرزين.

أشاح عمرو بوجهه شاعرًا بالإحراج، فلم يتمالك باسل نفسه من الضحك..

نظر إليه عمرو شزرًا وقال بحدة: هلّا كففت عن استفزازي!

أطبق باسل شفتيه يكتم ضحكاته بصعوبة، فلاذ عمرو بالصمت لحظات، ثم قال بخفوت: حقًا لم أكن أشعر بما أفعل.

كف باسل عن الضحك وقد أحس أن عمرو يشعر بالفعل بارتباكٍ حقيقي، وبخفوتٍ مماثل قال: أتحبها إلى هذا الحد؟

عاد عمرو يصمت للحظات أخرى قبل أن يجيبه: لا أدري.. لم أعد أعرف أي شيء!

أشار باسل بيده وقال في ثقة: الحيرة جزءٌ لا يتجزأ من الحب يا صاحبي.. أنا أعذرك بصراحة فهي جميلةٌ جدًا.

التقى حاجبا عمرو ورفع سبابته في وجه باسل محذرًا: باسل.

ضحك باسل وقال: وتغار أيضًا.. هذا رائع.

ثم أضاف في شغف: ولكن قل لي.. متى تطور الأمر هكذا وكيف؟

عاد عمرو يستند بذقنه على قبضته المضمومة وقال في حيرة: لا أعرف.

طالعه باسل بصمتٍ مندهش، فأردف: حقًا لا أعرف.. أنا أراها دائمًا صدفة، ولا أعرف عنها سوى اسمها وأنها طالبة صيدلة.. في عامها الدراسي الأخير.

ثم تراجع في مقعده بينما ابتسامةٌ تسلل إلى شفتيه وهو يكمل: وأنها جميلةٌ ورقيقةٌ للغاية وتخاف من كل شيء.

لم ينبس باسل ببنت شفة وتركه ليخرج كل ما بداخله، في حين أكمل عمرو: دائمًا تتصرف بتلقائيةٍ وبساطة وبلا تكلف، بينما تحمل عيناها نظرةً جذابة غامضة تثير حيرتي.. أشعر بها تنفذ داخلي.. تخترقني.. وتجذبني إليها.. حينما تبدو في عينيها لا أعرف ما الذي يحدث لي بالضبط.. كل شيءٍ داخلي يرتبك دون أن أفهم لذلك سببًا.. تعرف أني تعودت أن أرى الإعجاب في نظرات معظم من أتعامل معهم من الفتيات.. بعضه حقيقيٌ والآخر مصطنع، لكني أعرفه جيدًا وأميزه.. أعرف كذلك النظرات التي تحاول لفت الانتباه.

هز باسل رأسه بمعنى " أعلم بالطبع.. وسيمٌ وتستحق! "، لكن عمرو لم ينتبه إليه وتابع حديثه: كل ذلك أفهمه.. أفهمه جيدًا ولا يثير اهتمامي البتة ولكن.. ولكن هذه ليست كذلك.. نظراتها هذه بالذات ليست كذلك.. أشعر بها تحمل شيئًا أكثر عمقًا يحرك مشاعري ولا أفهم ما هو!

كاد باسل يقاطعه: لأنك بالفعل أحمق!

لكنه أثر الصمت حتى ينتهي عمرو الذي صمت قليلًا ثم قال: شعرت بها بعد ذلك تبدي اهتمامًا ملحوظًا بي جعل كل مقاومتي تنهار.

ثم تنهد مستطردًا: وأخيرًا وجدت نفسي هكذا.. أشرد أفكر فيها.. وأسهر أفكر فيها.. وأنام أحلم بها.. وكل هذه الأشياء التي كنت أعتقد أنها لا تحدث سوى في الأفلام.. ثم أنني لم أعد أستطيع التركيز لا في عملي ولا في دراستي وكأنى أتوقع أن أراها في أي لحظة.. هل تعلم.. لقد كنت ساهرًا بالأمس أقرأ في بعض المراجع لكني في الواقع أمضيت ساعتين في صفحة واحدة!!

عادت تتفلت من باسل ضحكاته.. رمقه عمرو بنظرة عتاب، فقال بسرعة: آسف.. آسف ولكن، كان هذا آخر شيءٍ توقعت أن يحدث لك.

ثم استطرد: لكن قل لي.. ماذا عنها؟

رد عمرو قائلًا: قلت لك أنك تبدي اهتمامًا ملحوظًا بي أحسسته أكثر من مرة، إلا أنني لست متأكدًا من أنها...

قاطعه باسل في غيظ: لست متأكدًا؟ أرجوك لا تثير غيظي.

نظر إليه عمرو بتساؤلٍ وقال: ماذا تعني؟

- أنت أحمقٌ بالفعل.. من الواضح تمامًا أنها تُكن لك المشاعر منذ البداية.. وكل ما تراه أنت غموضًا يجذبك إليها هو مشاعرها التي تحاول إيصالها إليك أو ربما هي تصدر منها دون أن تشعر.

بدهشةٍ قال عمرو: وما الذي يجعلك متأكدًا هكذا أيها العبقري؟

ابتسم باسل ومال عليه قائلًا بخفوت: أي شخصٍ أبله رأى وجهها اليوم، سيدرك تمامًا أنها تحبك.. ثم إنه بدا واضحًا للغاية أنك أنت سبب تعثرها على الدرج.. لقد ارتبكت بشدة عندما فوجئت برؤيتك.

تراجع عمرو في مقعده شاعرًا بقلبه يخفق في قوة وعقله يسترجع لحظاتٍ متفرقة من وجودها معه..

هل هذا معقول؟!

أمن الممكن أنها ... ؟!

ولكن..

ولكن كيف ومتى؟

هذا ليس منطقيًا.. باسل يبالغ قليلًا.. ربما...

قطع أفكاره صوت باسل يتساءل: ألها علاقةٌ بالرسائل ذات المشابك؟

هز عمرو رأسه نافيًا وقال: كلا.. كلا.. هذا شيءٌ آخر تمامًا.. والآن أرجوك.. دعنا لا نتحدث في هذا الأمر أكثر من هذا.. لقد تعبت فعلًا.

- لك هذا.. خذ هذه وقرر أي نوعٍ تفضل.

التقط عمرو قائمة الطعام وبدأ يبتعد بالحديث تمامًا عن منى، وقد احترم باسل رغبته ولم يعود إليه ثانيةً..

و رغم ذلك، لم يكف عمرو عن سؤال نفسه..

هل من الممكن حقًا أن يكون ما يظنه باسل صحيحًا وأنها ....

****

* ١٣ *

*** انتبهت منى على صوت إحدى زميلاتها تناديها، فالتفتت متسائلة لتجدها تبتسم وتقول مشيرةً إلى ما أمامها: لقد مات الفأر منذ زمن.

نظرت منى إلى الفأر الملقى أمامها على منضدة المعمل والتقى حاجباها في ضيق.. كانت تعلم أنه سوف يموت فقد حقنته بمادةٍ توقف قدرته على التنفس، لكنها شردت تمامًا ولم تنتبه إلى الأعراض التي تظهر عليه قبل موته والتي كانت موضوع الدراسة وأساس التجربة!

تنهدت في عمق وقالت لزميلتها مازحة: فأرٌ قصير نفَسه!

ضحكت زميلتها وقالت: إذًا فقد مات والذنب ذنبه!

ثم أشارت إلى قفص الفئران في نهاية المعمل قائلة: مازال هناك فأرًا متبقيًا.. فلتحاولي مرةً أخرى.

تطلعت منى إلى الفأر الضخم المتبقي في القفص وقالت: ما هذا.. إنه يبدو شرسًا.

ثم تلفتت حولها تبحث بعينها عن بسمة قائلة: سأبحث عن حلٍ أسهل.

فوجئت بسمة تقول من خلفها: هكذا إذًا.

التفتت إليها منى مبتسمةً وهزت كتفها بمعنى " وماذا أفعل؟ " فعادت تقول: حسنًا.. فأري لم يمت بعد.. تعالي.

تبعتها منى إلى حيث تقف وهي تقول: وا بسمتي العزيزة.. لست أدري ماذا كنت سأفعل بدونك.

ضحكت بسمة وقالت: حاولي التركيز قليلًا إذًا فلا توجد فئرانٌ أخرى سوى هذا المتوحش المنتظر بالقفص.

راقبتا الفأر سويًا حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، ثم انهمكتا في تدوين الملاحظات.. وبينما هما كذلك، تأملتها بسمة وذهنها يعود إلى الوراء بضعة أيام.. إلى يوم افتتاح مطعم البيتزا تحديدًا..

لقد شعرت وهي تراها عند نهاية الدرج تنتظرها وعلى وجهها أعقد مزيجٍ ممكن من المشاعر وقد تجمعت فيه دماء جسدها كله تقريبًا، أن اتفاقهن المسبق مع باقي الصديقات لتناول الغداء يوم افتتاح المطعم، كان من أجل أن تذهب هي بالذات فقط لتقع بين ذراعي فارسها الوسيم!!

حينها، لم تتحدث كلتاهما.. عادتا سويًا يومها دون أن تتبادلا كلمةً واحدة تخص الأمر..

كانت تعلم أن منى تخشى الحديث فالانفجار، ثم أنها كانت تدرك كل شيءٍ دون الحاجة إلى سماعه، لكنها وبعد مرور بضعة أيام باتت بحاجةٍ إلى الاطمئنان.. لذا سألتها بغتة: كيف حالك الآن؟

فهمت منى ما تقصده على الفور فقالت بعد تنهيدةٍ حارة: بخير.

ثم أردفت: هذا إذا اعتبرنا الأرق شيئًا عاديًا!

أطلقت بسمة ضحكةً خافتة وقالت مازحة: هوني عليك.

ابتسمت منى وقالت: هذا لا يضايقني على الإطلاق، أنا سعيدةٌ به!

- لماذا لا أراك كذلك إذًا ؟

- لأنى متعبة.. مرهقة.. ولا أعرف ماذا أفعل.. قلبي يشعر بشيءٍ متأكدٌ منه تمامًا، وعقلي يخاف التصديق.. لكن هذا لا ينفي شعوري بالسعادة.. بل على العكس، أجد هذا لذيذًا.

- مجنونة!

ردت منى ضاحكة: هذا ليس جديدًا.

حارت بسمة في البحث عن مصطلحٍ أقوى من الجنون لتصفها به دون جدوى، فهزت رأسها في استسلامٍ ولاذت بالصمت!

****

*** أضاء عمرو أنوار حجرة مكتبه ودلف ليجلس على مقعدٍ جانبي وثير بعدما التقط مرجعًا ضخمًا..

ألقى نظرةً ساخطة على ساعته، ثم التقط نفسًا عميقًا وفتح كتابه بادئًا المطالعة..

لم يكن في مزاجٍ رائق للدراسة، لكنه لم يجد شيئًا آخر يفعله عندما فشل في النوم!

لم يكن ممن يعانون الأرق إلا فيما ندر، لكن أنّى له أن يصرفه عنه الآن وأشياءٌ كثيرة تشغل تفكيره.. تحيره.. وتطير النوم بعيدًا..

وكل هذه الأشياء تدور وتصول وتجول في فلك نجمٍ صغير يضيء قلبه..

هي..

تحرك بصره على الكلمات والسطور دون تركيزٍ حقيقي، وكان يدرك ذلك فتساءل بحيرة..

ما الذي حدث له؟!

كيف أصبح هكذا؟!

كيف احتلت كيانه إلى هذا الحد؟!

هل حقًا ما يشعر به الآن هو حبها؟!

وإن لم يكن يحبها، فلِمَ يخفق قلبه بهذه الصورة وتثور مشاعره ليس فقط عندما يراها، بل حتى عندما تطوف بتفكيره ولو للحظة؟!

لماذا يكون وجهها أول شيءٍ يراه عندما يغمض عينيه؟!

حينها يكتشف أن هناك ابتسامةً لا يدري بالضبط متى ارتسمت على شفتيه!

كان في البداية يشعر بالضيق من نفسه ويحاول الهرب من أفكاره..

أما الآن، فلم يعد يقاوم..

لقد استسلم عقله تمامًا لقلبه ومشاعره، ولكم أشعره هذا بالارتياح..

وإن كان أحبها، فمتى فعل؟!

لا يدري.. لقد التقاها مراتٍ قليلة، وفي كلٍ كان هناك شيءٌ ما يحدث في أعماقه..

شيءٌ بدأ صغيرًا، فلم يشعر به.. نما، فتجاهله.. زاد يعلن عن وجوده، فلم يستطع التجاهل

لكنه لم يفهمه.. فقط مشاعر مبهمة لا تترك له سوى الحيرة..

كبر وتعاظم ولا يدري كيف، حتى احتل قلبه كله الذي أدرك وخفق مستسلمًا..

لكن الحيرة لم تتلاشَ.. مازال لا يعلم عنها أي شيء..

مازال لا يعلم حقيقة مشاعرها تجاهه..

ترى.. هل تحبه حقًا كما قال باسل ؟!

أحيانًا يشعر أن افتراضه منطقيٌ جدًا، وأحيانًا يشعر بأنه واهٍ لا أساس له من الصحة..

أحيانًا يريد أن يصدقه، وأحيانًا يشعر بأنه ساذج..

ترى.. ما الذي تحمله له عيناها؟!

ذلك الكم الهائل من الغموض والعمق و...

والجاذبية..

ذلك المزيج الساحر الآسر الذي لم يستطع قلبه أن يقاومه كثيرًا..

لا يعرف..

ما يعرفه فقط أنه فعلًا.. يحبها!!

يحب عينيها..

يحب رقتها وملامحها..

يحب صوتها وضحكتها..

يحب خجلها وارتباكها..

يحب وجودها معه..

يحب اهتمامها به..

يحب كل شيء.. كل شيء..

يحبها!!

لقد أدرك مشاعره هذه فجأةً يوم رآها في الجامعة..

أدرك أن هذا الكيان الرقيق الذي يقف بجواره ويحادثه ليس كأي شيءٍ قابله في حياته كلها..

ثم تأكد منها تمامًا يوم رآها في المطعم..

لم يعد يهمه كيف وجِدت بين ذراعيه، لكنه أدرك أن هذا الكيان أرق مما تصور بكثير.. أجمل مما تصور بكثير.. ومشاعره هو تجاهه أكبر مما تخيل بكثير حتى كادت تنفلت من سيطرته..

التقى حاجباه بانفعالٍ وهذه اللحظات بالذات تمر بعقله، فتحركت يده تقلب صفحاتٍ من الكتاب لم يقرأها أصلًا محاولًا التركيز ولكن.. عبثًا..

كم يتمنى أن يراها الآن..

بل كم يتوق شوقًا إلى أن يراها الآن..

آه.. لقد بدأ يستخدم كلماتٍ جديدة عليه تمامًا لم يكن يتصور قط أن تقتحم قاموسه..

بل لم يكن يدرك أنه لم يعرف معناها حقًا سوى الآن..

أدرك أيضا أن هذا سيجعله يفعل أشياء غريبة لم يكن ليتخيل قط أن يفعلها..

ترى.. كيف يجدها.. وأين؟

هل ينتظر صدفةً أخرى؟ حسنًا.. ولكن ماذا لو لم تحدث قريبًا؟

لا.. لن ينتظر.. لقد مضت أيامٌ عدة ولم يعد يحتمل..

أيبحث عنها؟ لا يوجد سوى مكانٍ وحيد من الممكن أن يجدها فيه.. الجامعة!

مط شفتيه في هذه اللحظة وغمغم قائلًا لنفسه: ها قد بدأت أتصرف كالمراهقين!!

ابتلعه الصمت والتفكير لبرهة، ابتسم بعدها وقال: لا بأس.. سأذهب.

وكان هذا هو قراره..

لا يدري إن كان سيجدها أم لا، وبماذا سيحدثها عندما يراها..

لا يدري كيف يعرف حقيقة مشاعرها، ولا كيف سيخبرها هو بمشاعره..

لا يدري إن كان يستطيع حقًا فعل ذلك أم لا..

ولكن.. لا بأس.. سيؤجل التفكير في كل هذا لما بعد..

غدًا الجمعة.. حسنًا يوم السبت وليكن ما يكون..

ارتاح قلبه لهذا القرار وهدأ..

وأخيرًا.. استطاع قراءة شيءٍ ما في الكتاب الذي يحمله..

لم يكن يعرف أنه في هذه اللحظة بالذات، تلقى فتاته التي كان يفكر فيها برسالةٍ ثالثة تقول له فيها أيضًا..

"أحبك"

****

*** استيقظ عمرو في اليوم التالي من نومه مبكرًا كعادته، ولكنه ظل راقدًا في فراشه متكاسلًا بعض الوقت فقط ليُشعر نفسه بأن اليوم عطلة ومتمنيًا ألا يأتيه استدعاءٌ عاجل من المستشفى كما يحدث غالبًا..

كان لا يتريض يوم الجمعة عادةً، ومن ثم تناول إفطارًا خفيفًا وأمضى الوقت في القراءة في بعض المراجع الطبية حتى حان وقت الصلاة..

لم يكن آذان الجمعة قد انطلق بعد عندما خرج متأنقًا في جلبابٍ أبيض فاخر قاصدًا المسجد والذي لم يكن يبعد كثيرًا عن المنزل، لهذا اتجه إليه ماشيًا..

طبعًا ما إن خرج حتى لمح الورقة ذات المشبك الأحمر على سيارته، فابتسم وهو يلتقطها قائلًا: آه.. لقد مضى وقتٌ طويل.. لقد افتقدتك.

أودعها جيبه في تلقائية دون حتى أن يفتحها مغمغمًا: أخشى أنه لم يعد هناك جدوى من ذلك.

واصل طريقه في هدوء وتقابل أثناء ذلك مع اثنين من جيرانه في المنطقة تبادل معهم برالحديث في ودٍ حتى بلغوا المسجد..

كانت علاقته جيدةً جدًا بكل من عرفهم من جيرانه، وبدا هذا واضحًا والكل يتجمع بعد الصلاة يتبادلون الحديث ويتساءلون عن أحوال بعضهم البعض، ولا يخلو الأمر بالطبع من الكثير من الاستشارات الطبية..

وفي طريق عودته، كان برفقته أحد هؤلاء الجيران.. مهندسٌ يدعى الأستاذ محمد، يسكن في البناية المواجهة لمنزله وكان يكبره سنًا بكثير، لكنهما كانا متفاهمان إلى حدٍ كبير وتجمعهما أحيانًا الكثير من الأحاديث..

كانا يمران بجوار هذه البناية أثناء سيرهما ولكن ليس من ناحية الطريق بل من الناحية الخلفية.. وبينما يسأله م. محمد عن موضوع رسالة الدكتوراه التي ينوي الحصول عليها،

داست قدمه شيئًا ما تكسر بصوتٍ مسموع، فنظر إلى الأرض بانزعاجٍ وانحنى يلتقط هذا الشيء، ثم اعتدل ورفع بصره إلى الأعلى وكأنما يحاول معرفة من أين سقط..

تطلع عمرو في دهشة إلى مشبك الغسيل الأحمر المكسور في يده، بينما ابتسم هو وقال: منى هذه.. لا تكف عن إسقاط مشابك الغسيل كلما حاولت مساعدة أمها!

بدا على عمرو التساؤل فأكمل م. محمد بنفس الابتسامة: إنها ابنتي.. ابنتي الوحيدة.. الشقية والمتعبة.

ابتسم عمرو بدوره وقال: مازال أمام الفتيات الصغيرات الكثير ليتعلمنه.. سيأتي حتمًا يومٌ تكف فيه عن إسقاط المشابك.. لا تقلق.

ضحك م. محمد قائلًا: إنها ليست صغيرةً للأسف وهذا ما يقلقني فعلًا.. لن تصدق إن أخبرتك أنها سوف تتخرج من كلية الصيدلة هذا العام.

ارتفع حاجبا عمرو دهشةً وقال: حقًا؟!

أومأ م. محمد برأسه إيجابًا وقال وهو يواصل سيره: أجل.

عاد عمرو يسير إلى جواره وظل صامتًا لحظات، ثم قال: ولكن قل لي يا م. محمد.. ما حكاية هذه المشابك الحمراء.. هل هي منتشرةً إلى هذا الحد؟ أنا لا أرى سواها هذه الأيام!

قال م. محمد ضاحكًا: كلا مطلقًا.. إنها أيضًا ابنتي منى.. تصر على شراء تلك الأشياء الغريبة ولا أدري لماذا.. إنها تحب اللون الأحمر ولا أعرف ما علاقة مشابك الغسيل بالأمر صدقني.

طالعه عمرو بصمت وهاجسٌ ما يتحرك داخله لكنه تجاهله، بينما تابع م. محمد: إنها حتى تحتفظ ببعض هذه المشابك في غرفتها.. يبدو أنها تلعب بها فهي طفوليةٌ بعض الشيء، لأن والدتها لا تستخدم نافذة حجرتها لتجفيف الملابس مطلقًا.

كانا في هذه اللحظة أمام واجهة البناية وقد قال م. محمد الجزء الأخير من عبارته وهو يشير إلى الأعلى، إلى نافذة الطابق الثاني المواجهة تمامًا لمنزله..

انعقد حاجبا عمرو وهو يرفع بصره إلى النافذة بدوره.. أحس ببعض التوتر وذلك الهاجس ينمو في داخله أكثر.. حاول تجاهله مرةً أخرى، لكنه وجد نفسه يلتقط المشبك الذي وجده على سيارته منذ قليلٍ من جيبه - بدون الورقة طبعًا - ويريه لـ م. محمد قائلًا بهدوءٍ وبساطةٍ مصطنعة: أرأيت هذا؟

بدا م. محمد مندهشًا وهو يرفع يده بالمشبك المكسور ثم قال: إنه يشبهه تمامًا.. أهو يخصك؟ ولماذا تضعه في جيبك؟!

حرك عمرو رأسه نافيًا في بطءٍ وقال: كلا.. لقد وجدته وأنا في طريقي للمسجد.. وجدته على... أقصد وجدته هنا أمام البناية أيضًا.

عاد م. محمد يضحك قائلًا: إذًا فهو مشبكنا حتمًا!

ناوله عمرو المشبك وهو يحافظ على ابتسامته البسيطة مخفيًا عشرات الأفكار التي ثارت داخله..

ماذا يحدث؟!

هل من الممكن أن ... ؟!

" أبـــــي "

انطلقت هذه الكلمة فجأة مقاطعةً أفكاره يحملها صوتٌ مألوف.. مألوفٌ جدًا..

صوتٌ تعرفه أذناه جيدًا..

صوتٌ قفز بخفقات قلبه بغتةً إلى الذروة وأصابه بقدرٍ هائل من الدهشة جعله يتسمر في مكانه، بينما رفع م. محمد بصره لأعلى وقال في بساطة مخاطبًا قائلة العبارة: ماذا هناك عزيزتي؟

- اتصالٌ مهم على هاتفك يُلح منذ فترة.

- أنا قادمٌ خلال لحظات.

طبقًا للذوق العام، لم يكن من اللائق أن ينظر عمرو إلى الأعلى هو الأخر، لكن تفكير عمرو لحظتها كان أبعد ما يكون عن ذلك.. لقد كان مشغولًا بأمرٍ واحدٍ فقط..

أمرٌ جعله يخرج من تسمره ويتقدم خطوةً للأمام ليصبح بجوار م. محمد وينظر إلى الأعلى ليرى ما يتوقعه ويخشاه..

وجهها!!

وعلى الرغم منه، ارتفع حاجباه في دهشةٍ بالغة..

كانت تطل برأسها ناظرةً إلى أسفل عبر فرجةٍ ضيقة من النافذة بحيث لا يراها المار، بل الواقف أسفل النافذة فحسب..

لم يكن في مجال رؤيتها في البداية سوى والدها الذي ما إن رد عليها حتى قالت: حسنًا.

همت بالانسحاب إلى الداخل عندما اقتحم عمرو هذا المجال بغتة..

وفي نفس اللحظة، وقع بصر كلٍ منهما على الآخر واجتاحته وطأة المفاجأة..

اتسعت عينا منى في ذهول، وزادت من فرجة النافذة التي تنظر من خلالها وكأنما تتأكد من أنها لا تتوهم الأمر، ثم لم تلبث أن أدركت أن هذا الواقف بالأسفل مع والدها والذي ينظر إليها وعلى وجهه أقوى علامات الدهشة هو عمرو فعلًا!!

شهقت شهقةً خافتة وتراجعت على الفور مغلقةً النافذة، ثم شعرت أن قدميها لا تقويان على حملها فتهاوت على أقرب مقعد وهي تغطي فمها بكفها وخفقات قلبها تصل لحدٍ جدير بشخصٍ يمسك بسلكٍ كهربيٍّ عارٍ!

أما عمرو، فكانت دهشته أقوى.. أقوى بكثير..

ليست قويةً فحسب.. بل قاسية!!

أنتِ .. هنا؟!!

هنا أمامي من دون كل أماكن الدنيا؟!!

وأنتِ هي صاحبة الرسائل ؟!!

ترددت تلك العبارات داخله وهو ينظر إليها ذاهلًا دون أن ينبس ببنت شفة..

ثم إن الأمر لم يقتصر على هذا فحسب، فإلى جانب دهشته كان هناك انفعالٌ آخر..

انفعالٌ لا يقل قوةً ولا وطأةً على قلبه..

هذا لأن وجهها الذي رآه الآن ليس كأي مرةٍ رآه فيها من قبل، فقد زاد عليه شيءٌ مهم للغاية..

شعرها!

شعرها الأسود.. الناعم.. الطويل.. تمامًا كما تخيله.. لكنه لم يتخيل أبدًا أنه من الممكن أن يزيد جمالها إلى هذا الحد، وقد انسدل متموجًا في نعومة حول وجهها بلا نظام وعلى نحوٍ جعلها تبدو حقًا.. فاتنة..

كان م. محمد ينظر لساعته في تلك اللحظات فلم ينتبه لشيء، لكنه أمسك يد عمرو في حماسٍ وقال: هيا يا د. عمرو.. لتتناول الغداء معنا اليوم.. تفضل.

التقط عمرو نفسًا عميقًا ومرر أصابعه في شعره مطلقًا إياه في زفيرٍ أكثر عمقًا ثم قال بابتسامةٍ باهتة: أشكرك يا م. محمد.. أشكرك كثيرًا.. لكن اعذرني.

لم يتخل م. محمد عن يده وقال: ليست هذه دعوةً عابرة.. أنا جاد.. هيا تفضل معي.

- أشكرك حقًا.. ربما فيما بعد.. فلدي ارتباطاتٌ كثيرة اليوم.

صافحه م. محمد في قوة قائلًا: حسنًا.. أنا في انتظار فرصةٍ أخرى إن شاء الله.

تركه م. محمد واتجه إلى داخل النيابة مسرعًا ليلحق باتصاله، في حين عبر عمرو الشارع في خطواتٍ بطيئة ثم توقف بجوار سيارته و... والتفتت..

كان يمر بحالةٍ غريبة من الانفعال لم يشعر بمثلها من قبل قط.. قلبه يخفق في اضطراب، بينما يتدافع قدرٌ هائل من الأفكار والأحداث والعبارات في عقله على نحوٍ أصابه بالصداع..

" أهذا المنزل لك أيضًا؟ "

" أنا لا أتريض يوميًا كما تفعل "

" منزلي ليس بعيدًا "

القلم الوردي..

رفضها لأن يقلها بالسيارة لأي مكان..

كل هذا ما لبث أن تراص وانتظم ليكون له صورةً واضحة وحقيقةً واحدة..

حقيقةٌ أحنقه بشدة أنه لم يدركها من قبل..

وبينما هو غارقٌ في أفكاره، رأى النافذة تُفتح مرةً أخرى.. فقط فرجةٌ صغيرة جدًا لا يمكن أن يراها من خلالها، لكنها كافيةٌ لتراه هي جيدًا..

يبدو أنها لم تستطع احتمال فكرة ألا تعرف أبعاد رد فعله بالضبط..

وعلى الرغم منه ابتسم مغمغمًا: هكذا إذًا.. حسنًا.. فلتتحملي ما سيحدث.

استند إلى السيارة في مواجهتها تمامًا وعقد ذراعيه أمام صدره، ثم نظر إلى النافذة مباشرةً في ثبات عاقدًا حاجبيه ومتظاهرًا بالغضب..

لم يكن تظاهرًا خالصًا في الواقع، بل كان يشعر فعلًا بشيءٍ من الغضب..

من نفسه.. أو منها.. لا يدري..

ربما من نفسه.. شأنه كشأن أي شخصٍ يكتشف أن ما يحدث حوله ليس كما كان يعتقد فيظن أنه أحمقٌ أو أنه لم يفكر كما ينبغي..

ربما منها.. لأنه لم يتخيل قط أنها من ترسل له تلك الرسائل العجيبة ذات المشابك..

أهي حقًا بهذه السذاجة، أم أنها مجرد فتاةٍ عابثة تسلي وقتها.. تتابعه وتراقب تحركاته من النافذة، ثم يحلو لها أن تتسلى به قليلًا.. وهو لا يدرك ذلك إلا بعدما يخفق قلبه لها ويعترف بحبها معتقدًا أنها شخصٌ آخر تمامًا..

لقد فعلتها مرتين والثالثة اليوم.. ها هي رسالتها مازالت في جيبه وبالتأكيد مماثلةٌ لسابقتيها..

مد يده في هذه اللحظة وأخرج الرسالة الصغيرة وفتحها متوقعًا ما سيرى وقاصدًا أن تراه هي يفعل ذلك وكأنه يقول " أجل.. لقد أدركت هذا أيضًا "، لكنه لم يكد يفعل حتى ارتفع حاجباه في دهشة وعاد قلبه يتدافع بخفقاته..

كانت الرسالة تقول أيضًا " أحبك " لكنها لم تكن كسابقتيها على الإطلاق!!

كانت مكتوبة بزخرفةٍ مختلفة تمامًا أكثر جمالًا وتعقيدًا وبحبرٍ أحمر هذه المرة.. أحمر جدًا.. أحمر يلمع ببريقٍ ذهبي براق أعطى للون وللكلمة نفسها وهجًا ناريًا، على نحوٍ يوحي بالقوة دون أن ينقص ذلك من رقتها شيء.. فلو كانت الرسالتان السابقتان تقول " أحبك ".. فهذه بالذات تهتف " أحبك "..

أما الشيء المشترك والذي جعل قلبه يخفق أكثر وأكثر وجعل حاجبيه يعاودان الانعقاد، فهو أن ثلاثتهم تحمل نفس المشاعر الفياضة القوية..

حقًا.. كيف نسي؟

لقد أحس بهذا بالفعل في المرتين السابقتين على نحوٍ جعله يلغى فكرة العبث من تفكيره تمامًا..

والآن لم تعد هذه المشاعر مبهمةً لا يعرف ممن تصدر ولمن..

إنها تصدر منها.. منها هي.. ومن أجله هو..

مرت صورتها بقلبه وعقله.. بملامحها وابتسامتها.. بخجلها ورقتها.. وبعينيها..

عيناها التي طالما حملت كل هذه المشاعر دون أن يدرك هو..

كانتا تقولان له منذ البداية " أجل.. إنه أنت من أحب " ولم يفهم..

ورغم ذلك نفذت إلى قلبه.. نفذت إليه لأنها تخاطبه هو..

مجرد فتاةٍ عابثة؟!

ما هذا الهراء الذي يعتقده؟!

لا يمكن أن يكون ما تحمله هاتان العينان عبثًا أبدًا..

يا له فعلًا من أحمق.. تمامًا كما قال باسل..

باسل الذي فهم في لحظةٍ واحدة ما لم يفهمه هو لوقتٍ طويل، لأنه هو الذي يفكر بسذاجةٍ وليس هي..

هي التي ومنذ أن عرفها قلبت حياته رأسًا على عقب.. ومازالت تفعل ذلك وبمنتهى البراعة..

لكنها حقًا متهورة!!

لقد قال عنها والدها أنها طفوليةٌ بعض الشيء، ويبدو أن هذا صحيحٌ تمامًا..

لهذا كان تهورها كتهور الأطفال الذين يتصرفون بجرأةٍ عجيبة دون أن يدركوا أبعاد ما يفعلون، لكن تصرفاتهم لا تحمل في طياتها سوى البراءة..

وكم ينطبق هذا عليها!

لكن.. أحقًا مشاعرها بهذه القوة؟

أحقًا دفعتها للتصرف بمثل هذا التهور؟

تبعث برسالةٍ تحمل كلمةً صريحة لشخصٍ لا يعرفها ولا يدرك حتى بوجودها؟

من أدراها أنه من الممكن أن يتجاوب مع مشاعرها وأنه لن يعبث بها؟

من أدراها أن هذا سيثر اهتمامه وأنه لن يتجاهله..

وحتى إذا أثار الأمر اهتمامه.. كيف يعرف أنها هي؟

ثم إنه أحبها دون أن يعلم أنها من ترسلها له.. أي أنها لم تكن سببًا لتحرك مشاعره نحوها على الإطلاق..

لقد عرف الآن بمصادفةٍ بحتة كان من الممكن جدًا ألا تحدث!

أمن الممكن أنها لم تكن تسعى ليعرف أبدًا؟!

تفعل ذلك دون انتظار نتيجة؟!

غير معقول!!

إنها ليست متهورةً فحسب.. إنها مجنونة..

لكنه حقًا ألذ جنونٍ قابله في حياته كلها..

ابتسم في هذه اللحظة وعاد ببصره إلى النافذة وتمنى لو رآها الآن ليقول لها هو أيضًا "أحبك".. لكنه سيؤجل ذلك للغد، فقراره بالذهاب إلى الجامعة غدًا لم يتغير بل على العكس، وضوح الأمور جعله أمرًا شبه حتمي..

لن يضيع الوقت.. سيصارحها بمشاعره ويخطبها فورًا..

أما الآن، فسيعاقبها قليلًا..

لهذا أخفي ابتسامته وعاد يتظاهر بالغضب وألقى الرسالة في جيبه بلا اهتمام، ثم استدار متجهًا إلى منزله دون أن يلتفت ثانيةً..

وكان هذا فعلًا عقابًا، لكنه ليس بسيطًا كما أراد.. بل قاسيًا..

فخلف النافذة، انهارت منى تمامًا فلم يظهر لها سوى غضبه لإدراكه الحقيقة ثم لامبالاته بالأمر برمته..

وكان هذا أقسى صدمةً ممكنة لمشاعرها.

****

* ١٤ *

*** تثاءبت بسمة في عمق وبدا عليها الإرهاق..

كانت تحضر محاضرةً إضافية انتهت لتوها، فتثاءبت مرةً أخرى وقالت: سامحك الله يا منى.

كانت عيناها محمرتين ومجهدتين من السهر، فقد أمضت وقتًا لا بأس به من الليل تستمع إلى منى في الهاتف والتي كانت في حالٍ صعبة.. لم تكن تتكلم فقط بل تبكى أيضًا، وقد امتزج كلامها بدموعها ومشاعرها على نحوٍ جعل كل محاولاتها لتهدئتها تبوء بالفشل..

كانت منهارةً بشدة، لهذا تركتها تفرغ كل ما بداخلها علّ ذلك يساعدها على التحسن وتجاوز الأمر..

ثم إن الأمر كان صدمةً لها أيضًا.. كانت فعلًا تتوقع من عمرو شيئًا آخر خاصةً بعدما رأته يوم المطعم.. كانت انفعالاته تشير بوضوح إلى أن لمنى وضعًا خاصًا جدًا بالنسبة له، فما الذي حدث؟ هناك شيءٌ غامض في الأمر..

طبعًا لم تكن منى لتأتي معها إلى الجامعة اليوم حتى ولو كانت هناك محاضراتٌ أساسية، وربما لن تأتي غدًا أيضًا رغم أهمية محاضراته ومعامله..

عندما تعود إلى المنزل سوف تهاتفها وتحاول إقناعها بالمجيء..

غادرت المدرج مع زميلاتها، وكعادة الجميع جلسن في ساحة الكلية بعض الوقت لتجديد النشاط..

لم تكن تنوي أن تطيل الجلوس خاصةً وأن منى ليست معها.. سترتاح قليلًا ثم تغادر..

وبينما يتبادلن الحديث، علقت إحداهن على تلك السيارة السوداء التي مرت أمام مبنى الكلية ودارت في ساحتها الأمامية أكثر من مرة..

انتبه الجميع في فضول إلى السيارة التي كانت بأناقتها وطرازها الحديث وزجاجها الأسود العاكس ملفتةً للنظر بالفعل..

وبينما تتناقل التساؤلات والتعليقات الفضولية بين زميلاتها، ألقت بسمة نظرةً طويلة على السيارة التي توقفت على بُعد بضعة أمتار، قبل أن يلتقي حاجباها وهي تقول لنفسها: لا تقل لي إنك ...

بترت عبارتها في دهشةٍ بالغة و عمرو بكامل أناقته يغادر السيارة ويتجه في هدوء إلى مبنى الكلية ويختفي داخله..

غمرتها الدهشة للحظات لم تنتبه فيها إلى تعليقات زميلاتها والتي انتقلت من السيارة الأنيقة إلى صاحبها الوسيم!

ما هذا؟!

ما الذي يفعله عمرو هنا؟!

أمعقولٌ أنه يبحث عن منى؟!

فتشت في عقلها عن أي سببٍ منطقي يبرر وجوده هنا والآن فلم تجد سوى منى..

حمدت الله في سرها على أنها غير موجودةٍ اليوم.. هذه المجنونة.. لا أحد يستطيع التنبؤ برد فعلها أبدًا خاصةً في حالة عدم الاستقرار التي تمر بها الآن..

ولكن لماذا؟!

لماذا ما حدث بالأمس؟!

ولماذا هو هنا الآن؟!

هل يريد التحدث معها؟!

إنها لا تفهم شيئًا!

وماذا يظن نفسه فاعلًا داخل مبنى الكلية.. هل سيبحث عنها داخل المدرجات؟!

ربما يريد أن...

جالت بخاطرها فكرةٌ جعلتها تلتقط أحد كتبها وتقول لزميلاتها وهي تتجه إلى داخل المبنى: لقد نسيت دفتر محاضراتي.. سأذهب بسرعة لأحضره.

ما إن خطت داخل المبنى حتى وجدت ما توقعته.. عمرو يقف أمام الجدول الضخم الذي يبين مواعيد المحاضرات والمعامل لجميع الفرق، وبالتحديد جدول الفرقة الخامسة..

ابتسمت وقالت في خفوت: حسنًا.. أيًا ما يكون ما جئت من أجله، فالأمر يستحق التدخل والمساعدة.

لا تدري لماذا اعتقدت يقينًا أن وجوده اليوم ينفي ما اعتقدته منى بالأمس، وأنه من العسير حقًا ألا يكون مهتمًا بأمرها.. لهذا اتجهت إليه في هدوءٍ وبساطة ووقفت بالقرب منه محتضنةً كتابها ومتظاهرةً بالتطلع إلى الجدول هي الأخرى..

كان عمرو يتأمل الجدول محاولًا معرفة مواعيد المحاضرات.. ورغم مظهره الهادئ، كان يشعر بالتوتر.. منذ أن دخل الجامعة وهو يشعر به على نحوٍ لم يتوقعه، وها هو يزيد باضطرادٍ مجهول السبب!

أطلق زفيرً عميقًا.. تبدو مواعيد المحاضرات التي يوضحها الجدول متداخلة، كما أنه يقسم كل فرقةٍ إلى كثير من المجموعات..

شعر لحظتها ببسمة تقف إلى جواره.. ألقى نظرةً عابرة، فتوقفت عيناه عند كتابها الذي يشير إلى أنها من الفرقة الخامسة.. تردد لحظةً ثم تنحنح قائلًا: إذا سمحت..

التفتت إليه متسائلةً ببساطةٍ وتلقائية، فقال: أنتِ في السنة النهائية، أليس كذلك؟

- بلى.

- ما هي مواعيد محاضراتكم اليوم؟

- ليست لدينا محاضراتٌ أساسية اليوم.. كانت هناك واحدةٌ إضافية انتهت منذ قليل.

- والمعامل؟

- هناك معامل بالطبع، لكن ليس لكل المجموعات.

أومأ عمرو برأسه متفهمًا رغم الضيق الذي انتابه.. لا يعلم في أي مجموعةٍ هي.. فكيف يسأل!

طالعته بسمة ولسان حالها يقول " هيا.. انطق.. اسأل ولا تخشَ شيئًا " !

ظل عمرو صامتًا وظهر التردد عليه واضحًا فقالت بسمة تستحثه بنفس بساطتها المصطنعة: هل تبحث عن شخصٍ ما بعينه؟

ابتسم عمرو في ارتباكٍ وقال: أجل.

هزت بسمة كتفها وقالت: من؟ ربما أعرفه.

تردد عمرو ثانيةً، إلا أن بساطة بسمة في الحديث وغياب الفضول من لهجتها شجعه فقال: أبحث عن د. منى.

كان يتوقع أن تسأله أي منى، فهناك اثنان أو ثلاثة إن لم يكن أكثر في الفرقة، إلا أنه فوجئ بها تقول: أعرفها بالطبع.. إنها صديقتي.

صمت عمرو لحظات شعر فيها بتوتره يزيد، ثم قال في خفوت: و.. وأين أجدها الآن؟

قالت بسمة على الفور: لم تأتِ اليوم.

عقد عمرو حاجبيه بينما أكملت بسمة متصنعةً البراءة: إنها متعبةٌ بشدة منذ الأمس!

ثم أردفت بلهجةٍ قلقة قاصدةً كل حرف تنطقه: لقد كانت برفقتي أول أمس وكنت بحالٍ جيدة جدًا.. لكنها والدتها هاتفتني أمس وأخبرتني أنها لن تأتي اليوم.. قالت لي أنها شعرت بالتعب فجأة وترفض التحدث مع أحد.

" أهذا من لا يأبه لأمرك يا بلهاء!! "

كان هذا ما ودت لو قالته لمنى وهي تراقب ملامحه جيدًا..

هذا لأن وجهه كان صورةً مجسمة للقلق الممزوج بالضيق والحيرة وقد زاد انعقاد حاجبيه على نحوٍ غريب..

ولم تدعه بسمة لأفكاره طويلًا بل قالت: لكنى أعتقد أنها ستأتي غدًا.. بل من الضروري جدًا أن تأتي فهناك محاضراتٌ ومعامل مهمة.

سألها بصرامةٍ لم يقصدها: متى؟

أجابت في خفوتٍ لم تدر له سببًا: من الصباح حتى الثالثة ظهرًا.

صمت عمرو لحظات تلاشت فيها انفعالاته عن وجهه، ثم اغتصب ابتسامةً باهتة وقال: شكرًا لك.. وآسف على إزعاجك.

وقبل حتى أن ترد عليه كان قد اندفع مغادرًا المكان ليبلغها بعدها صوت سيارته وهو ينطلق بها مسرعًا، فابتسمت وقالت متنهدة: يبدو مخيفًا عندما يغضب!

عادت أدراجها إلى حيث زميلاتها بينما تتساءل في نفسها.. كيف ستقنع منى بالمجيء غدًا؟!

وإذا استطاعت ذلك.. هل ستخبرها بأمر عمرو اليوم أم ...؟!

****

*** " متعبةٌ بشدة منذ الأمس "..

دوت تلك العبارة في رأس عمرو وترددت عشرات المرات وهو يقود سيارته متجهًا إلى منزله..

كان من المفترض أن يعود إلى المستشفى التي غادرها في منتصف دوامه، لكن القلق الذي أثاره حديث تلك الفتاة في الجامعة دفعه للمرور على المنزل أولًا عله يراها أو يجد ما يطمئنه..

ربنا لا تعرف صديقتها تلك ذلك، لكنها كانت بحالٍ جيدة جدًا ليس منذ أول أمس فحسب، بل حتى ظهر أمس أيضًا.. عندما رآها حينها كان وجهها وصوتها لا يدلان على أنها كانت متعبةً على الإطلاق.. فماذا حدث؟!

هل مرضت فجأة؟ نوبة برد أو أنفلونزا مثلًا ؟

ربما.. ولكن ماذا عن " ترفض التحدث مع أحد " حتى صديقتها؟ هذا حقًا مقلق..

قفز احتمالٌ إلى ذهنه دفع بقلقه إلى الذروة..

هل من الممكن أن يكون هو السبب!!

أن تكون قد بالغت في تفسير ما فعله أمس أمام نافذتها، واعتقدت فعلًا أنه غاضبٌ مما عرفه وأنها وما فعلته لا تثير اهتمامه البتة؟!

وجد نفسه غير قادرٍ على تخيل ما يمكن أن يسببه ذلك في كيانٍ رقيقٍ مرهف مثلها، فأطلق زفرةً حارة وضغطت قدمه لا شعوريًا على دواسة الوقود أكثر رغم انطلاق السيارة بسرعةٍ كبيرة بالفعل..

اعترف للمرة الثانية أن باسل كان محقًا تمامًا فيما قال عنه..

أحمقٌ هو.. أحمقٌ جدًا!

ولكنه لم يكن يقصد هذا أبدًا..

كل ما كان يريده أن يقلقها قليلًا حتى لا تتصرف بمثل هذا التهور مرةً أخرى..

أن يثير حيرتها لا أكثر بعد أن أثارت حيرته كثيرًا..

لاح له منزله من بعيد فهدئ من سرعة السيارة حتى أوقفها أمامه..

ألقى نظرةً متلهفةً على نافذتها عله يراها، لكنها كانت مغلقة..

أطلق نفير السيارة عدة مرات ثم غادرها وأغلق بابها في قوة، ولكن بلا فائدة.. ولا حتى فرجةٌ صغيرة تنبؤه بأنها تراه..

انتظر لبعض الوقت فلربما.. لكنه لم يلبث أن استقل السيارة وانطلق بها عائدًا إلى عمله..

حسنًا.. صديقتها قالت أنها لا بد وأن تحضر غدًا.. فليكن.. لم يعد أمامه سوى انتظار الغد..

وفي خفوتٍ قال: انتظرني قليلًا يا منى.. أنا قادمٌ غدًا من أجلك!!

كانت منى في ذلك الحين تجلس على مكتبها الصغير محاولة عبثًا المذاكرة، لكنها كانت فعليًا تضيع الوقت لا أكثر..

الوقت يمر عليها بطيئًا كئيبًا فحاولت الانشغال بأي شيءٍ كي لا تشعر بذلك، لذا لم تكن مذاكرتها سوى بعض خربشاتٍ بالقلم في الأوراق التي أمامها..

ميزت نفير سيارة عمرو، فأدركت وجوده..

خفق قلبها في اضطرابٍ وبذلت جهدًا مضنيًا كي تبقى في مكانها ولا تندفع نحو النافذة..

ومع مقاومتها، انهمرت دموعها.. وانهمر حزنها..

لم تعد تدرِ لماذا تبكي ولا لماذا تشعر بالحزن، ولا ماهية ذلك الألم الذي تشعر به في قلبها..

لم تعد تستطيع حتى التفكير.. كل شيءٍ داخلها مشوشٌ ومرتبك.. حتى مشاعرها لم تعد تستطيع فهمها..

كل ما تعرفه أنها حزينة.. حزينةٌ حد البكاء.. ولا تريد سوى أن تكون وحدها، وأنه...

وأنه لا يمكن لها أن تراه بعد الآن..

زاد انهمار دموعها، فعقدت ذراعيها على المكتب أمامها وأسندت رأسها إليهما وأطلقت لدموعها العنان..

يا إلهى.. كم أن هذا مؤلم.. ألّا تراه بعد الآن..

ليته لم يعرف شيء، بل ليتها لم تبعث له بتلك الرسائل..

كانت تعتقد أنه من المستحيل أن يعرف أنها مرسلتها، لكنها كانت حمقاء.. وها هو ذا يعرف كل شيء..

تلقى كبرياؤها ضربةً قاتلة وتكشفت مشاعرها كلها أمامه على نحوٍ يشعرها بالخجل الشديد من نفسها.. والأدهى، أنه أظهر لها بوضوح أنه لا يأبه بكل هذا وكأنه يقول "كُفى عن تلك السخافات أرجوك فليس لدي وقتٌ أضيعه" !

لهذا لم يعد بإمكانها حتى محاولة رؤيته..

ليتها ظلت تراه وتتطلع إليه من النافذة.. كان هذا وحده يكفيها ويسعدها..

لم تعد تريد أن يعرفها.. معرفتها له تكفي..

لم تعد تريد أن يحبها.. حبها له يكفي..

لكن.. حتى هذا لم يعد ممكنًا..

ومع انسياب أفكارها، شعرت بالضيق بغتةً من نفسها ومن استسلامها للحزن بهذا الشكل، فقالت لنفسها وهي ترفع وجهها وتمسح دموعها: حسنًا.. لا بأس.. سيمر الوقت وأنساه بالتأكيد وسيعود كل شيءٍ كما كان.

التقطت نفسًا عميقًا وبدأت تجهز أوراقها ودفاترها لمحاضرات الغد..

ستذهب غدًا للجامعة وتعاود الاهتمام بمذاكرتها.. لن تُظهر مشاعرها لأى شخصٍ بعد الآن.. حتى بسمة ستخبرها أن الأمر انتهى وستعود منى التي كانتها من قبل.. وكان هذا هو قرارها.

****

* ١٥ *

*** تطلعت بسمة إلى منى في إشفاق وهي تحاول جاهدةً التظاهر بأنها على ما يرام والتركيز في إجراء التجارب..

عندما أخبرتها أن كل شيءٍ قد انتهى بالنسبة لها، أدركت تمامًا أن هذا ما تحاول به الخروج من أزمتها لا أكثر.. ولكن ماذا بيدها أن تفعل؟ ليس أمامها سوى احترام رغبتها ومساعدتها فيما تريد فعله..

قرارها المزيف هذا جعلها لا تستطيع إخبارها بأمر عمرو الذي جاء أمس ليبحث عنها..

أحست أنها لو عرفت ستعود إلى حالة الاضطراب التي تجاهد الآن للخروج منها..

لكن ماذا لو جاء اليوم أيضًا كما أخبرته؟!

ستحاول قدر الإمكان أن تغادر معها الكلية بعد انتهاء المعمل مباشرةً تفاديًا لما قد يحدث..

لكن.. هل من الأفضل لها ألّا تراه حقًا؟

ماذا لو كان يريد أن يصارحها بشيءٍ ما وهذا ما تعتقده هي أصلًا..

قاطع أفكارها اقتراب منى وهي تمسك راحتها في قوة وقد بدا عليها الانزعاج، فتساءلت بسمة عما حدث..

قالت منى في ضيق: مسمارٌ غبي في حافة الطاولة جرح يدي.

أسرعت بسمة تلتقط منديلًا ورقيًا وبللته ببعض الكحول الموجود في المعمل ثم أعطته لها لتنظف به الجرح وهي تقول: جرحٌ سطحي.. أليس كذلك؟

- ليس تمامًا.. المشكلة أن ذلك المسمار صدئٌ للغاية.

تنهدت بسمة وقالت: هذا مُقلق.. أعتقد أنه من الضروري أن تحتاطي لتلوثه بجرعةٍ من المصل المضاد للتيتانوس.

مطت منى شفتيها في ضيقٍ قائلة: أكره الحقن.. وأكره أن أُضطر لهذا المصل للمرة الأولى في حياتي.

ربتت بسمة على كتفها ثم قالت: لا بأس.. هذا أهون من تلوث الجرح.

بعد انتهاء وقت المعمل، ذهبتا بالفعل إلى إحدى الصيدليات القريبة من أسوار الجامعة..

وبينما هما هناك، توقفت سيارة عمرو في ساحة الكلية وظل بداخلها يبحث بعينيه عن منى بين الطلبة المتناثرين هنا وهناك وهو يلقي نظرةً على ساعته بين الحين والآخر..

لازمه التوتر أيضًا هذه المرة مقترنًا بالقلق الذي لم يفارقه لحظةً منذ الأمس..

تُرى هل سيتحمل أن يرى في عينيها نظرة حزنٍ يعرف جيدًا أنه سببها؟

سحب نفسًا عميقًا وأطلقه، ثم غادر السيارة ووقف مستندًا عليها ينتظر..

كان وجوده ملفتًا جدًا للأنظار، وبدا واضحًا للغاية أنه ليس أحد الطلبة.. لهذا لم تمضِ لحظات حتى تعالت الهمسات بين الفتيات من حوله عمن هو ومن ينتظر، لكنه لم ينتبه إلى كل هذا.. كان ذهنه مشغولٌ بأمرٍ واحد..

منى..

مضى بعض الوقت حتى لمحها قادمةً من بعيد بصحبة صديقتها التي رآها أمس عند جدول المحاضرات..

غلبه الانفعال وهو يتطلع مشفقًا إلى وجهها الذي بدا عليه الحزن والإرهاق..

تضاعف توتره، وتضاعف ارتباكه.. في حين اقتربت هي في بطءٍ غريب حتى أن صديقتها سبقتها بعدة خطوات! حاولت اللحاق بها لكنها عادت تتوقف.. التفتت إليها صديقتها وتحدثتا لحظات.. يبدو أنها تخبرها بأنها ليست على ما يرام.. بدا القلق على صديقتها ثم أمسكت يدها تساعدها على الوصول إلى أقرب مقعد..

اعتدل عمرو في مكانه وانعقد حاجباه في قلقٍ شديد وهو يراها تواصل تحركها بصعوبة ثم تترنح، لتهتف صديقتها بصوتٍ عالٍ: منى.. ماذا بك؟

انتزع هتافها عمرو من مكانه ليندفع نحوها عدوًا، وأمام عينيه رآها تضع يدها على صدرها وتشهق وكأنها لا تستطيع التنفس وتحاول قول شيءٍ ما لكن ترنحها يزداد و...

وتهوي بين ذراعي صديقتها التي هتفت مرةً أخرى باسمها بصوتٍ ملتاع وهي تتشبث بها في قوة كي لا تسقط على الأرض..

انتبه كل من كان في ساحة الكلية إلى ما يحدث، وتحرك بعضهم محاولًا المساعدة، لكنهم فوجئوا بمن يندفع نحوهما في سرعة ليلتقط منى من بين ذراعي بسمة ويحملها متجهًا بها نحو أقرب مقعد..

كان قلق بسمة وانفعالها في هذه اللحظة أكبر من أي دهشةٍ أو أي ذهول، لذا تبعته بسرعة إلى حيث أجلس منى في رفق مسندًا رأسها وجذعها إليه..

وبقلبٍ يخفق بمنتهى الاضطراب والقلق، رأته يتفحص تنفسها ونبضها ثم يلتفت إليها قائلًا بانفعالٍ شديد: أي عقارٍ تناولته منذ قليل؟

انهمرت دموع بسمة وهي ترى وجه منى وقد بدأ يتورم وتظهر فيه بقع حمراء، بينما تنفسها يزداد صعوبةً وقالت: يا إلهي.. ماذا حدث؟

عاد عمرو يهتف بها مكررًا: أي عقار؟؟

انتفضت مع هتافه وقالت بسرعة: إنه المصل المضاد للتيتانوس.

هبط قلبه بين قدميه وأسوأ توقعاته يتأكد، وهو أن يكون عقارًا ما تناولته عن طريق الحقن!

ليس لديه الكثير من الوقت.. الوضع سيئ.. سيئٌ جدًا وخطير..

وبصعوبةٍ بالغة أزاح انفعالاته جانبًا وهتف ببسمة: أسنديها إليك.

ثم التفتت إلى المتجمهرين حولها صارخًا: وأنتم ابتعدوا.. ابتعدوا.. دعوها تتنفس.

لهجته شديدة الصرامة جعلت أقربهم يبتعد بالفعل لمسافةٍ لا تقل عن مترين والكل يدرك بشكلٍ أو بآخر أنه طبيب، في حين ترك هو منى لبسمة واندفع ركضًا نحو سيارته واستقلها لينطلق بها بسرعةٍ شديدة عائدًا إليهما.. ثم غادرها بعد أن فتح بابها الأمامي من الداخل وأمال ظهر مقعده إلى أقصى مدى..

وفي انفعالٍ شديد قال لبسمة وهو يُلقي إليها محقنًا وأمبولًا: أفرغيه بسرعة.. هيا.

كانت منهارةً بشدة لكنها نفذت ما قال، في حين حمل هو منى ثانيةً ووضعها داخل السيارة مستلقيةً على المقعد الأمامي، بينما صوت أنفاسها الذي تحول إلى شهقات يمزقه تمزيقًا..

عاد يتجاهل مشاعره وتناول المحقن من يد بسمة التي وقفت بجواره يعصف بها القلق والبكاء، ثم استند بركبتيه إلى الأرض والتقط يد منى وضم قبضتها إلى الأسفل في قوة إلى أن ميزت عيناه فيها وريدًا واضحًا أفرغ فيه المحقن ببطء..

ورغم فقدانها الوعى، تأوهت منى بصوتٍ خافت جعل بسمة تزداد بكاءً، وكاد يدفع عمرو إلى سحب المحقن من يدها قبل انتهائه، إلا أنه سيطر على نفسه بصعوبة وواصل حقنه وهو يعض على شفته السفلى في ألم..

ما إن أفرغ المحقن حتى ألقاه بعيدًا واندفع يستقل السيارة بينما بسمة تهتف: لن أتركها.

قالتها واحتلت بالفعل المقعد الخلفي قبل أن ينطلق بها كالصاروخ..

كان المشهد في ساحة الكلية بعد أن غابت سيارة عمرو عن الأنظار صورةً مجسمة للصمت الذي استمر لثوانٍ قبل أن يقطعه أحدهم قائلًا في حيرة: ماذا حدث لها؟!

انتشر بعدها الكلام بين الجميع كما النار في الهشيم.. الكل يعلق.. الكل يتحدث.. الكل يسأل.. في حين رد أحدهم على السائل قائلًا: ألم تفهم يا عبقري.. إنها صدمة حساسيةٍ حادة.. إن لم يستطع ذاك الوسيم الذي يبدو طبيبًا إنقاذها في الوقت المناسب فـ...

لم يكمل عبارته.. لكن المعنى كان واضحًا.. جدًا.

****

*** قلق.. انفعال.. توتر.. خوف.. حزن..

امتزجت كل هذه المشاعر داخل عمرو وهو يقود السيارة بسرعةٍ جنونية متجهًا نحو المستشفى..

مع كل شهقة.. مع كل أنّه.. ينتفض قلبه بين ضلوعه..

لكنه يتماسك.. يتماسك من أجلها..

كان يعلم جيدًا أن حياتها الآن تتوقف بعد مشيئة الله عز وجل وإرادته، عليه هو.. وهو لن يخذلها أبدًا.. سيحاول بكل ما أوتيَ من قوة..

وبأقصى سرعةٍ ممكنة للسيارة، انطلق بها مطلقًا نفيرها بشكلٍ شبه متصل..

أخذ يتجاوز كل السيارات.. يسير عكس الاتجاه.. يتجاهل صياح المارة وسائقي السيارات بل وسبابهم أيضًا.. يتخذ طرقًا مختصرةً ضيقة.. يفعل أي شيءٍ ممكن ليصل إلى المستشفى قبل فوات الأوان..

وفي ارتياع هتفت بسمة وهي تمسك بمنى حتى لا يتحرك جسدها مع حركة السيارة العنيفة: أنها لا تتحسن.. ألم يفعل ذلك العقار الذي حقنته أي شيء؟

- لقد فعل.. لكنه ليس كافيًا.. إنه يمنحها فقط بعض الوقت.

قالها بتوترٍ شديد وهو يلقي نظرةً على وجهها متوقعًا ما سيرى، فقد ازداد تورمه وظهرت البقع الحمراء في يدها مما يعني أنها قد انتشرت في جسدها كله.. أما تنفسها فأصبح مجرد شهقاتٍ قصيرةٍ متلاحقة..

عادت بسمة تصرخ فيه: إلى أين أنت ذاهب؟ لماذا لم تذهب إلى مستشفى الجامعة؟ إنها الأقرب.

هتف عمرو بعصبيةٍ شديدة وامتزج صوته بصوت صرير إطارات السيارة وهو يدور بها في منحنى خطِر: لو ذهبت إلى هناك فستموت قبل أن تجد لها مكانًا في قسم الطوارئ.. هذه ليست مستشفى أصلًا..

قالت بسمة في انهيار: أرجوك.. تصرف بسرعة.. لقد بدأ وجهها يزرق.

صرخ فيها عمرو هذه المرة مشيرًا إلى رأس منى: افعلي أنتِ شيئًا واخلعي عنها هذا الشيء.. ساعديها لتتنفس.. لا أريد شيئًا حول عنقها.. هيا.

نفذت بسمة ما قال واندفعت تخلع الدبابيس التي تمسك حجابها واحدًا تلو الآخر بأقصى ما تستطيع من سرعة ولكن كلما حاولت فكه عن عنقها وجدته مثبتًا بالمزيد من الدبابيس، فهتفت في غيظ على الرغم منها: اللعنة على دبابيسك يا منى.. ستموتين بسببها يا حمقاء.

كان عمرو في هذه اللحظة يمسك بهاتفه يجري اتصالًا ثم يسنده إلى أذنه بكتفه حتى يستطيع التحكم في عجلة القيادة بكلتا يديه.. مرت لحظاتٌ قليلة قبل أن يهتف: باسل.. مازلت في المستشفى أليس كذلك؟ نعم.. نعم.. باسل أرجوك.. أريد منك تجهيز قسم الطوارئ بسرعة لاستقبال حالة صدمة حساسية حادة.. أنا قادمٌ خلال دقائق.. سأعتمد عليك.

أنهى الاتصال قبل حتى أن يصله رد باسل، وألقى الهاتف جانبًا وهو يدعو الله في أعماقه أن يصل في الوقت المناسب..

لم تمضِ دقائق حتى وصل إلى المستشفى مقتحمًا ساحتها الأمامية بسيارته في عنف، ومطيحًا بكل ما اعترض طريقه من حواجز المرور البلاستيكية الموضوعة لتنظيم دخول السيارات.

انتفض حراس الأمن لهذا الدخول العنيف، لكن ما إن لمحوا عمرو يقفز من السيارة حتى تراجعوا جميعًا، إلا أن أقربهم إليه صاح في اعتراض: د. عمرو.. ماذا...

بتر عبارته بغتة وابتلع لسانه على الفور عندما رمقه عمرو بنظرةٍ صارمة محملةً بكل ما يحتمل في نفسه من انفعال دون حتى أن يتوقف..

أمام أبواب قسم الاستقبال الرئيسية، كان باسل ينتظر يضرب أخماسًا في أسداس عندما رأى عمرو يدخل المكان فجأة حاملًا فتاة، اتجه بها بخطواتٍ أقرب إلى العدو نحو قسم الطوارئ بينما تعدو خلفه فتاةٌ أخرى، فتحرك بسرعة ليلحق به مشيرًا بيده إشارةً خاصة فتبعته اثنتين من الممرضات..

اندفعت بسمة تدخل معهم إلا أن إحداهما منعتها قائلة في صرامة: ممنوع.

حاولت الاعتراض لكن الممرضة أغلقت الباب بسرعة، فعاودت دموعها الانهمار في غزارة وألقت نفسها على أقرب مقعد تدعو الله أن يكتب لها النجاة..

لم تدرِ كم مر من الوقت بالضبط.. أيًا ما كان، فقد أحست به يمر ثقيلًا بطيئًا إلى أن خرجت إحدى الممرضات مسرعة يبدو عليها الحنق.. وقبل حتى أن تسألها بسمة عن أي شيء، كانت قد ابتعدت تاركة إياها غارقةً في قلقها، فعادت تنتظر..

دقائق أخرى وخرجت الممرضة الثانية، فاندفعت بسمة تعترض طريقها هذه المرة قائلة: كيف حالها.. أخبريني أرجوك.

ابتسمت الممرضة ابتسامةً روتينية وقالت: بخير.. لا تقلقي.

تنفست الصعداء وتركت الممرضة تواصل طريقها، ثم غمغمت بارتياحٍ شديد: حمدًا لله.. حمدًا لله.

لم تكد تتم عباراتها حتى خرج اثنين من الأطباء وهما يتبادلان الحديث فتساءلت في نفسها مندهشة.. متى دخل هؤلاء؟!

التقطت أذنها بعض حديثهما قبل أن يبتعدوا.. كان أحدهم يقول: عمرو.. أجل.. لقد كان غريبًا اليوم!

- كان عصبيًا جدًا.. لم أره قط بهذا الانفعال.. يبدو أنها قريبته وأمرها يهمه جدًا.

عاد الباب يُفتح فالتفتت في لهفة متوقعةً ظهور عمرو، لكنه كان الطبيب الذي لحق به عند وصوله..

استوقفته قائلة: إذا سمحت يا دكتور.. طمئني أرجوك.

تأملها باسل لحظات ثم ابتسم قائلًا: هي بخيرٍ والحمد لله.. لقد تجاوزت الخطر وستستعيد وعيها خلال وقتٍ قصير إن شاء الله.

تهلل وجهها بالفرح والارتياح فاتسعت ابتسامته وقال: أنت أختها.. أليس كذلك؟

كان في الواقع يتصنع السذاجة، فقد أخبره عمرو بالداخل أنها صديقتها، لكنه كان يحاول إخراجها من حالة القلق الشديد التي تمر بها..

ابتسمت ابتسامةً باهتة وقالت: كلا.. أنا صديقتها.

- حقًا.. هناك شبهٌ كبير بينكما.

كانت هذه مبالغةً منه بالطبع!

- ليس إلى هذا الحد.

- حسنًا.. لا تقلقي.. إنها بخير تمامًا.. بعد قليلٍ ستنقل إلى إحدى الغرف وهناك ستستطيعين رؤيتها.

عادت تتساءل في قلق: هل سيتم احتجازها في المستشفى؟

- ليس لوقتٍ طويل اطمئني.. فقط ريثما تستعيد وعيها ويطمئن عليها عمرو.

ثم تنهد مستطردًا: عمرو هذا.. لقد كان مرعبًا اليوم.. لهذا تركته معها ليهدأ قليلًا حتى لا يتسبب في إقالة نصف ممرضات المستشفى.

هزت بسمة رأسها بمعنى " لقد رأيت بنفسي " فاستطرد في حماس: لكنه طلب مني أن أعتني بك ريثما يأخذك بنفسه لرؤيتها.. تفضلي معي إلى مكتبي.

بابتسامتها الباهتة قالت: لا داعي لذلك.. من الممكن أن أنتظر هنا.

- لست مشغولًا الآن.. ثم إنك مررت بوقتٍ عصيب فلتسترخي قليلًا.. عمرو سيأتي حالًا.

كانت فعلًا تشعر بإرهاقٍ شديد فقالت مستسلمة: حسنًا.. شكرًا لك دكتور....

- باسل.

- أشكرك جدًا د. باسل.

قادها باسل نحو مكتبه وهو يواصل الحديث بلا انقطاع.. الحق أنها أحست بأنه ثرثار لكنه ظريف، ثم إنه ليس أمامها سوى انتظار عمرو.. حسنًا.. ستنتظر في صبر حتى تطمئن على منى..

وهناك..

في غرفة الطوارئ، وبعد أن خرج جميع الأطباء والممرضات، ووسط الفوضى التي تعم المكان من عشرات الأمبولات والمحاقن الفارغة وزجاجات المحاليل المعلقة، وقف عمرو يضبط معدل سريان أحد هذه المحاليل لى أوردتها.. رفع يدها يتأكد من سلامة القناة الوريدية المثبتة إليها ثم أراحها إلى جوارها برفق..

وأخيرًا.. التقط نفسًا عميقًا.. عميقًا جدًا.. وهو يمرر أصابعه في شعره ويحمد الله ويشكره من أعماق قلبه..

وفي صمتٍ طال لدقائق عدة، وقف يتأملها حيث رقدت على فراش الفحص الصغير غائبةً عن الوعى وأنفاسها تتردد بهدوءٍ وانتظام داخل قناعٍ صغير للأكسجين مثبت على وجهها، ثم لم يلبث أن دار حول الفراش وجذب كرسيًا صغيرًا وجلس إلى جوارها..

التقط يدها الأخرى واحتضنها بكلتا يديه مستندًا بمرفقيه إلى الفراش..

يدها باردةٌ كالثلج تمامًا كما عهدها، وقد أدهشه هذا في الواقع فجسدها منذ دقائق كان وكأنما ينفث النيران! لكنها برودةٌ لذيذة سرعان ما تكتسب الدفء المحيط بها، لذا لم تمضِ ثوانٍ حتى اكتسبت دفء يديه بالفعل..

مد يده يزيح قناع الأكسجين بعد أن راقب تنفسها للحظات واطمئن إلى انتظامه، ثم عاد يحتضن يدها ويتأمل وجهها..

كان تورمه قد زال أو كاد، وإن كانت لاتزال تظهر فيه بقعٌ صغيرة متفرقة من الاحمرار البسيط.. ورغم ذلك، شعر أنه لم يرها أجمل من هذا من قبل وقد تبعثر شعرها حول رأسها ووجهها في نعومة، وبدت ملامحها وهي نائمة أكثر رقةً وجمالًا..

تمر اللحظات.. وتمر..

اتجهت يده ببطءٍ نحو شعرها، لكنه توقف قبل أن يبلغه..

مهلًا.. إنه يحتاج بالفعل إلى أن يهدأ كما قال له باسل.. مشاعره كلها وأعصابه ثائرةٌ للغاية..

عاد يتنفس بعمق، ثم استند بجبهته إلى يديه المحتضنتين يدها وأغمض عينيه..

إنها الآن بخير.. إنها الآن معه..

كل الخطر زال وانتهى..

لن يمر وقتٌ طويل حتى تطالعه عيناها.. ويسمع صوتها..

لن يمر وقتٌ طويل حتى تعود إليه..

شعر بالهدوء يتسرب إلى نفسه شيئًا فشيئًا..

تمر اللحظات.. وتمر..

رفع رأسه وعاد يتأمل وجهها..

مزيدٌ من الهدوء يغمر كيانه..

وأخيرًا.. ابتسم..

ابتسم وهمس: حمدًا لله على سلامتك حـ...

توقف بغتةً والتقى حاجباه..

لم يعتد هذه الكلمة ولم يلفظها محملةً بمعناها الحقيقي من قبل قط، لكنها خرجت من أعماقه دون تفكير.. خرجت من قلبه مباشرة.. فاستسلم لخفقاته وترك لها العنان وهمس مكملًا: حبيبتي.

عادت عيناه تحتويان وجهها مستندًا هذه المرة بذقنه إلى يديه، لكن.. ودون قصد منه، لامست أصابعها شفتيه..

أبعد رأسه بحركةٍ حادة وشعر بخفقات قلبه تضطرب..

نظر إليها وأنفاسه تتلاحق و..

وخرجت مشاعره عن السيطرة..

اقترب مرةً أخرى وقرب يدها المستكينة بين يديه إلى شفتيه وطبع عليها قبلةً صغيرة بمنتهى الرقة والحب..

تركت إحدى يديه يدها للأخرى تضمها إلى وجهه، وامتدت نحو شعرها تداعب خصلاته وتتخلله في حنان.. ودون أن يشعر وجد نفسه يهمس: أحبك.

تمر اللحظات.. وتمر.. و..

قطع تدفق مشاعره وأفكاره صوت طرقاتٍ خفيفة، فاعتدل ملتفتًا نحو الباب الذي فُتح لتدخل منه إحدى الممرضات قائلة: لقد طلبتني يا دكتور؟ د. باسل أخبرني بذلك.

فهم عمرو قصد باسل على الفور، فالتقط نفسًا عميقًا ومرر أصابعه في شعره قائلًا: أجل.

ثم نهض واقفًا وأكمل في حزم مشيرًا إلى منى: انقليها بمنتهى العناية إلى إحدى غرف الطابق الأخير وأخبريني بذلك عندما تنتهي.. سأكون في مكتب د. باسل.

أومأت الممرضة برأسها في تفهم وقالت: فورًا يا دكتور.

خرج عمرو بعد أن ألقى نظرةً أخيرة على منى، ثم اتجه إلى مكتب باسل..

وأمامه، طرق الباب في هدوء ثم دخل بعد أن أتاه صوت باسل يدعوه ليفعل..

استقبلته بالطبع نظرات بسمة المتلهفة القلقة، فأجابها بقوله: اطمئني.. إنها الآن بخير تمامًا والحمد لله.

قالت في لهفة: هل استعادت وعيها؟ هل من الممكن أن أراها؟ أرجوك.

ابتسم عمرو وهو يجلس على أقرب مقعدٍ صادفه وقال: ليس بعد.. دقائق وتستقر في غرفة، وسيمكنك رؤيتها بالطبع.

بدا على بسمة أنها لا تطيق الانتظار حتى تلك الدقائق، في حين التفت هو إلى باسل بنظرة شكر، فأومأ الأخير برأسه بمعنى " أنت على الرحب "..

ساد الصمت لحظاتٍ قالت بسمة بعدها في خفوت: د. عمرو.

التفت إليها عمرو متسائلًا فاستطردت: لست أعرف كيف أشكرك على ما فعلته.. لقد كنت كطوق نجاةٍ أرسله الله إلينا ولولاك حقًا لما...

صمتت لحظةً في انفعال، ثم أكملت: لست أدري ما الذي كان من الممكن أن يحدث.

قال عمرو في خفوت مماثل: لم أفعل سوى واجبي.

- حقًا؟!

التقى حاجباه مستغربًا التساؤل، فعادت تقول في تردد: هل من الممكن أن أسألك عن شيءٍ بخصوص ذلك؟

اتسعت عينا باسل في شغفٍ وفضول، في حين صمت عمرو لحظةً ثم قال في هدوء: تفضلي.

انطلق رنين الهاتف الداخلي لحظتها، فالتقطه باسل في سرعة وهو يرد في روتينية.. استمع لمحدثه لحظات قبل أن يمط شفتيه في ضيقٍ قائلًا: حسنًا.. سآتي حالًا.

سأله عمرو في قلق: هل...

قاطعه باسل وهو يغلق خط الهاتف: كلا.. كلا.. إنه استدعاءٌ لي أنا.

أطلق عمرو ضحكةً خافتة وقد أدرك سبب انزعاجه فهو يعرف كم هو فضولي..

نظر له باسل في غيظٍ مصطنع، ثم نهض من خلف مكتبه وهو يقول محدثًا بسمة: اسمحي لي د. بسمة.. لقد كانت فرصةً رائعة التعرف عليك.

ردت بسمة في حرج: أشكرك د. باسل.. تفضل.

ربّت باسل على كتف عمرو وقال مداعبًا: أريدك أن تعتصريه أسئلة.. إنه يستحق ذلك.. لكن كي لا تصابي بالإحباط دعيني أخبرك بشيءٍ مهم..

مال نحوها قليلًا مكملًا في خفوت وكأنه سيقول سرًا: من الصعب جدًا محاصرته!

ابتسمت بسمة بينما نظر له عمرو معاتبًا، فقال: حسنًا.. حسنًا.. سأذهب.

غادر في سرعة، فعاد عمرو بعينيه إلى بسمة التي تنحنحت ثم قالت: اعذرني د. عمرو.. أعرف بالطبع كيف يتصرف أي طبيبٍ في المواقف المماثلة، ولكن.. أحقًا كل ما فعلته كان من منطلق واجبك كطبيب.. فقط؟!

لم تكن بسمة بالطبع بحاجةٍ إلى التأكد من شيء فقد أيقنت تمامًا كم هو غارقٌ في حبها، لكنها كانت تريد أن تحيط منى بنطاقٍ جاد.. أن تعرف كيف سيصف علاقته بها وكيف سيبرر تصرفاته تجاهها خاصةً في موقفٍ واضح كهذا..

تطلع إليها عمرو في صمت دام للحظاتٍ ثم قال: دعيني أولًا أسألك سؤالًا.

لم تتوقع أن يجيبها بسؤال، فقالت بحذر: تفضل.

- من الواضح جدًا أنك صديقتها المقربة.. أليس كذلك؟

- بلى.

قال عمرو وهو ينظر إليها في ثبات: إذًا فقد أخبرتك عني بالتأكيد.

لم تتوقع منه هذا الاستنتاج وأدركت أنه يحاول التهرب من الإجابة المباشرة، فابتسمت قائلة: هذا لا يعني أني أعرفك أو أعرف أي شيءٍ عما بداخلك!

كان ردًا ذكيًا أفسد عليه محاولته ببساطة..

غلفهما الصمت ثانيةً قبل أن يقول عمرو في تردد: وماذا تعرف هي عما بداخلي؟

قالت باستنكار: أنت تسأل أكثر مما تجيب!

جاوبها عمرو بالمزيد من الصمت، فتنهدت قائلة: لا تعرف شيئًا بالطبع.. فقط الكثير من التمنيات والاحتمالات التي تغير تصرفاتك اتجاهها في كل لحظة.

واصل عمرو صمته للحظاتٍ أخرى ثم قال: منى إنسانةٌ رقيقة جدًا وحساسة..

ثم هز كتفه وابتسم مكملًا: ويبدو أنني لن أستطيع أن أحيا بدونها!

ارتفع حاجبا بسمة دهشةً من هذا الرد الأنيق وتأكدت تمامًا من صحة ما قاله صديقه عنه..

همّ عمرو بقول شيءٍ آخر لكن سبقه رنين الهاتف الداخلي، فشعرت بالإحباط وقالت في نفسها.. "لماذا الآن.. كان سينطق ببضع كلماتٍ أخرى" !، في حين أجاب عمرو المتصل في سرعة ثم قال: حسنًا.. شكرًا لك.

ثم التفت إلى بسمة قائلًا: هيا؟

فهمت ما يقصده على الفور، فقالت في لهفة: بالطبع.

تحركا سويًا يتقدمها عمرو واستقلا المصعد إلى الطابق الأخير حيث اتجه إلى غرفة بعينها.. وأمام بابها قال: سأتركك معها الآن.. أخبرني إن استعادت وعيها.. سأكون في الجوار.

نظرت له بامتنانٍ وقالت: أشكرك بشدة.

تركها عمرو تدخل ثم انتقى أحد مقاعد الانتظار وجلس تاركًا لأفكاره العنان..

لم يدرِ كم مر عليه من الوقت قبل أن يشعر ببسمة تقترب.. التفت إليها وعيناه تحملان تساؤلًا واضحًا فقالت: كلا.. لم تستعد وعيها بعد ولكن... تأخر الوقت كثيرًا.. إنها الخامسة تقريبًا.

ألقى نظرةً على ساعته منتبهًا بغتة إلى تأخره هو أيضًا على العيادة التي من المفترض أن يكون فيها الآن، لكنه نحّى هذا جانبًا وقال: تستطيعين أنت الذهاب.. سأكون أنا معها، لا تقلقي.

- أنا أقصدها أيضًا.. لقد تركت حقيبتي في الجامعة وفيها هاتفي، لكن يمكنني الاتصال بوالديّ وإخبارهم بالأمر وبأنني سوف أبقى معها.. لكن ماذا عنها.. أستطيع الاتصال بوالديها أيضًا إلا أنني لا أعرف ماذا أقول لهما.

كانت على حقٍ تمامًا فيما تقول، فصمت لحظاتٍ مفكرًا ثم أخرج هاتفه وناوله لها قائلًا: اتصلي أنتِ أولًا بوالديك وطمئنيهما، ثم اتصلي بوالدها ودعيني أكلمه أنا.

بدا عليها الدهشة، فأردف موضحًا: أنا على معرفةٍ شخصية به وأعرف ماذا ينبغي أن أخبره.

زادها هذا دهشة، لكنها لم تلبث أن أومأت برأسها بتفهمٍ وهي تلتقط الهاتف..

الحق أنها أعجبت بشخصيته.. هناك نضجٌ واضح في تصرفاته وفي طريقة تحمله للمسئولية.. هذا رائع.. لن تقلق على منى إذًا !

لم تُظهر له ذلك بالطبع وبدأت في إجراء اتصالاتها، في حين نهض هو وتحرك مبتعدًا لبضعة أمتار وكأنه يتجول في المكان حتى يمنحها فرصة التحدث بحرية..

- د. عمرو.

بلغه نداؤها، فالتفت ليجدها تمد يدها له بالهاتف بما يعني أن والد منى على الخط..

اقترب مسرعًا والتقط الهاتف ثم عاد يبتعد وهو يتحدث معه..

طال وقت المحادثة هذه المرة على نحوٍ أثار قلق بسمة، لكن عمرو لم يلبث أن عاد إليها مبتسمًا، فقالت: خيرًا؟

- أخبرته بالأمر بالتفصيل وطمأنته، لكني نجحت بصعوبة في إقناعه بعدم المجيء وبتركي أنا أعود بها معكِ إلى المنزل.

ارتفع حاجباها في دهشة بالغة وهي تردد: تعود أنت بها؟!

رد في بساطة: أجل.. هل نسيت أنى جارهم؟

- كلا.. ولكن...

- أخبرته أنها ستستعيد وعيها خلال دقائق وسأعود بها على الفور.. لم يقتنع إلا حينما أخبرته أنه من الأفضل ألا تعلم والدتها بالأمر لأنه لن يكون هناك سبيلٌ لطمأنتها في هذه الحالة إلا برؤية ابنتها أمامها سليمةً معافاة.. سيخبرها أنها تأخرت معك في الجامعة وستعودان سويًا خلال نصف ساعةٍ على الأكثر.

- وماذا لو لم تستعد وعيها خلال وقتٍ قصير؟

أطلق عمرو زفيرًا عميقًا وقال: الحق أن فترة فقدانها للوعى قد طالت.

أخرج هاتفه مرةً أخرى وأجرى اتصالا بالعيادة يخبرهم فيه بتأخره نحو ساعة، ثم تحرك متجهًا نحو غرفتها قائلًا: دعينا نطمئن عليها.

تبعته بسمة في سرعة والتقيا باسل الذي قال فور رؤيتهما: آه.. وجدتكما.

ثم قال موجهًا حديثه إلى بسمة: كيف حالها الآن.

" لماذا تخاطبني أنا! المفترض أن تسأل عمرو ! "

هذا ما قالته لنفسها بتعجب، لكنها أجابته باقتضاب: د. عمرو سيطمئننا عليها حالًا.

سبقهم عمرو إلى الداخل، وما إن اقترب حتى أدرك أنها بدأت تستعيد وعيها بالفعل، فقد كانت تحرك يدها ورأسها ما بين لحظةٍ وأخرى حركاتٍ ضئيلةٍ محدودة..

جلس عمرو على طرف الفراش وأمسك معصمها محاولًا قياس نبضها.. الحق أنه لم يستطيع قياس أي شيء.. تحرك مشاعره وانفعالاته فور رؤيتها أطاح بتركيزه تمامًا، فلم يشعر سوى بنبض قلبه هو الذي أخذ يدق داخله متلهفًا وقلقًا، لهذا تحركت أصابعه من معصمها إلى أصابعها تحتضنها بلهفة..

وقف باسل خلفه ينظر إليه وإلى طريقة إمساكه يدها في دهشة، ثم لم يلبث أن ابتسم وهو يمس جبهته بأصابعه.. التفت إلى بسمة وتبادلا نظرةً خاصة ابتسمت على إثرها أيضًا..

نهض عمرو فجأة والتفت إلى بسمة قائلًا بهدوءٍ مصطنع: من الأفضل أن تكوني أنتِ بجوارها.

ثم تراجع ليقف جوار باسل الذي رمقه بنظرةٍ جانبية دون أن يعلق..

لم تتوقع بسمة منه ذلك في الواقع، لكنها أومأت برأسها متفهمة ثم جلست على طرف الفراش بجوار منى وأخذت تربت على وجنتها برفقٍ وهي تناديها في خفوت..

تأوهت منى بخفوتٍ شديد وهي تحرك رأسها، ثم صدرت منها بضع كلماتٍ غير مفهومة وهي تحاول بصعوبة فتح عينيها..

عادت بسمة تربت على وجنتها قائلة: منى.. عزيزتي.

ظلت منى على صمتها وسكونها لحظات، ثم صدرت منها كلمةٌ أخرى غير واضحة بخفوتٍ شديد..

لكن بسمة سمعتها..

سمعتها وفهمتها والتفتت إلى عمرو الذي وقف يراقب الموقف مواصلًا تظاهره بالهدوء..

ظهر التساؤل في عينيه، فأشارت إليها..

لم يبدُ عليه أنه فهم ما تقصده، فنقل بصره إلى منى ووجهها الهادئ الساكن ثم عاد إلى بسمة وهو يهم بقول شيءٍ ما و...

" عمرو "

كان هذا صوتها..

خافتٌ جدًا.. ضعيفٌ جدًا.. لكنه اخترق قلبه قبل أذنيه..

حدّق في وجهها الذي عاد إلى صمته وسكونه بدهشةٍ بالغة، ثم انعقد حاجباه في تأثرٍ وانفعالٍ شديدين..

إنها تهذي باسمه..

تناديه قبل حتى أن تستعيد وعيها..

تواثبت خفقات قلبه تستحثه أن يندفع نحوها مطلقًا كل لهفته وكل حبه..

لكنه لم يفعل..

بصعوبةٍ شديدة ظل واقفًا في مكانه محاولًا إخفاء مشاعره وانفعالاته وشاعرًا بأنفاسه تخرج بطيئةً ثقيلة..

لحظاتٌ مرت.. قامت بعدها بسمة وتحركت إلى خارج الغرفة وتبعها باسل في صمت مغلقًا الباب خلفه بهدوء..

وهنا أطلق عمرو لمشاعره العنان وتحرك..

تحرك نحوها وجلس على طرف فراشها ببطء محتضنًا يدها في حنان بالغ ومتطلعًا إليها بعينين تحملان الكثير والكثير مما بداخله..

كان من الواضح أنها تجد صعوبةً في استعادتها للوعي، فتارةً تحرك رأسها ويبدو عليها أنها تحاول فتح عينيها، وتارةً تبدو وكأنها غارقةٌ في نومٍ عميق..

تحركت يده تربت على وجنتها برفقٍ شديد، ففتحت عينيها في بطءٍ وضعف..

طالعها بانفعالٍ لم يستطع معه قول أي شيء، في حين تطلعت هي إليه في صمتٍ مماثل قبل أن تظهر على شفتيها ابتسامةٌ باهتة وتقول بخفوتٍ شديد: عمرو.

تهللت أساريره وابتسم في سعادةٍ بالغة شاعرًا بأن اسمه يبدو لذيذًا للغاية وهو يسمعه منها مجردًا مرة أخرى.. وبكل مشاعره المتأججة همس: أنا هنا.. أنا هنا إلى جوارك.

ظلت منى تتطلع إليه لحظات بملامح هادئة، ثم لم تلبث أن أغمضت عينيها ثانيةً وكأنها عادت لغيبوبتها وابتسامتها تتلاشى شيئًا فشيئًا..

عقد عمرو حاجبيه في قلق وقال بخفوت وهو يضغط على يدها: منى.

عادت منى تفتح عينيها في صعوبة وتتطلع إليه وإن بدت الحيرة على ملامحها هذه المرة، فابتسم وهو يدرك أنها لم تستعد وعيها كاملًا بعد، ربما تظن نفسها تحلم أوما شابه..

ولكم كان تخمينه صحيحًا!

وبقلبٍ امتلأ سعادةً وارتياحًا تأمل ملامحها الحيرى، ثم عاد يضغط على يدها ومد يده يلمس أرنبة أنفها بأصبعه قائلًا: حمدًا لله على سلامتك.

التقى حاجباها مع ملامسته أنفها وكأنما تعجبت أن يكون الحلم بهذه الواقعية، وتطلعت في دهشةٍ إلى وجهه المبتسم ثم إلى ما حولها وإدراكها يعود شيئًا فشيئًا..

ما هذا المكان الغريب.. أين هي؟!

يعود شعورها بجسدها فتشعر بالآلام في كل جزء منه..

رأسها أيضًا.. صداع.. صداعٌ شديد..

تأوهت في خفوت وهي تحاول النهوض فتنبهت لحظتها فقط أنها راقدةٌ على فراش..

أتاها صوته يقول: رويدك.

عادت تنظر إليه في دهشة..

أهذا عمرو فعلًا؟!

ما الذي أتى به إلى هنا؟!

بل ما الذي أتى بها هي إلى هنا؟!

كان تفكيرها مازال مشوشًا، لكن تساؤلها انتقل إلى لسانها فقالت: أين أنا؟

خرج صوتها واهنًا.. ضعيفًا.. خافتًا على نحوٍ أدهشها، في حين أجابها عمرو بخفوت: معي.

رددت بحيرة: معك؟!

أومأ برأسه إيجابًا لكنها شعرت أنها لم تفهم شيئًا، فقط تزايد الصداع فأغلقت عينيها في ألم..

كان يقصد بالطبع ألا يجيبها إجابةً واضحة، فماذا سيفيدها أن يخبرها أنها في المستشفى الآن وذهنها لم يستعد صفاءه بعد..

عادت تفتح عينيها وتتطلع إليه وقد بدأت تستوعب ما حولها..

يبدو المكان كغرفةٍ في مستشفى، ترقد هي على فراشٍ يتوسطها يجلس عمرو على طرفه بجوارها، ويمسك يدها و...

لحظة.. عمرو بجوارها ويمسك يدها!!

انتابها انفعالٌ مباغت وسحبت يدها من يده في سرعة..

لم تفلتها يده، بل تمسك بها وقال وهو ينظر لعينيها مباشرة: مهلًا..

ثم وبهدوءٍ أكثر وخفوت أكثر أكمل: أنا أجُس نبضك.

عاد حاجباها لينعقدا واحمر وجهها وهي تنظر إليه، في حين أفلت هو يدها في رفق وجس نبضها بالفعل، فدفع تسارعه إلى ثغره بابتسامة..

تضاعف احمرار وجهها، فقال بلهجةٍ حملت الكثير من مشاعره: حمدًا لله على سلامتك.. لقد أقلقتني عليك بشدة.

اضطربت خفقات قلبها مع كلماته، رغم أنها لم تفهم بعد ما الذي يحدث بالضبط..

وفي ارتباكٍ وحيرة، ترددت الكلمات على شفتيها ولم تعرف ماذا تقول، فلاذت بالصمت..

كان عمرو في هذه اللحظة يشعر بأنه في أسعد حالاته.. أسعدها على الإطلاق..

سعيدٌ لأنها بخير.. سعيدٌ لأنه معها..

أما هي فكانت في أكثر حالاتها ارتباكًا وحيرة..

لا تفهم شيئًا مما يحدث حولها، ويربكها بشدة كونها تنظر إليه من هذا الوضع النائم..

حاولت بصعوبة الاعتدال في الفراش، فقال في إشفاق: تشعرين بدوار.. أليس كذلك؟

أومأت برأسها إيجابًا وهي تعتدل بالفعل شاعرةً برأسها يدور بشدة، ثم قالت وهي تمسك رأسها بكلتا يديها: أشعر بصداعٍ شديد.

ابتسم مشجعًا وقال: اطمئني... سيزول كل هذا خلال وقتٍ قصير.

ثم قام من مكانه ودار حول فراشها يوقف سريان المحلول الذي فرغت زجاجته أو كادت..

انتبهت في هذه اللحظة إلى تلك القناة الوريدية المثبتة إلى يدها فرفعتها تتطلع إليها، لكنها فوجئت بعمرو يعاود الجلوس على الطرف الآخر للفراش ثم يمسك بيدها تلك قائلًا وهو ينظر لعينيها مباشرةً: قد تؤلمك قليلًا.

جاوبته بصمتٍ مطبق ووجهها يعاود الاحمرار، بينما أزال هو القناة الوريدية بسرعةٍ واحتراف.. آلمتها قليلًا بالفعل إلا أن شعورها بالألم تاه وسط مشاعرها الأخرى وهي تنظر إليه..

ماذا يحدث.. ولماذا هي هنا؟!

لماذا هو معها.. ولماذا يبدو وسيمًا للغاية هكذا؟!

تدافع قلبها في خفقاته أكثر عندما عاد يرفع عينيه إليها بعدما أنهي ما يفعل بوضع لاصقٍ طبى صغير..

كان لا يزال ممسكًا بيدها فحاولت سحبها، لكنه ولمرةٍ أخرى لم يفلتها، بل مال نحوها قائلًا في خفوت: يدك دائمًا باردة!

ازداد احمرار وجهها ودفء يده ينساب إلى يدها التي ضمها أكثر..

رفعت يدها الأخرى بارتباك تزيح خصلات شعرها عن وجهها لتنتبه لحظتها فقط إلى أنه حرٌ طليق، فاتسعت عيناها لحظةً ثم غمرها الخجل من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها وتحاشت النظر تمامًا إلى عمرو الذي أفلت يدها في رفق وابتسم وهو يتأمل وجهها واحمراره شاعرًا لمرةٍ أخرى بأنه لم يرها بهيئةٍ أجمل من هذه من قبل..

- آسف.. لكنك كنت على وشك الاختناق.

كان هذا ما قاله بعد هنيهةٍ من الصمت، فرفعت عينيها إليه وقالت بصوتٍ حمل على الرغم من ضعفه لهجةً حائرة: ماذا حدث ولماذا أنا هنا؟!

قال بهدوء: ألا تذكرين شيئًا؟

هزت رأسها نافيةً في بطء، ثم قالت: كنت في الجامعة مع بسمة صديقتي و...

صمتت تحاول التذكر، فتنهد قائلًا: المصل المضاد للتيتانوس..

تذكرت أمره بغتة ورفعت يدها لترى جرحها الذي ضُمد بعناية، في حين أكمل هو: لديك تحُسسٌ رهيب منه.

عقدت حاجبيها وقد بدأت تفهم، بينما تابع هو: لم تمضِ دقائق على سريانه في دمك حتى رفضه جسدك تمامًا مسببًا صدمة حساسيةٍ حادة.

اتسعت عيناها في انفعال وقد أدركت أنها كانت بالفعل على حافة الموت..

استطرد عمرو متجاهلًا التفاصيل عن عمد: كنت أنا في الجامعة ورأيتك تفقدين الوعي وسط زملائك فأتيت بك إلى هنا مع صديقتك بسمة، وبفضلٍ من الله عز وجل نجوت في الوقت المناسب.

طالعته منى في صمت وعشرات الانفعالات تتدافع داخلها..

هو مرةً أخرى..

في كل مأزقٍ تقع فيه.. تجده هو!

من كل خطرٍ تواجهه.. ينقذها هو!

طال الصمت بينهما وكلاهما يتطلع إلى الآخر..

كانت شاردة في أفكارها، وكان هو شاردًا فيها..

شعر بانفعالاته تتزايد فقال بغتة: أنت متعِبة!

انتفضت انتفاضةً خفيفة ثم خفضت عينيها شاعرةً بالذنب، بينما أردف هو بلهجةٍ مغايرة تمامًا.. لهجةٍ حملت كل مشاعره: ماذا كان سيحدث لي لو أصابك مكروه؟

لم تنتبه إلى عذوبة كلماته ورقتها وما تحمله من مشاعر واضحة، فقد كانت غارقةً في لومها لنفسها..

" هو على حقٍ تمامًا.. أنا لا أجلب له سوى المتاعب.. ألا يكفي تطفلي السابق عليه "

هكذا قالت لنفسها لائمة وشعورها بالحزن يعاودها.. رفعت إليه عينيها وقد ترقرقت فيهما الدموع وقالت في خفوتٍ شديد: نعم.. أنت على حق.

كانت تقصد قوله لها بأنها متعِبة وكأن كلماته التالية لم تصل إلى عقلها مطلقًا..

التقى حاجباه في قلقٍ ودهشة، وقبل أن يقول أي شيء انهمرت دموعها في غزارةٍ وهي تقول:

أنا آسفة.. حقًا آسفة.. أنا لا أجلب لك سوى المتاعب.. لا أعرف ما الذي...

قاطعها محاولًا تهدئتها وقد أربكه بكاؤها المفاجئ هذا: أية متاعب.. منى.. أرجوكِ لا تبكي.

لكنها واصلت بكاءها وكلامها..

- أنا فعلًا لم أقصد هذا.. لم أقصد أبدًا أن أتطفل عليك.

بارتباكٍ أكبر قال: منى.. اهدئي أرجوك.

- لقد كنت.. كنت فقط أحاول أن...

لم تتم عبارتها.. تضاعف بكاؤها بغتة على نحوٍ لم تستطع معه النطق بحرف..

أما هو.. فكان في أوج انفعاله يتطلع إليها في صمت..

لقد أدرك عما تتحدث.. ليس ما حدث اليوم فحسب، بل عن رسائلها أيضًا..

تعتذر عنها باعتبارها تطفل بسبب ما أظهره لها ساعتها من لا مبالاةٍ وعدم اهتمام..

أدرك حتى ما لم تستطع قوله وتسبب في زيادة بكائها..

أدرك إلى أي حدٍ ارتبكت مشاعرها واضطربت بسببه..

أما ما لم يدركه، فهو كيف يتصرف الآن؟!

دموعها تواصل الانهمار حارةً غزيرة على قلبه أيضًا وليس على وجهها فقط! وعلى نحوٍ يجعله يبذل قصارى جهده كي لا يضمها ويحتويها بين ذراعيه لتفرغ مشاعرها كلها على صدره..

شعوره بأنها تقول مثل هذه الكلمات وهو يعرف يقينًا أنها تحبه يؤلمه ويعذبه..

لا يعرف حقًا ماذا يفعل..

كيف يوقف بكاءها.. كيف يشرح لها حقيقة مشاعره..

أراد أن يهتف يقاطعها " أنا أيضًا أحبك "..

لكنه لم يستطع..

حاول.. لكن لسانه لم يطاوعه، فاندفع قلبه بدقاتٍ عنيفة وكأنه يعترض على صمته..

اندفع يستحثه.. هيا.. انطق..

وقبل أن يحاول قول أي شيء، عادت هي تقول من بين دموعها: أنا...

لم تتم عبارتها هذه أيضًا.. ليس بسبب بكائها، بل بسببه هو..

فوجئت به يرفع يده حتى لامست أصابعه شفتيها تمنعها من مواصلة الكلام..

رفعت عينيها المغرقتين بالدموع إلى عينيه فتطلع إليهما في صمت..

لم يفُه بحرف.. فقط تحركت أصابعه من شفتيها إلى وجنتها تمسح دموعها في رفق..

توقفت عن البكاء مع لمساته وعيناها تتعلق بعينيه..

ودون أن يبعدهما، احتوى يديها الاثنتين بيديه الاثنتين ثم همس: وجودك إلى جواري هو أفضل ما حدث لي في حياتي كلها.

أنّ قلبها بخفقةٍ عنيفةٍ مفاجئة وحدقت في وجهه غير مصدقة لما تسمعه، في حين شعر هو أنه لو ظل أمامها واستمرت تنظر إليه هكذا للحظةٍ أخرى فلن يعلم ما الذي يمكن أن يفعله بالضبط.. لهذا ترك يدها على الفور ونهض قائلًا بمرحٍ مصطنع: بالمناسبة.. صديقتك بسمة بالخارج تكاد تموت قلقًا عليك.

لم يبدُ عليها أنها سمعت عبارته تلك وظلت تتطلع إليه على نحوٍ كاد يفقده السيطرة بالفعل، لكنه تحرك مبتعدًا في سرعة وهو يقول: ستكون معك حالًا.

خرج من الغرفة بالفعل وحافظ على مرحلة المزيف وهو يقول لبسمة: إنها تريدك.

قالت بسمة متظاهرةً بالغضب: أخيرًا تذكرتني.

ابتسم كلاهما، فقال: ساعديها لتتحرك في الغرفة قليلًا لتتغلب على الدوار.. سأعود خلال عشر دقائق.

أومأت برأسها متفهمة ثم دلفت إلى الغرفة بلهفة..

ما إن أُغلق الباب حتى أفرغ عمرو صدره كله في زفرةٍ عميقة وألقى نفسه على أقرب مقعد صادفه، فمال عليه باسل وقال بابتسامةٍ كبيرة: كيف حالك الآن؟

جاوبه عمرو بزفرةٍ أخرى ثم قال وهو يستند على ركبتيه بمرفقيه: متعبٌ بشدة.

أطلق باسل ضحكةً قصيرة وقال: هذا رائع!

ابتسم عمرو على الرغم منه قائلًا: وما الرائع في هذا؟

أجابه باسل في سرعة: أنه تعبٌ لذيذ.. أليس كذلك؟

اعتدل عمرو والتفت إليه متسائلًا: كيف تعرف هذه الأشياء؟!

تنهد هو هذه المرة وبدلًا من أن يجيبه قال: أتعلم؟ أنا أحسدك!

تعجب عمرو لقوله، لكنه قال فجأة مغيرًا دفة الحديث: المستشفى كلها الآن تتحدث عنك وعن فتاتك.. حاول أن تتصرف.

- لا تشغل بالك.. هذا لا يهمني.. سأغادر بها المستشفى خلال دقائق.

- حقًا! توقعت أن تُبقيها معك بعض الوقت.

- لقد استعادت وعيها وأصبحت بخير، فما الذي سيبقيها في المستشفى؟

هز باسل كتفه وقال مازحًا: إن أردت لن يعجزك إيجاد الأسباب.

ابتسم عمرو وقال: ليس إلى هذا الحد.. كما أن أسرتها قلقةٌ عليها.

مط باسل شفتيه بمعنى أن هذا شأنه، فقال عمرو: بالمناسبة.. أدين لك بالشكر.

- على ماذا؟

- على اهتمامك.. لقد وجدت كل شيءٍ أردته في انتظاري، ولولا وجودك هنا لضاع الكثير من الوقت قبل أن...

قاطعه باسل وهو يربت على كتفه: ماذا تقول يا رجل.. أيعقل أن يطلب منى أعز أصدقائي طلبًا وأخذله.

صافحه عمرو في قوة قائلًا: هذا ما توقعته بالفعل.. حسنًا.. أنا ذاهب الآن..

أشار باسل إلى غرفة منى وقال: ألم تقل أنك سوف...

قاطعه عمرو: أجل.. لكني سأحضر شيئًا من السيارة أولًا.

تحرك باسل يتقدمه قائلًا: أنا قادمٌ معك إذًا.. هناك بعض الحالات تنتظرني في الاستقبال.

****

* ١٦ *

*** ما إن أغلقت الباب حتى اندفعت بسمة نحو منى تحتضنها في قوة.. ومن بين دموعها قالت: حمدًا لله على سلامتك.

بكت منى أيضًا و أسندت رأسها على كتف بسمة التي ربّتت على شعرها و هي تقول مجددًا: الحمد لله أنك بخير.

ثم أمسكت كتفها وأبعدتها وقالت مازحة: هكذا.. كدت تموتين هكذا ببساطة وتتركينني وحيدة.. من سيرفع ضغطي إذًا ويطير أبراج عقلي من أفعاله؟

ابتسمت منى على الرغم عنها ومسحت دموعها، فعادت بسمة تقول: كيف حالك الآن؟ بماذا تشعرين؟

أشارت منى إلى رأسها وقالت في خفوت: دوارٌ شديد وصداعٌ أشد.

أمسكت بسمة ذراعها وقالت: تعالي أعاونك على النهوض.

بدا على منى التردد وكأنها لا تجد في نفسها القدرة على فعل ذلك، فجذبتها بسمة برفقٍ قائلة: هيا.. إنها أوامر طبيبك الخاص.. سيزول الدوار بالتدريج إن تحركت.

ابتسمت منى وقامت معها في بطء.. وما إن وضعت قدميها على الأرض حتى شعرت بالدوار يتضاعف، فتشبثت بذراع بسمة التي قالت: أنا أمسك بك.. لا تخافي.

مرت لحظات قبل أن تستطيع الوقوف باتزان، ثم تركت ببطء في أنحاء الغرفة مستندةً على ذراع بسمة وشعرت بالفعل أنها أفضل وإن لم يزل الدوار تمامًا..

وبينما هما كذلك قالت بسمة: علينا أن نغادر سريعًا فلا بد أن والديك الآن يكاد يقتلهما القلق.

- أبي وأمي.. هل عرفا.. أين هما الآن؟

- ينتظرانك في المنزل.

- بماذا أخبرتهما؟

ترددت بسمة لحظةً ثم قالت: لم أخبرهما أنا في الواقع، بل عمرو.

بدت عليها الدهشة بينما بسمة تُكمل: طلب مني الاتصال بوالدك ثم حدثه هو وأخبره.. أقنعه أيضًا أنه لا داعي لحضوره لأنه سيعيدك بنفسه فور استعادتك للوعي.

- ماذا؟!!

قالتها منى مستنكرة، فابتسمت بسمة ولم ترد، فعادت منى تقول: وهل وافق أبي على شيءٍ كهذا؟

- بالتأكيد كان قلقًا عليك جدًا ولكن يبدو أن عمرو أصّر على ذلك.

قالت في ارتباكٍ ووجهها يحمر: لـ.. لماذا أعود معه هو.. أنا.. أنا أريد أبي.

هزت بسمة كتفها وقالت: حسنًا.. أخبريه أنت بذلك.. سيعود بعد قليل.

زاد احمرار وجهها ولم تدرِ ماذا تفعل، فواصلت تحركها ثم قالت: بسمة..

- إمم.

تساءلت بحيرة: ماذا حدث بالضبط؟

قالت بسمة بهدوء: ألم يخبرك عمرو؟

أومأت برأسها وقالت: بلى.. ولكن كيف صادف أن كان في الجامعة؟ أكنت أنت من طلب منه أن يأتي بي إلى هنا؟

- طلبت منه؟!

قالتها بسمة ضاحكة..

تطلعت إليها منى باستغرابٍ وتساؤل، فربتت على كتفها وقالت: سأخبرك بكل شيءٍ عندما نعود.

- أخبريني الآن أرجوك.

قالتها منى في توسل ولهفة..

- الوقت غير مناسب الآن.

- أرجـوكِ.

قطع حوارهما صوت طرقاتٍ هادئة على الباب فالتفتت كلتاهما متوقعتين ظهور عمرو، لكنها كانت إحدى الممرضات التي دخلت قائلة: د. عمرو طلب مني إعطائك هذا وإخبارك أنه قادمٌ خلال دقائق.

ناولت ما تحمله إلى بسمة وانصرفت على الفور..

قالت منى مندهشةً و بسمة تناولها حجابها: أين كان هذا؟

أجابتها باقتضاب: في سيارته.

عاد وجه منى يحمر وهي تقول مستنكرة: سيارته! ولماذا؟!

قالت بسمة بغيظ: منى.. كفاك أسئلة ذكية.. لقد كنت فاقدة الوعي وكنت تفقدين قدرتك على التنفس تدريجيًا.. تورم جسدك كله تقريبًا وكل هذا خلال دقائق معدودة.. أي أنك كنت على حافة الموت.. لا يُعقل أن تسألي لماذا !

بهتت منى لما سمعته ولم ترد.. تعرف هي بالطبع أعراض صدمة الحساسية الحادة، ولكن أن تتخيل هذا يحدث لها فهذا صعبٌ بعض الشيء..

قادتها بسمة نحو الفراش وأجلستها على طرفه قائلة: والآن هيا.. دعيني أضعه لك قبل أن يأتي.

ثم أردفت بخبث: أم تريدين أن تبقي هكذا.. بشعرك الجميل؟

غمرها الخجل ثانيةً وقالت بسرعة: كلا بالطبع.

ضحكت بسمة ثم لملمت لها شعرها وعقصته كيفما اتفق، ثم لفت لها حجابها بطريقةٍ بسيطة وثبتته بدبوسٍ واحد أعارتها إياه من حجابها هي.

همست منى معترضة: سينزلق هكذا بسهولة.

- لست أمتلك سوى دبوسين أعطيتك واحدًا.. كفاكِ طمعًا.. أنا لا أستخدم مثلك ترسانة من الدبابيس.

مطت شفتيها في اعتراض وبسمة تنهي ما تفعله ثم تجلس بجوارها على الفراش..

سألتها في خفوت قالت: كيف أبدو؟

ابتسمت بسمة ثم قالت بلهجة من يقصد المبالغة: قمـــر.

عقدت منى حاجبيها في شك وهمت بقول شيءٍ ما، لكن بسمة قالت بغتة: لحظة..

مدت يدها تجذب خصلةً صغيرة من شعر منى لتنسدل على جبهتها، وقالت وهي تضحك مازحةً في مرح: هكذا أجمل.. ما رأيك.

أبعدت منى يدها وهي تقول معترضة: بسمة!

واصلت بسمة الضحك في حين أعادت هي شعرها إلى مكانه أسفل الحجاب قائلة: لولا هذا الدوار لكنت...

قطع حديثهما مرةً أخرى صوت الطرقات على الباب الذي فُتح بعدها بلحظات ليطل منه عمرو..

تسارعت واضطربت خفقات قلبها بشدة وهي تراه مجددًا، وفوجئت بعبارته الأخيرة تردد داخلها عازفةً على أوتار مشاعرها..

" وجودك إلى جواري هو أفضل ما حدث لي في حياتي كلها "..

خطا عمرو إلى داخل الغرفة وابتسامته تملأ وجهه قائلًا بهدوءٍ ظاهري استطاع أن يخفي به انفعالاته الحقيقية، وإن لم يستطع إخفاء نظراته الحنون المحملة بالمشاعر إلى منى: كيف حالك الآن؟

أرادت أن تجيب بسرعةٍ وهدوء أنها بخير، لكنها وجدت نفسها تحدق في وجهه وابتسامته لحظات قبل أن تستطيع التحدث وكأنها لا تستطيع فعل الاثنين في وقتٍ واحد!

وأخيرًا قالت بخفوت: الحمد لله.. أفضل.

أثارت نظراتها هذه مشاعره بشدة على نحوٍ جعله يدرك حقيقةً واحدة..

أنه يعشـــــــــق ما يلمحه في عينيها عندما تراه لأول وهلة.. بالذات أول وهلة.. وكأن كل مشاعرها تتحرك دفعةً واحدة لتطل بوضوحٍ من عينيها قبل أن تستطيع كبح جماحها أو السيطرة عليها..

واصل تمسكه بهدوئه الظاهري بصعوبةٍ وقال: عظيم.. هيا بنا إذًا؟

نهضت بسمة على الفور وساعدت منى على النهوض والتي بدا عليها التردد والحرج، وقد لاحظ عليها عمرو ذلك فقال وهو يقترب منها: أهناك ما يقلقك؟

قالت في ارتباك: كلا ولكن.. لماذا لم يأت أبي؟

أجابها بهدوء: لقد اتصل بي قبل مجيئي بلحظات وطمأنته عليك وأخبرته أننا عائدون حالًا.

- ولكن...

صمتت حائرةً لا تعرف ماذا تقول.. فقال مكررًا كلمتها يحثها على إتمام عبارتها: ولكن...؟

قالت بتردد: ألن يعطلك هذا عن عملك؟

تطلع إليها لحظاتٍ في صمت ثم قال: آه.. فهمت.

زاد ارتباكها فلاذت بالصمت، في حين قال هو: حسنًا.. رفضتِ أن أُقِلك مرةً و وافقتك على ذلك وكنت أحمق.. هذه المرة لن أوافقك مهما فعلت.

قال الجزء الأخير من عبارته وهو ينظر إلى عينيها، ففاضت دقات قلبها سعادةً وقالت محاولةً التهرب من مشاعرها: ألم تقل أني متعِبة.. يكفي ما أتعبتك به اليوم.

هز كتفه وقال: أجل.. متعبةٌ جدًا !!

ثم أردف مبتسمًا: لكني تعودت على ذلك.

عقدت حاجبيها في عنادٍ طفولي ولم تتحرك من مكانها، فاتسعت ابتسامته ثم قال ملتفتًا إلى بسمة: ما رأيك أنت د. بسمة.. لقد جئت بها إلى هنا وأنا أحملها وليس لدي أي مانع أن أغادر وأنا أحملها أيضًا.

بدا على وجهها استنكارٌ ودهشة تعلثم لهما لسانها وتوردت وجنتاها، فأطلق عمرو ضحكةً قصيرة ثم قال: سأسبقكما إلى الأسفل.

ثم أشار بيده إلى منى مكملًا وهو يغادر الغرفة: سأنتظرك.

غادر الغرفة بالفعل، فالتفتت منى إلى بسمة قائلة بانفعال: ماذا يقول؟؟

ضحكت بسمة بدورها وقالت: تستحقين ذلك.

نظرت لها منى باستنكار، فجذبتها من ذراعها في رفقٍ قائلة: هيا بنا.

مشت منى معها على الرغم منها وقد جعلت عبارة عمرو الأخيرة الاحمرار يلازم وجهها..

أتى إلى هنا وهو يحملها؟!!

لم تتوقع ذلك.. بل لم تتخيله حتى!

لقد تصورت أن هناك سيارة إسعاف أو أي شيءٍ من هذا القبيل.. أما أن يحملها هو..!!

تتضاعف احمرار وجهها وهي تمشي في بطء متأبطةً ذراع بسمة.. وطوال طريقهما إلى خارج المستشفى لاحقتهما نظرات الفضول من جميع العاملين خاصةً الممرضات وكأنما يتساءلن.. " من هذه التي يهتم د. عمرو بأمرها إلى هذا الحد؟! "

ما إن غادرا المستشفى حتى وجدا عمرو بانتظارهما بجوار سيارته ومعه باسل.. كانا يتحدثان في هدوء.. ومع اقترابهما قال باسل لعمرو وهو يصافحه: أراك غدًا يا صديقي.

ثم التفت إلى بسمة و منى قائلًا: حمدًا لله على السلامة.. إلى اللقاء.

ردت بسمة مبتسمة: إلى اللقاء.

تحرك عائدًا إلى المستشفى ملوحًا لهم بيده.. فمالت منى على بسمة هامسة: من هذا؟

همست بسمة باقتضاب: صديقه.

أشار عمرو إلى الباب الخلفي قائلًا في هدوء: تفضلا.

بدا عليهما التردد وأشارت بسمة إلى المقعد الأمامي قائلة: ألن...

قاطعها وقد فهم حرجها من ترك المقعد الأمامي خاليًا: لا بأس أبدًا .. ابقي بجوارها.

كانت منى تشعر بإحراجٍ شديد منه وتتزايد انفعالاتها بشدة عندما تنظر إليه على نحوٍ يضاعف شعورها بالدوار والصداع.. لذا تحاشت النظر إليه تمامًا و بسمة تفتح الباب وتساعدها على الجلوس..

وبينما تدور بسمة حول السيارة لتجلس بجوارها من الجهة الأخرى، أمسكت جبهتها بيدها وهمت بغلق بابها لكنها وجدته يغلق في هدوء ومن خلفه عمرو ينظر إليها في إشفاق..

منحها ابتسامةً من خلف الزجاج أذابت أوصالها، ثم استقل السيارة وانطلق بها في هدوء، بينما اقتربت منها بسمة وأراحت رأسها على كتفها..

كان والد منى بالطبع ينتظرهم أمام البناية بينما تطل والدتها من نافذة حجرتها وقد بدا واضحًا أنه لم يستطع أن يُخفي عليها الأمر طويلًا..

وما إن أوقف عمرو السيارة حتى اندفع والدها يفتح الباب ويساعد ابنته على المغادرة ويحتضنها في حنان بالغ قائلًا: حمدًا لله على سلامتك يا ابنتي.. حمدًا لله.. كيف حالك الآن.. أأنت بخير؟؟

قالت على الفور: أنا بخيرٍ يا أبى.. لا تقلق.

تطلع والدها إلى وجهها لحظات ثم عاد يحتضنها وهو يقول: الحمد لله.. الحمد لله.

كانت بسمة قد غادرت السيارة بدورها فربت على كتف ابنته وتركها لها تعاونها على الصعود إلى المنزل، ثم التفت إلى عمرو الذي غادر السيارة لتوه وصافحه بقوة قائلًا في امتنان: د. عمرو.. لست أعرف كيف أشكرك.

قال عمرو مبتسمًا: ماذا تقول يا م. محمد.. لم أفعل سوى ما يجب عليّ فعله.

امتد الحوار بينهما لفترة، ما بين شكر والد منى الشديد له وتعبيره عن امتنانه، وردود عمرو الأنيقة اللبقة..

وفي هذه الأثناء صعدت منى إلى منزلها لترتمي بين أحضان أمها المتلهفة القلقة التي أخذت تمتم بحمد الله وتقبل ابنتها في كل مكانٍ تطاله من وجهها..

فوجئت بها بسمة تترك منى وتحتضنها هي قائلة: شكرًا لك يا ابنتي.. أنت بالفعل نعم الصديقة.. بوجودك أشعر أن لمنى أختًا لم أنجبها لها.

رتبت بسمة على كتفها وقالت بتأثر: هذا بالفعل ما أشعر به أنا أيضًا.

ثم أردفت وهي تستعيد مرحها: ثم إنني لم أفعل شيئًا سوى البكاء بجوارها كالبلهاء.

ضحكت منى بينما أكملت بسمة: جاركم الطبيب الواقف بالأسفل هذا هو الذي يستحق الشكر لا أنا.

قالت الأم مبتسمة: كلاكما.

ثم التفتت إلى منى قائلة: لابد أن والدك الآن يشكره بشدة.

مع ذكر عمرو أحست منى برغبةٍ عارمة في أن تراه لمرةٍ أخيرة قبل أن يذهب، فأمسكت برأسها وتأوهت في خفوت فقالت والدتها في قلق: ماذا هناك يا حبيبتي.. أأنت بخير؟

قالت منى في إرهاق: نعم يا أمي.. لكني أشعر بدوار وصداع.

بدا عليها القلق الشديد فقالت بسمة بسرعة: هذا طبيعي لا تقلقي.. د. عمرو قال أنه سيزول وحده بمرور الوقت.. فقط عليها أن ترتاح جيدًا إلى أن يستعيد جسدها عافيته.

ثم أردفت وهي تعاون منى على النهوض: هيا إلى غرفتك.. أنت بحاجة إلى الراحة.

قالت الأم: أنت على حق.. خذيها إلى غرفتها وسأعد لكما وجبةً سريعة فلا بد أنكما جائعتان.

دلفت منى إلى الحجرة واتجهت على الفور نحو النافذة التي تركتها والدتها مفتوحة..

أطلت منها بحذر وتبعتها بسمة قائلة: أما زالا بالأسفل؟

- اعذرني.. ربما في مرةٍ أخرى فلقد تأخرت كثيرًا عن العيادة.

كانت هذه عبارة عمرو التي حملت اعتذاره العاشر على الأقل، ليرد والد منى قائلًا: هذا لا يجوز يا بُني.. تفضل ولو لتستريح قليلًا.

- أشكرك.. ولكن بالكاد أذهب.

- وماذا عن حساب المستشفى.. ألن تريحني وتخبرني؟

- لا توجد أي حساباتٍ صدقني.. هذا شيءٌ خاص بيني وبين المستشفى.

- إنه مستشفىً استثماري يا بنى، وحتى لو أنك تعمل هناك فلابد أن هناك مالًا سيدفع ولن أقبل أبدًا أن تدفعه أنت.. يكفي جميلك بإنقاذ ابنتي.

- أرجوك م. محمد.. لا تحرجني أكثر من هذا.

- أنت الذي تحرجني د. عمرو.

- دعنا لا نتحدث في مثل هذه الأمور.. الأمر لا يستحق.

- ولكن...

- أرجوك.. وإن كان هذا لا يضايقك، أرجو أن تسمح لي بأن أتصل لأطمئن عليها.

- لا بأس يا بني.. هذا لا يضايقني على الإطلاق.

- شكرًا لك.

عاد والدها يصافحه قائلًا بتأثر: أنا الذي أصبحت عاجزًا عن الشكر.

ابتسم عمرو وقال: أستأذنك أنا الآن.

- تفضل يا بني.. صحبتك السلامة.

استقل عمرو السيارة ودار بها يعدل من وضعها، فلوح له والدها بيده ثم اتجه إلى البوابة صاعدًا إلى منزله..

وقبل أن ينطلق عمرو في طريقه، فعل ما كان يقاوم أن يفعله طوال حديثه معه..

رفع بصره إلى نافذتها..

ورغم أنه يعلم يقينًا أنه سيجدها، دق قلبه في قوة عندما وقع بصره عليها وابتسم..

أما هي فلم تجفل من رؤيته لها هذه المرة.. لقد عرف كل شيءٍ فماذا ستخفي عنه، لهذا وجدت نفسها تبتسم لابتسامته وتلك العبارة التي قالها لها في المستشفى تردد داخلها..

ابتسمت بسمة هي الأخرى في سعادة لمنظرهما والذي بدا رائعًا، في حين لوح لها عمرو بيده ثم أشار بسبابته بمعنى " انتبهي لنفسك ".. ثم تحرك بالسيارة مبتعدًا في هدوء..

وكالمعتاد.. بقيت منى حيث هي شاردةً حتى بعد ذهابه، بينما تراجعت بسمة إلى الداخل لتجد والدة منى واقفة بجوار الباب تحمل الطعام وترمق ابنتها في حنان..

تطلعت إليها بسمة مندهشة، فابتسمت ووضعت الطعام جانبًا ثم وضعت سبابتها على شفتيها وهمست: شششش.. لا تخبريها.

دخل والدها في هذه اللحظة قائلًا في لهفة: منى حبيبتي.. كيف حالك الآن؟

- الحمد لله يا أبي.. صدقني أنا بخير.

ثم أردفت وهي تنظر لأبيها وأمها: لا أريدكما أن تقلقا أبدًا.

ربّت والدها على كتفها في حنان مغمغمًا: الحمد لله.

قالت بسمة وهي تتثاءب في إرهاق: سأترك لكما الآن ابنتكما المتعبة وأذهب أنا فقد تعبت منها أيضًا.

قالت الأم بسرعة: لن تذهبي قبل أن تتناولي الطعام.

بينما قال الأب ممتنًا: لست أعرف كيف أشكرك يا ابنتي على...

قاطعته بسمة: أي شكر يا عمي.. منى أختي وليست صديقتي فقط.. ثم إنني لم أفعل شيئًا يستحق.. لقد قدر الله لها النجاة والسبب في ذلك كان وجود د. عمرو في اللحظة المناسبة.

أومأ برأسه مصدقًا على كلامها وقال: هو وأنتِ أيضًا يا ابنتي.. وأنتِ أيضًا.. لم أكن أعرف أنك تعرفينه.. لقد أخبرني أنك من عرّفته بأن منى هي ابنتي..

كان ما قاله مفاجئًا لها و لمنى أيضًا.. هي لا تعرف ماذا قال له عمرو وكيف شرح له معرفته بمنى.. لكنها تجاوزت المفاجأة بسرعة وقالت: نـ.. نعم.. هذا صحيح.

- أخبريني كيف حدث كل هذا؟

جلست بسمة وقصت عليه ما حدث دون الدخول في الكثير من التفاصيل، وفي النهاية قالت: أنا أعرفه شكلًا.. أنا و منى نراه أحيانًا ونحن عائدتان من الجامعة.. وعندما كان يطمئن عليها ويخبرني أنها تجاوزت الخطر وستستعيد وعيها سريعًا، أخبرته أنني أعرفه وأنها جارته.. ولما ذكرت له اسمك أخبرني أنه يعرفك شخصيًا وساعتها طلب منى الاتصال بك.

كانت منى تستمع لها بانتباهٍ شديد فهي الأخرى لا تعرف تفاصيل ما حدث بالضبط، لكنها أحست أنها لم تقل أشياء كثيرة.. أما الجزء الأخير فكانت على يقينٍ بأنه ارتجالٌ سريع ليس إلا!

قال والدها: حقًا.. كم هو إنسانٌ شهم ومهذب.

ابتسمت كلتاهما بينما هو يكمل: ولا أعرف حقًا كيف أرد له هذا الجميل.

نظرت والدة منى لابنتها نظرةً ذات معنى لم تفهمها سوى بسمة ثم قالت مخاطبة زوجها: ربما تعرف فيما بعد.. هيا الآن نتركهما يستريحا قليلًا.

قال وهو يتحرك معها إلى خارج الغرفة: أنت على حق.. خذوا راحتكم يا فتيات.

قالت بسمة: سأذهب أنا أيضًا.. سأموت من التعب.

ثم مالت تطبع قبلةً على وجنة منى التي قالت هامسة: مازال هناك الكثير لا أعرفه.. أليس كذلك؟

ردت هامسة أيضًا: بالطبع.. الكثير جدًا.

نظرت لها منى بلهفة فقالت: غدًا.. سأمر عليك بعد عودتي من الجامعة.. اتفقنا؟

- حسنًا.

- بالمناسبة.. هل تعلم والدتك بأمرك أنت و عمرو.

- كلا بالطبع!

عادت بسمة تميل نحوها وهمست في أذنها: أنت بلهاء.

بدا على منى التعجب لكن بسمة لم تقل المزيد.. قامت في سرعة قائلة: أراك غدًا.

****

* ١٧ *

الأخير

*** بعد ثلاثة أيام..

كانت بسمة في غرفتها تراجع بعض المحاضرات عندما دخلت عليها أختها الصغرى تقول لاهثة: اتصال لك يا بثمة.

كان هاتفها على المكتب أمامها، فالتفتت إلى أختها مندهشةً لتجدها تمسك بهاتف والدتها.. يبدو أنها كانت تلعب عليه لعبةً ما عندما أتاها ذلك الاتصال..

التقطته منها بحذر قائلة: من؟

همست الفتاة الصغيرة بخطورة: ولدٌ يقول اسمه دكتور عمرو.

حدقت بسمة في وجه أختها بدهشةٍ بالغة..

عمرو !! ماذا يظن نفسه فاعلًا؟!

وضعت الهاتف على أذنها في ارتباك، وقالت بصوتٍ حاولت التحكم في هدوئه: مرحبًا..

أتاها صوته يقول في هدوءٍ يحمل لمحةً واضحة من الاحراج: مرحبًا د. بسمة.. آسفٌ جدًا على الإزعاج وعلى الاتصال نفسه.

أجابته سريعًا: لا عليك د. عمرو.

فأردف: لقد كان هذا الرقم مسجلًا على هاتفي منذ يوم المستشفى وكنت أود سؤالك عن شيءٍ ما فسمحت لنفسي بالاتصال.. أرجو ألا يسبب لك ذلك أي نوعٍ من الحرج.

خفضت بسمة بصرها إلى أختها التي تطالعها بعينين متسعتين وشفتين منفرجتين.. تعلم أنها ستحفظ كل كلمةٍ تسمعها عن ظهر قلب، لكنها واصلت التظاهر بالهدوء قائلة: مطلقًا.. أنت على الرحب.. خيرًا؟

استمعت إليه وهو يخبرها بما يريد السؤال عنه وغمرتها الدهشة، لكنها لم تلبث أن ابتسمت وقالت: حسنًا.. سأخبرك.

****

*** اليوم التالي كان أول أيام منى في الجامعة منذ الأحداث الأخيرة..

كانت متألقةً جدًا أنيقةً جدًا.. ومن داخلها سعيدة جدًا..

وقد استقبلها كل من تعرفه تقريبًا بالسلام الحار وحمد الله على سلامتها، ولم يخلُ الأمر من همسات بعض صديقاتها: من هذا الوسيم يا عفريتة؟

فتبتسم لهم ثم تقول بلهجةٍ عابثة: لا أعرف.. ربما هو ملاكي الحارس!!

تغمغم بسمة بصوتٍ لا يسمعه سواها: هو كذلك بالفعل!

تنظر كل منهما إلى الأخرى ثم تضحك كلتاهما في مرح..

كانت أولى المحاضرات على وشك البدء عندما مالت بسمة على أذنها قائلة: ما هذا المرح وهذا التألق.. أخشى أن أعتاد على هذا.

ابتسمت منى ابتسامةً كبيرة وقالت: ستعتادين.

ضحكت بسمة، فعادت تقول: هل تعرفين؟

استندت بسمة على قبضتها المضمومة وقالت: أممم..

استطردت منى بابتسامتها تلك: لقد اتصل بأبي مرتين ليطمئن عليّ.

- حقًا؟

أجابتها منى ووجهها كله ينطق بالسعادة : أجل.

- طبعًا طلب إن يتحدث معك!

كانت بسمة تمزح بالطبع، فلكزتها منى بمرفقها في رفق وقالت مازحةً هي الأخرى: أنا التي كنت أقاوم بصعوبة ألا أتحدث معه.

ضحكتا سويًا ثم قالت بسمة: وماذا عن تريضه الصباحى؟ أمازلت تتابعينه؟

أومأت منى برأسها إيجابًا فقالت بسمة مندهشة: يا لجرأتك.. وكيف ذلك؟ أتطلين من النافذة هكذا بكل بساطة؟!

ردت سريعًا: كلا بالطبع.. بصراحة.. كنت أنوي ألّا أفعل لكني لم أستطع.

لمست بسمة جبهتها بأطراف أصابعها وهزت رأسها بيأسٍ من تعقلها ولو لمرة، بينما تابعت هي: استيقظت اليوم مبكرًا كما تعودت أن أفعل وعاهدت نفسي.. لن أفتح النافذة، سألقي فقط نظرةً سريعة عبر فرجةٍ صغيرة ثم أغلقها على الفور.. وعندما فعلت انتظرت عدة دقائق حتى رأيته.. كان يمشي عائدًا بعدما أنهي تريضه.. كنت على وشك أن أغلق النافذة، لكني وجدته يلتفت نحوها.. وعندما رآها مفتوحةً حتى بذلك القدر الضئيل جدًا والذي من المستحيل أن يراني منه، ابتسم ولوح لي بيده!

طالعتها بسمة بدهشةٍ إذ أكملت: طبعًا أغلقت النافذة على الفور وأنا أشعر أن هناك صاعقةً كهربية أصابتني وكاد قلبي يتوقف من شدة خفقانه ثم...

قاطعتها بسمة بغيظ مصطنع: أمازال هناك ثم.. لا تقولي لي أنك عدت تفتحين النافذة!

ابتسمت منى في خجل وقالت: و.. وماذا أفعل.. أنا...

صمتت لحظةً ثم أكملت: أنا لا أعرف ما الذي يحدث لي عندما أراه.

قالت بسمة في استسلام: آه.. أعرف.. أعرف.. لن تكوني منى التي أعرفها إن لم تفعلي.. حسنًا ماذا بعد ثم؟

تراجعت منى في جلستها بتنهيدةٍ وقالت: عدت أفتح فرجةً صغيرة جدًا، فوجدته يقف مستندًا إلى سيارته عاقدًا ذراعيه أمام صدره ينتظر مبتسمًا وكأنما يعلم يقينًا أنى سأعاود فتح النافذة.. ظل هكذا لحظات ثم لوح لي بيده مرةً أخرى ودخل منزله.

ضحكت بسمة وهي تضرب كفًا بكف ثم قالت: يا له من رجل.. لقد أصبح يقرؤكِ بوضوح تام.

قاطع حديثهما بدء المحاضرة وانشغلتا فيما تلاها من محاضراتٍ ومعامل..

وبينما تجمع منى أدواتها بعد انتهاء آخر المعامل، قالت بسمة وهي تنظر لساعتها: أنا لم أستوعب جيدًا تجارب اليوم.

التفتت إليها منى قائلة: حقًا.. لكنها كانت سهلة!

هزت كتفها وقالت: لست أدري.. ربما لم أركز جيدًا.. لهذا أريد إعادتها مع المجموعة التالية.

- لكن...

- ستنتظرينني.. أليس كذلك؟

- حسنًا.. لا مشكلة لدي طالما تريدين هذا.. من الممكن أن أبقى معك أيضًا.

قالت بسمة بسرعة: كلا.

ردت منى مستغربة: ولماذا؟ لن أخسر شيئًا.

أجابتها بسمة ببساطة: أخشى أن ينتبه الأستاذ فيخرجنا سويًا.

أومأت برأسها متفهمةً وقالت: أنت على حق.. سأنتظرك بالخارج.

بابتسامةٍ كبيرة قالت بسمة: ما رأيك أن تزكي مرور الوقت بغسل أدوات المعمل.. سأنهي تجاربي وألحق بك.

ابتسمت منى وقالت وهي تغادر: طالما قلت هذا فأنت تقصدين أدواتنا وليس أدواتي فقط..

أليس كذلك؟

- طبعًا!

قالتها بسمة ضاحكة، فجمعت منى الأدوات وانسحبت بسرعة..

بحثت عن أحد المعامل الخالية ونظفتهم في عناية، ثم وضعت ما يحتاج منهم إلى تجفيفٍ في حقيبة أدواتها وغادرت المعمل..

كانت الساعة نحو الرابعة، وقد ساد الهدوء ساحة الكلية التي خلت أو كادت من الطلبة في نهاية اليوم الدراسي..

اتجهت نحو مقعدها المفضل المجاور لشجرةٍ ضخمة في ركن ساحة الكلية حيث جلست تستريح قليلًا ثم بدأت تخرج الأدوات و ترصهم في عناية وحذر بجوارها على المقعد حتى يجففهم الهواء الطلق بسرعة..

انهمكت فيما تفعله حتى أنها لم تنتبه إلى سيارة عمرو التي دخلت ساحة الكلية وتوقفت لحظات بحث خلالها عمرو عنها بعينه حتى لمحها..

ومع مرآها ابتسم وتدفقت مشاعره..

لم يكن قد رآها منذ مغادرتها المستشفى وقد أسعده للغاية أن عاد وجهها لنضارته وإشراقه..

ظل يراقبها في صمت لبعض الوقت، ثم تحرك بالسيارة ببطء متجهًا نحوها..

كان يقصد بالطبع ألّا تنتبه إليه إلا عندما يصبح قريبًا جدًا..

وبينما تسند سحاحةً زجاجيةً طويلة إلى جذع الشجرة أصبح بجوارها تمامًا، فانتبهت والتفتت لتجد سيارته أمامها ووجهه يُطل من نافذة بابه المفتوحة حاملًا ابتسامته المعهودة..

ارتفع حاجباها في دهشةٍ وتفاجؤ، وانفلتت خفقات قلبها من عقالها نازعةً فتيل قنبلة المشاعر الموقوتة الموجودة بداخلها دائمًا لتنفجر مطلقةً كل ما تحويه نحو عينيها.. وابتسمت..

ابتسمت هي الأخرى وهي تترك السحاحة الزجاجية تستند على جذع الشجرة وتعتدل، لتجد ابتسامته هو تتسع ثم تتحول إلى ضحكةٍ عالية امتزج صوتها بصوت زجاجٍ يتكسر..

انتفضت والتفتت لتكتشف أنها لم تسند السحاحة سوى إلى الفراغ فهوت متكسرة إلى ألف قطعة!

التقى حاجباها في انزعاجٍ وإحراج خاصةً مع ضحكاته وعادت تنظر إليه بنظرةٍ معاتبة، لكنها وجدته يستند بمرفقه على عجلة القيادة ويرفع قبضته المضمومة ليسند إليها رأسه قائلًا: أنا أعشـــــــق ردود أفعالك عندما تفاجئين برؤيتي..

اتسعت عيناها دهشةً من هذا التعليق غير المتوقع على الإطلاق، لكن تلك الدهشة لم تلبث أن تحولت إلى قدرٍ هائل من الخجل والارتباك عندما أردف بخفوتٍ وبلهجةٍ لم تسمعه يتحدث بها من قبل: إنها تشعرني أني أختلف بالنسبة لكِ عن كل من في هذه الدنيا.

تجمعت الدماء في وجنتيها ووجدت نفسها تقول باستنكارٍ مصطنع وهي تشيح بوجهها: هذا.. هذا ليس صحيحًا.

ابتسم وكأنما كان يتوقع قولها، ثم غادر السيارة ووقف مستندًا إليها في مواجهتها تمامًا عاقدًا ذراعيه أمام صدره و.. ومتأملًا إياها..

هكذا بشكلٍ مباشر دون حتى أن ينطق بكلمة وكأنه قادمٌ فقط من أجل هذا !

تضاعف ارتباكها وخجلها خاصةً وشعورها بأنها افتقدته يلح عليها بشدة، فوارت لهفتها بنظرةٍ متسائلة عن سبب وجوده..

- كيف حالك؟

قالها بغتة بعد صمتٍ طال، فقالت متظاهرةً بالهدوء: بخيرٍ والحمد لله.. و.. وأنت؟

صمت لحظاتٍ ثم قال: لم أكن في حياتي أفضل مما أنا عليه الآن.

حملت كلماته نفس اللهجة فازداد ارتباكها ولم تدرِ ماذا تقول، فأومأت رأسها بمعنى أن هذا جيد..

صمت وصمتت..

كانت تبحث عما يمكنها قوله لتتجاوز ارتباكها، في حين يعرف هو ماذا يريد أن يقول لكنه لا يعرف كيف..

يريد أن يكون جادًا وصريحًا ويخبرها بوضوح عن مشاعره، لكنه وجد نفسه يستمتع للغاية بإثارة خجلها وارتباكها، ويشعر بجمالها يتضاعف عندما يحمر وجهها..

وفي محاولةٍ منه لمقاومة ما يشعر به والتحلي بالجدية قال: آسف بشأن تلك السحاحة.. لم أقصد أن...

قاطعته قائلة: لا عليك.

ثم أردفت مبتسمةً وهي تمسك بإحدى القطارات الزجاجية وتلوح بها: أنا أكسر الكثير من الأدوات باستمرار.

ابتسم، فقالت في مرح: حسنًا.. ما الذي أتى بـ د. عمرو شخصيًا إلى كليتنا المتواضعة؟

- عمرو.. فقط.

- عذرًا !

- منى.. خاطبيني بدون ألقاب رجاءً.

قالت وارتباكها يعاودها: د. عمرو.. لا يجوز أن...

قاطعها وهو يمسك بطرف تلك القطارة الزجاجية التي في يدها: عمرو.. عمرو فقط.

دق قلبها بعنفٍ واضطرب..

ماذا يحدث؟!

إنه غريبٌ جدًا اليوم وكل حديثه يربكها بشدة..

ثم إن مخاطبته باسمه مجردًا شيءٌ لم يكن في حسبانها مطلقًا..

تخاف أن تفعل فتعتاد، وكم هم صعبٌ الإقلاع عن اعتياد شيءٍ يخصه!

بدا على وجهه الجدية والترقب وكأنما ينتظر تلفظها باسمه، فتزايد ارتباكها..

طال صمتها الحائر، فقال وهو يترك طرف القطارة: بغض النظر عن أنه لا داعي للرسميات والألقاب، لقد سمعته منك مرةً وودت لو قلته دائمًا.

عقدت حاجبيها قائلة: أنا لم أخاطبك أبدًا بدون ألقاب.

- بلى.

قالها بسرعة، فبدا على وجهها الدهشة وقالت بتردد: لست أذكر أنني...

عاد يقاطعها: لم تكوني لحظتها في كامل وعيك.

قالت باستنكار: أتقصد أنني...

لم تكمل عبارتها ووجهها يعاود الاحمرار، فاتسعت ابتسامته وهو يومئ برأسه إيجابًا..

شعرت بالكثير من الخجل والاضطراب، فاحتمالات ما يمكن أن تهذي به في وجوده كلها كارثية!!

وفي مكابرةٍ قالت: لكن.. لكن بسمة لم تخبرني أنني فعلت ذلك.

هز كتفه قائلًا: بسمة لم تكن معك حينها.

ثم أردف في خفوت: أنا الذي كنت بجوارك طواااااال الوقت.

عاد قلبها يخفق بشدة مع تلك اللهجة التي تحمل عاطفةً واضحة، وغمرها الخجل من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها وهي تشيح بوجهها بعيدًا..

تأملها مبتسمًا وبدا مستمتعًا للغاية وهو يقول: هل أخبرك ماذا قلت أيضًا؟

هبط قلبها بين قدميها والتفتت إليه بنظرة من ينتظر كارثة، فلم يتمالك نفسه من الضحك.. ومن بين ضحكاته قال: هل تخافين هذيانك إلى هذا الحد؟

قالت بارتباكٍ تتصنع اللامبالاة: و.. ولِمَ؟ أنا لا أخفي شيئًا أخاف أن يعرفه الآخرون.

رفع أحد حاجبيه في شكٍ واضح مما تدعيه، فأشاحت بوجهها هربًا منه..

عاد يقول وابتسامته العابثة تتألق على ثغره: حسنًا.. سأخبرك لكن بشرط.

طالعته بدهشة، فقال وهو يعاود عقد ذراعيه أمام صدره: أن أسمع منك "كيف حالك يا عمرو" .

- أتمزح؟!

قالتها بدهشةٍ أكبر، فقال: مطلقًا.

صمتت لحظةً ثم قالت في عناد: هكذا إذًا.

ثم أشارت إليه بطرف القطارة الزجاجية التي مازالت في يدها وقالت: لن أقولها، ولا أريد أن أعرف.

عاد يضحك لكنه لم يعلق.. فقط تطلع إليها في صمت فوجدها تقول ووجهها يتورد ثانيةً: لكن.. هل من الممكن أن أقول شيئًا آخر؟

بدا في عينيه التساؤل، فقالت: شكرًا لك.. عمرو.

برقةٍ وخفوت أتاه صوتها وكأنما تسأله.. أهكذا تريديني أن أقولها؟

وكأنما لم يتوقع عبارتها، اعتدل وحل ذراعيه ببطءٍ من أمام صدره الذي تسارع ارتفاعه وانخفاضه تجاوبًا مع ذلك الذي اختلجت خفقاته وتدافعت داخله، بينما تكمل: أنا مدينةٌ لك بحياتي.

تطلع كلٌ منهما إلى الآخر وغمرتهما مشاعرهما لبرهة، قبل أن يقول عمرو بخفوت: أنا لا أستحق كل هذا.

كان يقصد مشاعرها ولم يدرِ أفهمت قصده أم لا، لكنها أجابت بنفس الخفوت: بلى.

ثم أردفت: لم تُتح لي فرصة شكرك عندما كنت في المستشفى.. لست أدري كيف غفلت عن شيءٍ بديهي كهذا ولكن.. ربما لأنني كنت مشوشة التفكير.

ثم التفتت تضع القطارة الزجاجية في حقيبة أدواتها وهي تقول في خجلٍ وصوتها يعود لخفوته: لهذا سررت بأنني رأيتك اليوم.

قال متظاهرًا بالإحباط: سررت من أجل هذا فقط؟

ابتسمت ولم ترد وهي تواصل وضع أدواتها في حقيبتها، فقال: إذا كان الأمر كذلك، فمن الجيد أنني أتيت.

التفتت إليه بنظرةٍ متسائلة فقال: آه.. نسيت سؤالك عن سبب مجيئي.. حسنًا.. لقد كنت مارًا في الجوار أثناء عودتي من المستشفى ولمحتك من بعيد، ففكرت أن آتي لألقي السلام.

ضحكت ضحكةً رقيقةً خافتة وقالت: لمحتني من أين.. من خلف أسوار الجامعة؟!

تظاهر بالجدية قائلًا: ماذا؟ ألا يبدو هذا منطقيًا؟

ضحكت ثانيةً وهي تهز رأسها نافية، فقال مبتسمًا: أتيت لأطمئن عليك.

ابتسمت روحها مع تبسم وجهها، فعاد يقول مكررًا سؤاله السابق ولكن بلهجةٍ مختلفةٍ تمامًا: كيف حالك؟

خفق قلبها في سعادةٍ بالغة وقالت في مرح مستخدمةً عبارته: لم أكن في حياتي أفضل مما أنا عليه الآن.

ضحك هو الآخر في مرح وقال: هكذا إذًا ! أيعني هذا أن كلينا الآن يشعر بنفس الشعور؟

احمر وجهها خجلًا وتاهت منها الكلمات.. وفي ارتباك، رفعت يدها تعتدل من وضع أحد دبابيس حجابها ليس لشيءٍ سوى الحاجة لأن تفعل شيئًا ! ثم قالت: أشكرك بشدة.

- على ماذا هذه المرة؟

سألها بخفوت، فردت بارتباكها ذاك: على.. على اهتمامك بالطبع.. وعلى.. وعلى اتصالاتك للاطمئنان عليّ.

- هذا لا شيء.. لولا الحرج من أن أكون مزعجًا لاتصلت كل ساعة.

التقى حاجباها في انفعال، بينما يستطرد بتلك اللهجة الخافتة التي شعرت أنها ستصيبها حتمًا بسكتةٍ قلبية: لا يمكن أن تتخيلي كم كنت قلقًا.

أخذ قلبها يخفق باضطرادٍ مجهِد، فخفضت عينيها تحاول السيطرة على انفعالاتها والتفكير في أي شيءٍ يمكنها به الابتعاد بالحديث في اتجاهٍ آخر، فلم تجد سوى أن تردد: شكرًا لك.

- أصبحت تشكرينني كثيرًا.. أكثر من اللازم.

- وماذا أفعل وقد عجزت عن عد الأشياء التي تستحق عليها الشكر.

- ليس إلى هذا الحد.

- بل إلى هذا الحد.

قالتها بسرعة، فأطلق ضحكةً قصيرة وفكرةٌ ما تتكون في ذهنه، ثم قال: حسنًا.. إذا كان الأمر كذلك فأنا أريد مساعدتك في شيءٍ ما، فهناك سببٌ آخر لقدومي.

ظهر التساؤل في عينيها فقال: في الواقع.. طلب مني شخصٌ عزيزٌ عليّ جدًا أن أوصل شيئًا لشخصٍ ما.. ولما أخبرني أنها في السنة النهائية من كلية الصيدلة، فكرت في أنك تستطيعين مساعدتي.

قالت في بطءٍ واستغراب: تبحث عن فتاةٍ في فرقتي؟!

ابتسم مع لمحة الغيرة في سؤالها وأومأ برأسه إيجابًا..

تصنعت اللامبالاة قائلة: حسنًا.. ما اسمها؟ أستطيع أن أخبرك أين وكيف تجدها حتى لو لم أكن أعرفها شخصيًا.

هز رأسه نافيًا وقال: لم يخبرني بأي أسماء.

سألته بدهشة: وكيف ستعرفها بدون اسمها؟!

أجابها ببساطة: وصفها لي بدقة.

- وصفها؟!

هكذا تساءلت في استغراب وهي تشعر بأن هناك شيئًا ما غير منطقي، في حين قال هو بجدية: أجل.

صمتت في حيرة، فقال متسائلًا: هل ستساعدينني في أن أصل إليها؟

أومأت برأسها إيجابًا ثم قالت وهي تهز كتفها: هذا إن عرفتها.

التقط نفسًا عميقًا ثم قال: حسنًا.. لقد قال لي أنها فتاةٌ جميلة.. رقيقةٌ خجول ومهذبة.

صمت لحظةً يستمتع بتلك الغيرة التي ظهرت على ملامحها، ثم أكمل: قلت له هذا الوصف عامٌ جدًا، فقال هي بالذات جميلةٌ جدًا.. رقيقةٌ جدًا..

بدا عليها الدهشة والاستغراب بينما يتابع: أخبرته بالطبع أن هذا غير كافٍ لأتعرّفها، فقال " إذا بحثت ستجد واحدةً فقط تملك جمال ورقة الورود ".

- أنت تمزح.. أليس كذلك؟

قالتها هي ضاحكة، فهز رأسه نافيًا في بطء..

بعد لحظاتٍ من الصمت قال وهو ينظر إلى عينيها مباشرةً: قال لي أيضًا " إذا نظرت في عينيها ستشعر أنك لم ترَ في حياتك أجمل منهما وستخبرانك أنها هي أيضًا تبحث عنك " .

عاد قلبها لعنف خفقاته وهي تستمع إليه مترقبة إذ أكمل: عندها ستدرك أنها هي..

ستشعر من داخلك أنها هي ولا أحد سواها و....

- مهلًا.

قاطعته وهي ترفع كفها تستوقفه..

صمت، فقالت ووجهها يبدأ بالاحمرار: من الذي يصف لك هذا الوصف؟

ابتسم ثم أشار بسبابته نحو صدره قائلًا: هو.

تضاعف احمرار وجهها بغتةً وهي تفهم أنه يقصد قلبه، بل وتفهم مغزى حديثه كله..

أشاحت بوجهها وقالت بتلعثم: لا... لا يوجد أحدٌ بهذا الوصف.

كانت في حالٍ يُرثى لها وبدا أن رأسها سيصدر صفيرًا من شدة احمرار وجهها كما يحدث في

أفلام الكارتون! أما عن داخلها، فحدث ولا حرج..

لقد كان هذا كثيرًا.. كثيرًا منه جدًا.. أكثر مما يمكنها تحمله..

معقول!

أيقول لها هي مثل هذه الكلمات التي لم تسمع في حياتها ما هو أكثر منها رقةً وعذوبة!!

أيعنى هذا أنه...

مهلًا.. مهلًا..

شعرت بأنفاسها تتثاقل بينما لا تجرؤ حتى على مجرد النظر تجاهه..

حاولت عبثًا السيطرة على مشاعرها، لكن بلا فائدة..

ولم يمهلها هو، فقد عاد يقول: ترفضين مساعدتي إذًا.

لم يتلقَ منها جوابًا، فالتقط نفسًا عميقًا ثم قال: حسنًا.. سأعتمد على نفسى.

رأته يلتفت نحو السيارة.. يفتح بابها الخلفي ويلتقط منها شيئًا ما ثم يقدمه إليه قائلًا:

تفضلي.

حدّقت في الكيس الكرتوني الأنيق الذي يحمله بينما يقول: إذا تتبعت هذا الوصف سأدور في الدنيا كلها ثم أعود إلى هنا.. إليك!

خُيل إليها أن قلبها انتفض ثم توقف عن الخفقان بعدما خفق في هذا الوقت القصير بقدر ما خفقه طوال حياته..

ورغم أنها فهمت أنه يقصدها منذ لحظات، إلا أن عبارته الأخيرة دغدغت أنوثتها ونسفت البقية الباقية من مقاومتها وتماسكها تمامًا..

وعندما رفعت عينيها إليه هذه المرة، لم يكن هناك أية قيودٍ أو حدود لما تحمله من مشاعر، إلا أنها خفضت عينيها في سرعة ناظرة إلى الأرض وهي تقول بارتباكٍ شديد: ما.. ما كل هذا.. لم أكن أعرف أنك.. أنك مجاملٌ بارع إلى هذا الحد!

تطلع إليها في صمت فأردفت وهي تعبث بقدمها في شيءٍ وهمي على الأرض: لكنك تبالغ كثيرًا.

لم يعلق على ما قالته، فقط ابتسم وكرر وهو يقرب الكيس منها أكثر: تفضلي.

عادت تنظر إلى الكيس وقالت في خفوت: ما هذا؟

- ألقي نظرةً بنفسك.

التقطت الكيس في تردد ثم جلست وفتحته لتجد علبةً أنيقةً طويلة تشبه علب أقلام الحبر الثمينة.. أخرجتها ووضعت الكيس جانبًا ثم فتحتها لتجد مجموعةً كبيرة من الدبابيس غاية في الأناقة والرقة تحمل رؤوسها أشكال الزهور والفراشات المطعمة بالفصوص الصغيرة الملونة..

ارتفع حاجباها في دهشةٍ وإعجاب، ثم نظرت إليه في حيرةٍ وتساؤل، فقال وهو يجلس بجوارها على مسافة: لقد أضعت دبابيسك كلها في سيارتي.. بحثت عنها ولم أجدها.. لهذا فكرت في أن أحضر لك بدلًا منها.

أعادت العلبة إلى الكيس فانتبهت إلى وجود علبةٍ أخرى مماثلة بداخله، فغمغمت في دهشة: اثنتان؟!

قال بابتسامةٍ كبيرة: أنت تستخدمين الكثير من الدبابيس.. أليس كذلك؟

ابتسمت على الرغم منها فقال: هل أعجبتك؟

قالت في تردد: إنها رائعة.. ولكن.. ولكن أنا آسفة.. لا أستطيع أن أقبلها.

عقد حاجبيه قائلًا: ولِمَ لا؟!

عادت تنظر إلى الأرض وتكرر بلهجة من يحتار في شرح ما يريد قوله: لا أستطيع!

صمت لحظاتٍ ثم قال: حسنًا.. لا أفهم.

التفتت إليه.. كان قريبًا جدًا.. صحيحٌ أنه يجلس على الطرف الآخر من المقعد، إلّا أنها شعرت أنه قريب جدًا على نحوٍ ذكرها بجلسته على طرف فراشها في المستشفى..

كانت مشاعرها في هذه اللحظة أقرب إلى ورقة شجرٍ في مهب الريح..

ما هذا الذي يحدث؟! وما كل هذا دفعة واحدة؟!

حديثه.. لهجته..

نظراته.. تلميحاته..

حتى وجوده نفسه..

كل هذا تشعر وكأنه سيلٌ يجتاح مشاعرها..

وكأنه يقول لها بوضوح أنه...

ماذا تفعل؟!

ماذا تفعل؟!

تطلعت في حيرةٍ إلى نظراته المتسائلة ثم قالت في خفوت: لماذا أقبل منك هدية؟!

ابتسم قائلًا: هذه ليست هدية.

- ماذا تسميها إذًا؟

- هذا مجرد بديلٍ عما أضعته من أشيائك.. لكنه على ذوقي.

- لا أرى اختلافًا!

مال نحوها وقال: عندما أهديك لن يكون شيئًا بسيطًا كهذا.

قالت بحيرة: ولماذا تهديني أصلًا؟

أجابها ونظراته تزيد حديثه غموضًا: ساعتها سيكون هناك الكثير من الأسباب.

صمتت ولم تدرِ ماذا تقول له.. وفي محاولة أخيرة للتشبث بأي عذرٍ قالت: كيف أقبل ما لا أستطيع رده؟!

صمت طويلًا هذه المرة، ثم قال بتلك اللهجة الخافتة: ومن قال أنك لا تستطيعين؟

تطلعت له وحيرتها تزداد، فقال بنفس الخفوت وهو ينظر إلى عينيها مباشرةً: سأكون في غاية السرور لو وصلني المزيد من... مشابك الغسيل الحمراء!!

كانت تلك الكلمات بمثابة قنبلةٍ انفجرت أمامها..

وفي لحظةٍ واحدة اتسعت عيناها وتلون وجهها بلون الطماطم، ثم هبت واقفة واندفعت مبتعدةً في سرعة..

هو أيضًا نهض بسرعة، وبخطوةٍ واحدةٍ واسعة لحق بها وأمسك يدها يوقفها وهو يقول بخفوت شديد: أُحبك.

توقفت والتفتت في ذهول، فاحتوى يدها وجذبها في رفق ليعيدها إلى جواره..

تطلع إلى عينيها لحظاتٍ ثم ابتسم وهمس: أحبك جدًا.

****

*** ما بعد الأخير ***

***** " أحبُك "**

محملةً بكل مشاعره همس بها وروحه تتوق لرؤية ما يماثلها على وجهها الذي التفت إليه مذهولًا..

ضم راحته حول يدها أكثر وقربها منه.. وأمام عينيها المتسعتين المحدقتين فيه بعدم تصديق، ابتسم يكاد يجزم أنها تظن توهمها لما سمعته للتو..

تبًا.. عيناها بحرٌ ما إن يناظره يغرقه، ولشد ما أصبح يعشق الغرق..

انخفض حاجباها ببطء وتقاربا قليلًا، بينما يفرج صدرها عن نفسٍ متهدج تهدجت له روحه ذاتها، فأفلتت كل مشاعره من عقالها وهمس ثانيةً: أحبُكِ جدًا.

تلون وجهها فجأةً بانفعالٍ عنيف وأشاحت به تُبعد بصرها عنه وكأنها أدركت معنى ما يقوله الآن فقط..

سحبت يدها من يده في ارتباكٍ واضح وأشارت بها لما خلفها إشارةً مبهمة وهي تقول مستأنفةً ابتعادها السريع: الـ... المحاضرة.. لدي محاضرةٌ بعد قليل.. أ... أستأذنك.

احتاج لحظةً ليستوعب هروبها المفاجئ بهذه الحجة الوهمية، ثم لم يلبث أن نفث عن انفعاله في زفيرٍ عميق..

" منى "

ناداها بخفوتٍ وهدوء تصنعه بجهد، فتوقفت بشبه انتفاضة واستغرقت بضع لحظاتٍ حتى استطاعت الالتفات، لتجده يضع يديه في جيبي بنطاله وبابتسامةٍ صغيرة يشير برأسه لما خلفه إشارةً مبهمةً أيضًا ويقول: أدواتُك.

بدت في غاية التردد والارتباك، وبقيت حيث هي لبرهة تفرك يديها بتوتر وكأنها تفكر في سبيلٍ لاستعادة أدواتها دون مواجهته ثانيةً..

اتسعت ابتسامته مشفقًا عليها وآثر الانسحاب قليلًا فتراجع ليجاور السيارة..

الحق أنه كان أيضًا بحاجةٍ لبضع دقائق يستعيد فيها رباطة جأشه..

شجعها ابتعاده فعادت إلى المقعد المجاور للشجرة الضخمة حيث تركت الأدوات، وباندفاعٍ وسرعة أخذت تحشدها في الحقيبة متحاشيةً النظر نحوه تمامًا، بينما لم يستطع هو إبعاد ناظريه عنها مطلقًا..

حركاتها المرتبكة وصوت ارتطام الأدوات الزجاجية بعضها ببعض..

وجهها المتورد بشدة..

أنفاسها المتلاحقة..

هروبها الوشيك..

عاد يفرغ صدره بزفيرٍ قوي.. أي رباطة جأشٍ ينشدها؟!

طالما هي أمامه لن ينفك ذلك الخافق بين ضلوعه عن دك حصونه..

حملت أشياءها ولم يتبقَ سوى الكيس الكرتوني الصغير الذي يحمل هديته لها والتي يصر على كونها ليست هدية!

ترددت يدها نحوه، فطالعها بترقبٍ يخشى أن ترده..

بضع لحظاتٍ أخرى من التردد والارتباك الشديد أكدت له ما يخشاه ودفعته ليقول بخفوت: ألا... أستحق استثناءً؟

تحركت عيناها نحوه رغمًا عنها، فتهاوت آخر حصونه مع نظرةٍ مهلكة أفلتت معها إجابتها الصامتة الواضحة برغم ذلك..

الإجابة التي تخبره فيها بأنه الاستثناء الأول والأخير.. بأنه الوحيد..

لا يذكر أنه شعر بالسعادة تغمره إلى هذا الحد كما تفعل الآن.. سعادةٌ لا تعبر عن نفسها بمجرد ابتسامة أو بملامح يكسوها الفرح، بل بزلزالٍ يهزه من الأعماق وبركانٍ من الانفعال يملأه حممًا..

كاد لسانه يتفوه بالمزيد مما لم يحسب له حساب ولم يتخيل أن يلفظه قط، لولا هروب بصرها منه مجددًا..

" مرحبًا د. عمرو "

قاطع فورة مشاعرهما صوت بسمة وهي تقترب مُرحبة، فالتفتا إليها بحدةٍ غير مقصودة..

لكن عمرو لم يلبث أن ابتسم قائلًا: أهلًا د.بسمة.. كيف حالك؟

ردت بحمد الله وهي تجاور منى التي تنفست الصعداء بمجرد ظهورها..

اكتسبت ملامحه تعبيرًا ممتنًا، فأومأت له بمعنى " أنت على الرحب " ..

نقلت منى بصرها بينهما في حيرة، في حين فتح عمرو باب السيارة وقال: أستأذنكما.

ثم التفت نحو منى مردفًا: أراكِ.. قريبًا.

تاهت في ابتسامته الجذابة التي زينت محياه ولم تنبس ببنت شفة، وظلت على حالتها تلك حتى غابت السيارة عن ناظرها..

سقطت جالسة على المقعد غير منتبهة لتساؤل بسمة الضاحك: ما كل هذا الزجاج جوار الشجرة؟ أتعشم ألا يكون ما كسرته هذه المرة من أدواتي.

التفتت منى إليها وحدقت بوجهها لوهلةٍ قبل أن تقول بتيهٍ لازال يلازمها: بسمة.. هل أحلم؟

كتمت بسمة ضحكها وتظاهرت بالجدية قائلة: لا أعرف.. دعينا نتأكد.

ضربت رأسها بخفة ثم قالت: ها .. أشعرت بشيء؟

ببطءٍ أومأت منى برأسها إيجابًا وصدى كلماته يصدح في كيانها كله مذبذبًا عقلها ومذيبًا قلبها في آنٍ واحد، فجاورتها بسمة وهي تقول في بساطة: أتريدين رأيي؟

عادت منى تومئ برأسها بقوة، فتابعت وهي تبتسم بسعادة: أنت تعيشين تحول أحلامك لحقيقةٍ يا بلهاء.

اغرورقت عينا منى بالدموع في آخر رد فعلٍ توقعته بسمة على الأطلاق، وقبل أن تحول دهشتها البالغة إلى كلمات، ارتمت منى في أحضانها تفرغ ما فاض داخلها من انفعال..

هذه المرة انطلقت ضحكاتها قويةً بقوة دهشتها وربتت على كتفها قائلة: أقسم أن الجنون ذاته لا يوفيك حقك!

****

*** خمسُ زهراتٍ وفراشة..

مستلقيةً على بطنها على الفراش ومعتمدة على مرفقيها لرفع جزعها، تأملت منى بوله رؤوس الدبابيس القابعة في العلبة الموضوعة أمامها على الوسادة..

في العلبة الأخرى مجموعةٌ مماثلة..

أخبرتها بسمة أنها ليست دبابيس عادية بل فضية، تحمل علبتها اسم أحد أشهر ماركات الحلي الفضية..

تزينت شفتيها بابتسامةٍ كبيرة وأغلقت العلبة وتقلبت تستلقي على ظهرها محتضنةً إياها تستعيد تفاصيل الحلم الذي عاشته قبل بضع ساعات..

قاطع استرسالها في تذكر لحظاته رنين هاتفها تصحبه صورة بسمة على الشاشة، فرفعته إلى أذنها تجيب بصوتٍ وشى بأنها لم تغادر الأحلام بعد: مرحبًا.

فوجئت ببسمة تسألها بحماس منقطع النظير: ها.. ما الأخبار؟ هل انتهيت من تجهيز نفسك؟

رددت منى باستغراب: تجهيز نفسي! لأي شيء؟!

صمتت بسمة لبضع لحظات، ثم عادت تسأل بحذر: منى.. ماذا تفعلين الآن؟

شعرت منى ببعض الدهشة لكنها أجابت: لاشيء محدد.. استرخي قليلًا قبل أن أبدأ بتلخيص بعض الدروس.

عادت بسمة تصمت، ثم قالت في لهجة نجحت في إخفاء ارتباكها: عظيم.. جهزي نفسك جيدًا للاختبارات العملية الأسبوع القادم.

تحول مجرى الحديث تلقائيًا إلى الدراسة والمحاضرات، لكن عقل بسمة كان يضرب أخماسًا في أسداس..

لا يبدو على منى أنها تنتظر حدثًا الليلة.. هذا غريب.. لم يكن هذا ما فهمته من عمرو أمس على الهاتف!

لم يستغرق حديثهما الكثير من الوقت، ألقت منى بعده الهاتف جانبًا وعادت لتأمل الدبابيس وقبسًا من السعادة التي تملأ روحها يعود ويفيض على وجهها بابتسامة..

جميلةٌ رقيقةٌ حقًا.. لكنها اكتسبت في عينيها هالةً من الابهار لا علاقة لها بالجمال ولا بالرقة، بل لكونها منه!

لم تنوِ قبولها منذ البداية ولم يتغير قرارها قط، ولم يُنقص ذلك من سعادتها بها على الإطلاق.. هي فقط ترددت لحظتها والسبب كان هو..

عصف وجوده وحديثه بمشاعرها ليأتي اعترافه في النهاية ليوقعها في هوةٍ ما بين الواقع والخيال ويغرقها في تيهٍ لم تخرج منه حتى اللحظة..

لم تقوَ حينها على التفوه بكلمة، فكيف لها بالاعتذار عن قبول شيءٍ كهذا..

كان يقرنهما معًا.. مشاعره والهدية، وكأنهما شيءٌ واحد..

تهافت قلبها للأولى وهوى صريعًا مكبلًا عقلها عن التصرف في الثانية، وغادر هو قبل أن يمنحها فرصةً حتى للمحاولة..

لكن لا بأس.. ستنتظر فرصةً أخرى لتعيدها إليه.. وحتى ذلك الحين، ستستمتع بالشعور بأن بحوزتها شيئًا يخصه..

فتحت العلبة الأخرى تتأمل ما تحويه أيضًا وكأنه يختلف!

لدهشتها لمحت اختلافًا بالفعل، لكن ليس في الدبابيس بل في العلبة نفسها..

مدت أصبعها تستكشف طرف هذا الشيء الأبيض الذي بدا من أسفل بطانة العلبة والذي لم يعلن عن ماهيته إلا بعدما أزاحتها كاملة..

حدقت في الورقة الصغيرة المطوية بقلبٍ راجف..

غير معقول.. لا يمكن أنه...

" يا أحلى نوبات جنوني "

انطلقت في وجهها الكلمات فشهقت بقوة لا تصدق ما ترى..

لم تلفظ أيها، لكن صداها تردد داخلها في إيقاعٍ متعالٍ اتحد دون إرادتها مع خفقات قلبها الذي تواثب بين أضلعها.. لكن وثبته الكبرى كانت عندما فُتح باب الغرفة فجأة، فانتفضت تقلب الوسادة على ما أمامها تخفيه، بينما اندفعت أمها عبر الباب تقول بصوتٍ مندهشٍ متلهف: منى.. هل تعلمين من يزورنا الآن؟

حدقت فيها تحاول استيعاب هذا الحماس غير المعتاد لزائرٍ أو ضيف.. لم تكن في حالٍ يسمح لها بالتخمين أو التفكير من الأساس بذهنها المعطل وانفعالها العاتي، فاكتفت بالتحديق الأبله لتتابع أمها بسعادةٍ وحماسٍ أكبر: د. عمرو.. جارنا.

****

*** خطا باسل إلى داخل صالة الألعاب الرياضية بعجلة يبحث بعينه عن عمرو حتى وجده أمام كيس الملاكمة يسدد ضرباته بتتابعٍ سريعٍ غاضب..

اقترب ملقيًا التحية بمرح، فردها عمرو باقتضاب بينما تجهم وجهه يؤكد له أنه لم يتخيل الضيق في صوته عندما حدثه مقترحًا عليه اللقاء هنا في هذا الوقت المتأخر..

- ماذا هناك؟ لا تبدو في مزاجٍ جيد.

قالها باسل وهو يقف بقربه، فتزايدت سرعة وقوة اللكمات في إجابةٍ صريحة بالإثبات، قبل أن يتوقف عمرو دفعةً واحدة ويتراجع لاهثًا وملتقطًا أنفاسه..

تلفت باسل حوله ثم جلس على جهازٍ رياضي مجاور قائلًا بابتسامةٍ عابثة مخمنًا سبب ضيقه: إذًا فقد تعثر ميعادك الليلة مع والد فتاتك.. أليس كذلك؟

أجابه عمرو بـ"كلا" محنقة وهو يخلع عن يديه قفازي الملاكمة، فصمت بتفاجؤ قبل أن يصوغ لسانه الاحتمال التالي بحذر: أمعقولٌ أن مقابلته لك كانت سيئة؟

جاوبه عمرو بصمته، فقال بصدمة: لا تقل لي أنك قد رُفضت!

رماه عمرو بنظرة استنكار، لكنه لم يلبث أن تنهد بقوة واستند على جهاز رياضيٍ آخر في مقابلته قائلًا: كلا أيضًا.

طالعه باسل بحيرة وقال: ماذا هناك إذًا؟!

مط عمرو شفتيه وقال: الرجل كان ودودًا جدًا ومرحبًا كعادته معي..

ثم استطرد وصوته يكتسب ضيقًا بالغًا: لكنه أجّل الأمر برمته.

جاء دور باسل ليشعر بالاستنكار وليخرج صوته محملًا به وهو يقول: هل تمزح؟! أهذا سبب انزعاجك؟ هذه الأمور تحدث.. أم أنك كنت تتوقع أن يعقد قران ابنته عليك في التو واللحظة.

زفر عمرو بعمق وأشاح بوجهه دونما تعليق، فلم يستطع باسل منع دهشته وضرب كفًا بكف، لكنه عاد يهادنه بلينٍ قائلًا: حسنًا.. ماذا كانت أسبابه؟ ولأي مدىً كان التأجيل؟

ظل عمرو على صمته لبعض الوقت قبل أن يقول بخفوت: منى لن تعلم.. لن تعلم أني أتيت لطلب يدها وخطبها رسميًا.. لن يخبرها والدها أو يعرض عليها الأمر قبل انتهاء اختبارات نهاية العام الدراسي.

أها.. هذا هو سبب ضيقه إذًا ! ولابد أن أسباب الوالد تتلخص في عدم شغلها بأية أمور في هذا الوقت الحرج حتى تُنهي دراستها خاصةً وأنها في السنة النهائية..

ابتسم باسل وهذه الأفكار تمر برأسه، ثم قال بهدوءٍ ودبلوماسية: بصراحة.. الرجل لم يخطئ.. طبيعيٌ جدًا أن يهتم لمستقبل ابنته وأن يعطي دراستها الأولوية وأنت خير من يدرك ذلك.. لطالما كانت الدراسة بالنسبة لك أهم من أي شيء.

بضيقٍ قال عمرو: أعلم ذلك، لكن...

قاطعه باسل: عمرو.. لا تهول الأمر.. نهاية العام الدراسي على الأبواب.

رد عمرو محنقًا: أجل بالفعل.. شهرٌ أو يزيد حتى تبدأ الاختبارات النهائية، وشهرٌ أو يزيد حتى تنتهي.. لا أعلم حتى نظام اختباراتهم العملية.

بدا باسل متعجبًا بحق ولم يجد ما يقوله، فتابع عمرو وقد عاد صوته لخفوته: ألا تدرك معنى أن أصارحها بمشاعري بجرأة الواثق مما يفعل، ثم تجدني أزرو منزلها في ليلتها وتتصور أني أتيت لأتسامر مع والدها وانصرف! ثم تمضي شهورٌ لا يكون لي الحق في لقائها أو رؤيتها أو حتى محادثتها على الهاتف.

كان باسل في هذه اللحظة يقاوم تعجبه الشديد ليقول بتساؤلٍ حقيقي: وهل هذا صعبٌ إلى هذا الحد؟!

طالعه عمرو بصمت تنازعه انفعالاته.. لم يذكر له بالطبع أمر رسالته التي خبأها لها، ولم يخبره قط أنها مرسلة الرسائل حُمر المشابك، فقد اعتبر ذلك سرهما الصغير.. في الواقع كان ذلك أحد أسباب ضيقه الشديد.. لو كان يعلم ما سيحدث لأجّل ذلك لما بعد ارتباطهم الرسمي ولا يعرف أي جنونٍ تلبسه ليفعل ذلك قبلها!

رفع يده يتخلل شعره بأصابعه في توتر وبدا من طول صمته أنه لن يجيب، إلا أنه لم يلبث أن قال: لا أستطيع تحمُل ذلك لبضعة أيام، فما بالك بشهور.

طالعه باسل ببعض البلاهة يحاول استيعاب أن من يحدثه الآن هو عمرو صديقه الجاد الرزين الذي لا يشغل باله في الدنيا سوى دراسته وعمله، بينما تابع عمرو والضيق في صوته يزداد: لا يمكنني أيضًا تحمُل أن تظن بي التهرب منها أو العبث معها.. وإن حاولت إخبارها بنيتي، سأبدو صغيرًا غير مسئول أمام والدها.

ثم شرد ببصره مستطردًا: لم يُهمني متى يكون الارتباط الرسمي، ولم يكن يضيرني الانتظار حتى انتهاء الدراسة.. كانت تكفيني موافقتها ومباركة والديها التي ستمنحني الحق في التصرف كخاطب.. لكن في وضعٍ كهذا أنا مكبلٌ تمامًا.

تمتم باسل وهو يكتم ضحكاته بصعوبة: كان حريٌّ بالمثل أن يكون "اتق قلب الرزين إذا أحب" .

التفت إليه عمرو بحدة وقال: كنت أعرف أنك بلا فائدة.. لا أفهم ما الذي يدفعني إلى التحدث إليك من الأساس.

نهض باسل وأمسك كتفيه قائلًا بجديةٍ مصطنعة لم تُفلح تمامًا في إخفاء عبثه: عمرو.. أنت لست في حالتك الطبيعية يا صديقي، لكني نجحت أخيرًا في تشخيص حالتك.. في مداراتك تدور إلكتروناتٍ دخيلة زائدة تسببت لك في حالةٍ من فورة المشاعر وعدم الاستقرار، عليك بإخضاعها حالًا.

ابتسم عمرو على الرغم منه وأطلق ضحكةً خافتة إثر تشبيهه العجيب هذا، ثم قال قاصدًا إغاظته: لكنها تدور قريبًا من قلبي تمنحه دفئًا ساحرًا.

تمكنت الدهشة من باسل ثانيةً وعاد يضرب كفًا بكف وهو يقول ضاحكًا: حالتك أسوأ مما توقعت.. بل ميؤسٌ منها.

ثم أردف وهو يهم بالرحيل: أنا ذاهبٌ قبل أن تُشعرني بأن ما أكنه لخطيبتي يشبه ما أكنه لك.

قال عمرو محاولًا استبقاءه: إلى أين أنت ذاهب؟ لم تخبرني ماذا عليّ أن أفعل؟

تحرك باسل مغادرًا بالفعل بينما يقول من بين أسنانه بغيظ: اصبر تبًا لك.

****

*** " يا أحلى نوبات جنوني.. زيديني عشقًا "

تمر عيناها عليها للمرة الألف، بينما أضواء الشروق الأولى تبدد عتمة الليل الذي انقضى دون أن يغمض لها جفن..

وللمرة الألف أيضًا تنساب دقات قلبها في لحنٍ دافئ اكتمل حين اكتملت العبارة بعثورها على الورقة الثانية بين ثنايا العلبة الأخرى..

توقفت عيناها عند طرف تلك الورقة حيث وُجد أعجب ما في الأمر كله..

رسمٌ لمشبكٍ أحمر صغير!

قفزت الابتسامة إلى شفتيها قفزًا وهزت رأسها بتعجب..

كانت فعلتها ببث مشاعرها عبر الرسائل مجنونةً متهورة، تعلم ذلك، بل وندمت أشد الندم، لكنه يفعل الآن مثلها تمامًا.. حتى المشبك الأحمر لم ينسَه!

فماذا تسمي فعلته هذه؟!

وكأنما... وكأنما يخبرها أن قبسًا من جنونها قد مسه!!

خاصةً مع اختياره لتلك العبارة الـ... المذيبة للأعصاب..

" يا أحلى نوبات جنوني.. زيديني عشقًا "

ضمت راحتها على الورقتين وتنهدت بحرارة..

لقد أضحت مشاعرها بحالٍ لا يسمح بتحمُل أي شيء..

وهل بعد "أحبك" من بين شفتيه بعد؟!

مهلًا.. ليست "أحبك" فقط.. بل "أحبك جدًا" ..

تأوهت بخفوت وهي تدفن وجهها بين كفيها تحاول عبثًا تهدئة ما يجيش داخلها ويجتاحها بمجرد تذكرها للكلمة المزدانة بصوته..

حسنًا.. ماذا عن الكلمة الأخرى؟ تلك التي تخبرها بأن الحب صار عشقًا..

رباه.. وهل هي كلمةٌ واحدة.. تلك القصيدة الرائعة التي استخدم استهلالتها مرت على قلبها كلمةً كلمة تذيبها بشعورها بأنها موجهةً لها..

لها هي..

وكل ذلك على خلفية صوته الخافت القادم من أقصى الردهة حيث جلس مع والدها يحتسيان القهوة!

لم تغادر غرفتها قط ولم تصلها كلمةً واحدة واضحة.. ورغم أنه لم تقفز لعقلها أي احتمالاتٍ جامحة، إلا أنها كانت في غاية الاضطراب لوجوده وحسب..

حسنًا.. كانت في غاية السعادة أيضًا!

أدهشها تحمس والدتها العجيب للزيارة والأسئلة التي أمطرت بها والدها بعد رحيله، لكنه لم يزد على أن قال ببساطة وهو يتصفح هاتفه أنها مجرد تلبية دعوةٍ لشرب القهوة أرجأها هو لحين تفرغه، وكان هذا أكثر من مُقنع بالنسبة لها..

أسبلت جفنيها بإرهاق ثم لم تلبث أن قامت وأزاحت الستائر ليغمر الغرفة ضوء النهار..

أمامها يومٌ عسير تعلم، بعد هذا السهر المفرط، لذا ستستعين بالقهوة آملةً ألا يغلبها النوم أثناء المحاضرات..

ألقت نظرةً على الساعة ثم على النافذة وازدردت ريقها بصعوبة..

إنه وقت تريضه، لكن.. هل تجرؤ؟

اقتربت حتى وقفت أمامها.. رفعت يدها إلى المزلاج، لكنها توقفت قبل بلوغه..

بالطبع لا.. لم تعد تجرؤ أبدًا..

أسندت ظهرها إلى النافذة المغلقة وتنهدت بقوة غير مدركة لمن تعلق بصره بدفتيها المغلقتين على الجهة الأخرى من الطريق آملًا بانفراجةٍ ولو ضئيلة تمنح قلبه بهجةً ليومه وتُخفف وطأة الشوق ولو قليلًا..

لكن الوقت مضى سريعًا فتلاشى أمله..

لم يطل الوقت حتى قررت الذهاب إلى الجامعة مبكرًا، فقد شعرت أنها لو بقيت حتى موعدها المعتاد ستنام حتى يوم غد، لذا راسلت بسمة تخبرها أنها ستسبقها وتجهزت للخروج على عجالة..

غادرت البناية واتخذت طريقها بخطوات سريعة بينما ترمق السيارة المتوقفة أمام منزله بنظرة ضيق وكأنما تنفث عن شعورها بعدم رؤية صاحبها اليوم..

لم يذهب لعمله بعد..

هذا ما حدثت به نفسها قبل أن تلحظ شيئًا غريبًا على زجاجها الجانبي..

توقفت تدقق النظر فميزت بعض الحروف الإنجليزية في كلماتٍ غير مفهومة خُطت بإصبع على الغبار المتراكم على الزجاج..

Ya ..... alkown g. mor.

واصلت طريقها متعجبة وهي تحاول نطق الحروف..

ما هذا بالضبط؟!

كثيرًا ما يخط بعض المارة المتحذلقين العبارات على زجاج السيارات بهذه الطريقة، لكن أي متحذلق هذا الذي يكتب بالإنجليزية!

انشغلت بالمواصلات ثم بالثرثرة مع الزميلات حتى أتت بسمة وبدأت المحاضرات..

لم تكن المحاضرة الثانية قد انتهت بعد عندما تثاقل جفنيها وانعدم تركيزها تمامًا، فأسندت رأسها على قبضتها المضمومة ووأخذ قلمها يخط دوائر وخطوط بدلًا من المعادلات التي تُلقى على مسامعها.. وحينما لم يعد يربطها باليقظة إلا النذر اليسير، أخذت تكتب - بابتسامةٍ بلهاء - أبياتًا متفرقة من تلك القصيدة التي أطارت النوم من عينيها طوال ليلة أمس..

"عصفورة قلبي.. نيساني..

يا رمل البحر.. وروح الروح.. ويا غابات الزيتون..

ياطعم الثلج.. وطعم النار.. ونكهة شكي ويقيني.."

ويا أحلى إمرأةٍ بين نساء الـ.....

اتسعت عيناها فجأةً وأطلقت شهقةً قوية، فالتفتت نحوها بسمة بتفاجؤ..

حدقت فيما كتبته للتو قبل أن تنتبه للصمت الذي عم المدرج، فرفعت بصرها لتجد عشرات الأزواج من العيون التي تنظر إليها بدهشة من بينهم عينا الأستاذ نفسه!

غمرها ارتباكٌ وإحراجٌ عنيف ولم تجد هربًا من هذا المأزق سوى بتصنع السعال العنيف المتحشرج..

ربتت بسمة على ظهرها وهي تقول بقلق: منى.. ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟

تمتمت ببضع كلماتٍ غير مفهومة وهي تواصل تصنعها للسعال، ثم رفعت يدها للأستاذ بما يعني استئذانها للخروج..

لم يبدُ على الرجل أنه اقتنع بنوبة السعال هذه، لكنه سمح لها ربما ليتخلص منها ومن قطعها لتواصل شرحه سريعًا..

همست لبسمة بـ " لا تقلقي " وغادرت مسرعة..

خرجت إلى ساحة الكلية وهي تضم دفترها إلى صدرها بينما يتدافع قلبها بدقاته..

هو..

هو من خط العبارة على زجاج السيارة..

و "يا" تفصلها نقاط عديدة عن "الكون" متبوعةً بالاختصار الإنجليزي .g. mor هي تمويه لعبارة..

" يا أحلى إمرأةٍ بين نساء الكون.. صباح الخير "

****

*** أزاح عن عنقه السماعة الطبية بعد انتهاء الفحوصات وانصراف آخر المرضى..

تراجع في مقعده ملتقطًا نفسًا عميقًا ومخرجًا إياه في عمقٍ مماثل..

أسبوعٌ كامل مضى ولم يظفر برؤيتها ولو لمرةٍ واحدة..

في الصباح الباكر نافذتها دومًا مغلقة، وفي المساء.. لم تتزامن عودته من المستشفى مع عودتها من الجامعة قط رغم تحريه للمواعيد..

يشتاق.. نعم وبشدة، لكن غيابها عن أيامه أورث نفسه ضيقًا لم يتخيل مداه..

تلك الألوان المبهجة التي تلونت بها حياته في وجودها انحسرت عنها الآن مخلفةً لوحةً بالأبيض والأسود، رغم أنها لم تكن كذلك قبلها قط..

لا يعلم مطلقًا ماذا فعلت به ولا كيف.. على حين غرةٍ قررت روحه السُكنى إليها وتعلق قلبه بها حد التشبث، ولا ينوي هو أن يفلتها أبدًا..

فطِنٌ هو كفاية ليدرك أنها تتعمد الابتعاد، ولا يلومها في الواقع..

"أحبك" في وجهها وغزلٌ بأبيات الشعر، ثم.. لا شيء..

لم يصلها للأسف التصرف الذي يليق برجلٍ ناضجٍ مثله..

لم يندم على جهره بمشاعره لها قط، ولو عاد به الزمن لفعل الشيء نفسه، وما كتبه لها على زجاج السيارة فسيعتبره مجرد تحية صباحٍ لا أكثر!

أما الرسالة ف....

حسنًا.. ربما أخطأ حقًا بالتصرف باعتبار ما سيكون، لكن...

لكن مشاعره غلبته حينها على نحوٍ لم يحسب له حساب..

تبًا.. هذا في حد ذاته خطأٌ آخر..

نهض محملًا بضيقه يخلع معطفه الطبي، ثم التقط هاتفه ومفاتيحه وهمّ بالمغادرة عندما استأذنت الممرضة ودخلت تحمل له ملفًا صغيرًا وتقول: د.عمرو.. استوقفني هذا الملف وأنا أحفظ ملفات الحالات في الفترة الماضية.. البيانات ناقصة ولم يُدون به التشخيص ولا العلاج.

التقط منها الملف وطالعه بملٍ تبخر فور أن وقعت عيناه على الاسم المدون في أعلاه..

بالطبع لا تشخيص ولا علاج..

ومن سواها تزور الطبيب في يومٍ ممطر لأنها تنفعل أكثر من اللازم!

هل أخبرها من قبل أنها استثناءً في كل شيء.. حسنٌ.. سيفعل..

تزينت شفتيه بابتسامة، وسحب الورقة الوحيدة التي يحويها الملف ثم طواها وأودعها جيبه قائلًا للممرضة: لا تشغلي بالك.. ليس مهمًا.

مطت السيدة شفتيها بتعجب، ثم عادت تكمل عملها بلا اكتراث..

أما هو فغادر بهدوء وذهنه يعود إلى ذلك اليوم الماطر..

يوم أن حطت على حياته كفراشةٍ رقيقة وأثارت عيناها داخله زوبعات الحيرة..

تذكر أن الممرضة دخلت عليه بعد انصرافها تطلب منه تدوين باقي البيانات التي تخص حالتها.. لم يعتبرها حينها حالةً مرَضية، فترك الورقة على المكتب وانصرف..

وهكذا بقيت الورقة تحمل بياناتها الشخصية فقط.. اسمٌ وعُمر، وربما رقم هاتف..

مهلًا.. رقم هاتف!

كان قد استقل السيارة لتوه، فأخرج الورقة على عجالة..

أجل.. هناك بالفعل رقم هاتف..

ابتسم وشعورٌ بالظفر يتملكه التقط على إثره الهاتف ليدون الرقم بحماس..

توقف قبل أن يفعل وقد تلاشى ظفره وحماسه على حدٍ سواء..

وماذا سيفعل برقم هاتفها؟

لا يمكنه أن يحادثها وإن أراد.. حتى وإن وُجد سببٌ قوي، سيكون هاتف والدها هو الاتجاه الوحيد المتاح..

زفر بإحباط وانطلق بالسيارة..

لم يعد يحتمل هذا الوضع السخيف.. ليس من عادته تعليق الأمور، وبات يكرهه الآن تمامًا..

عليه أن يضع النقاط على الحروف الآن وبلا تأخير..

برزت فكرةٌ ما في عقله، فالتقط هاتفه ثانيةً ليضعها موضع التنفيذ على الفور..

****

*** ناولته قدح القهوة فشكرها، وما إن جلست بجواره ملتقطةً قدحها حتى مال نحوها قائلًا: أريد رأيك في موضوعٍ مهم.

التفتت نحوه باهتمام مكتفيةً بنظراتها المتسائلة.. بدا مترددًا، فقالت ستحثه: خيرًا يا محمد.. كلي آذانٌ مصغية.

بقي على صمته لبرهة رشف خلالها رشفةً من قدحه ثم قال: د. عمرو هاتفني مساء أمس.

بدا في عينيها اهتمامٌ أكبر واعتدلت في مقعدها وهي تقول: خيرًا.

تنهد بقوة ثم قال: لقد وضعني في مأزق.

أفسدت عبارته شهيتها تمامًا لاحتساء القهوة، فوضعت القدح جانبًا وهي تقول بقلق: أي مأزق؟

انتبه لنبرة القلق في صوتها فأسرع يقول: لا أقصد مأزقًا بالمعنى الحرفي وإنما هو ....

عاد لصمته مجددًا، لكن تزايد القلق في عينيها جعله يستطرد: تذكرين زيارته لي الأسبوع الماضي؟

أومأت برأسها، فتلفت حوله يتأكد من أن منى ليست بالجوار ثم قال بخفوت: لقد طلب مني حينها يد ابنتك للزواج.

هتفت بفرحةٍ غامرة: حقًا؟

أشار لها محنقًا بخفض صوتها، فامتثلت مستطردة بحنقٍ مماثل: كيف لم تخبرني بهذا سوى الآن؟ لقد سألتك حينها مرارًا وتكرارًا حتى...

بترت عبارتها بغتة والتمعت عيناها بالتهديد لتكمل حديثها لكن بعبارةٍ أخرى: إياك أن تخبرني بأنك رفضت طلبه.

قال بكياسةٍ وهو يعاود رشف القهوة: كلا بالطبع.. عمرو إنسانٌ جيد ذو خُلق، احترمه كثيرًا وأرتاح له ولم أعلم عنه إلا خيرًا.. لكني أرجأت البت في الأمر لحين انتهاء منى من دراستها.

تنفست الصعداء.. إلا أنها عادت لحنقها سريعًا وهي تقول: هذا لا يبرر إخفاءك الأمر عني.

رمقها بنظرةٍ جانبية ثم قال: أخبرك، ثم تعلم ابنتك كل شيء بعدها بخمس دقائق.. أليس كذلك؟

نظرت له شزرًا، فأسرع يقول: ليس هذا هو المهم الآن.. لقد أخبرته حينها بوجهة نظري وشعرت أنه تفهم ذلك، لكنه هاتفني أمس مساءً يصر على الحصول على إجابةٍ واضحة بالقبول أو الرفض لأسبابٍ خاصة بوالديه، واضعًا إياي في مأزق واضطرار لأن أُفاتح منى في الأمر لأعرف رأيها رغم رفضي لشغلها بأي شيء غير الدراسة في هذه الفترة إطلاقًا.

أومأت برأسها في استحسان، لكنه فوجئ بقولها "معه الحق" وليس "معك الحق" !!

افترض للحظة أن الأمر اختلط عليها، لكنها أكدت مقصدها باستطرادها: من حق الرجل أن ينتظر على أساسٍ واضح أو لا ينتظر من الأساس.. والداه أيضًا بحاجةٍ لذلك ليستطيعا ترتيب عودتهما إلى البلاد.

باستنكارٍ قال: ومن أدراكِ بأمر والديه؟

التقطت قدح القهوة وقد استعادت شهيتها لها، ثم قالت متظاهرةً بالا مبالاة: سمعت بعض الأحاديث من هنا وهناك.. أنت تعرف الجارات وحبهن للثرثرة.. أخبرتني إحداهن أن أسرته تعيش بإحدى الدول الشقيقة منذ فترةٍ طويلة وعاد هو لإتمام دراسته والحصول على رسالة الماجيستير، لكنه قرر بعدها البقاء والعمل بوطنه.

طالعها بدهشة فقد كان هذا ما أخبره به عمرو حرفيًا!

بتنهيدةٍ عميقة تراجع في مقعده قائلًا بضيق: إذًا فأنت ترجحين رضوخي لإصراره وعرض الأمر على منى.

قالت بحماس: أجل بالطبع.. أجّل أمور الخطبة والزيارات الرسمية لأي حينٍ تشاء وخذ وقتك في السؤال عنه وعن أصول أسرته، لكن من حق ابنتك أن تعرف وتقرر بنفسها.

ثم استطردت بما لا تنطق به ملامحها: ربما ترفض وتعفيك من هذا كله.

قال باعتراضٍ متخاذل: لكن.. الدراسة والاختبارات.. كيف ستركز في...

قاطعته زوجته: ابنتك عاقلة تحب دراستها وتعطيها الأولوية دائمًا.. لا تكن قلقًا بهذا الشكل.

غمغم متبرمًا: عاقلة جدًا.

ابتسمت لتبرمه ثم أكملت: هي تعرفه منذ حادثة الدواء الذي سبب لها حساسية، وبالتأكيد تبادلت معه بعض الحديث.

ثم أردفت وهي تُخفي وجهها في قدح القهوة: و... أظن أن هناك بعض القبول بينهما.

قال بضيق وقد بدأ يشعر بالغيرة: حقًا؟

هزت كتفها وقالت: قلت أظن.. لست متأكدة.

- حسنًا.

قالها بزفرةٍ قوية حملت استسلامه وضيقه معًا..

لم يكد يلفظ الكلمة حتى اندفعت زوجته تنادي على منى، فقال معترضًا: ليس الآن.

لكن منى أتت سريعًا تتساءل عما هناك، فقالت لها أمها غير آبهةٍ لاعتراض زوجها: والدك يريدك في أمرٍ هام.

رمقها زوجها بنظرةٍ ساخطة، لكنه لم يلبث أن تنهد وألقى لابنته بما في جعبته..

لاحظ بضيقٍ شديد تورد وجهها وتوترها الذي وشت به لغة جسدها، فتغاضى عن ذلك وقال منهيًا حديثه: خذي وقتك بالتفكير حبيبتي وأخبريني بقرارك متى اهتديت إليـ....

- أوافق.

انفلتت العبارة منها فجأة، فحدق بها والدها بدهشة بالغة.. حتى أمها فعلت..

تعلم أنها تُكن له المشاعر وأنها ستوافق، لكن.. ألا تتحلى ببعض التعقل أمام والدها!

انتبهت منى لحماقتها فاستدركت تقول بارتباك: أقصد.. أنا أوافق مبدئيًا على... عليه.

ثم ازدردت ريقها لتكمل: لكني سأستخير بالطبع و... وأخبرك بما أرتاح إليه.

بقى والدها محدقًا بها، فقلت متصنعة الجدية: طبعًا رأيي السريع هذا مبنيٌ على انطباعك عنه يا أبي والذي أعرف أنه جيدٌ جدًا.

ثم استطردت ملوحةً بيدها بلا مبالاةٍ أدتها بمهارة: لذا لن أضيع وقتي في مجرد موافقةٍ مبدئية.

أتبعت قولها بأن نهضت مردفة: لدي اختبارٌ عملي بعد غد هو أولى بوقتي بالتأكيد.. عن أذنكما.

انسحبت سريعًا إلى غرفتها وأغلقت الباب مسندةً ظهرها إليه وقد تلاحقت أنفاسها وخُيل إليها أن قلبها سيقفز خارج صدرها بهذه الخفقات العنيفة..

تهاوت جالسةً على الأرض حيث هي خلف الباب وهي تحتضن وجهها بكفيها تحاول عبثًا تهدئة لهيب الدماء الذي اشتعلت به وجنتاها..

أما والدها فقد بقي على دهشته وأخذ يداعب مؤخرة عنقه بعدم فهم قبل أن ينظر إلى زوجته مستفهمًا، فقالت بابتسامةٍ وكأن شيئًا لم يحدث: هل أحضر لك قدحًا آخر من القهوة؟

****

*** احتد النقاش وتضاربت الآراء حول نتائج تلك التجربة العويصة التي تضمنها الاختبار العملي، وبدت الفتيات قلقاتٍ بشدة باستثناء منى التي بدا عليها الهدوء وعزفت عن المجادلة معهن حتى سألتها إحداهن: وأنت.. كيف كانت نتائجك يا منى؟

أجابتها بهدوء: أظنها كانت قريبة من تلك التي حصلت عليها أنت وبسمة.

سألتها أخرى: ألست قلقة؟! لقد سمعت حتى الآن خمس نتائج مختلفة.

بذات الهدوء قالت: دونت ما حصلت عليه وانتهى الأمر.

فوجئت بلكزةٍ من بسمة في جانبها، فاستطردت وهي تتصنع التجهم: إلا أنني قلقةٌ جدًا بالطبع.

تواصل النقاش لفترة قبل أن يتفرقن لتقول بسمة مشاكسة وهي تجاورها أثناء خروجهما إلى ساحة الكلية: تبدين في مزاجٍ جيد ما شاء الله.. حتى الاختبار لم ينجح في تعكير صفوه على غير العادة.

ابتسمت وقالت: هذا أكيد.

رمقتها بسمة بنظرةٍ جانبية وقالت: وأين منى التي لا تكف قلقًا على نتائج الاختبارات وتوترنا بأعصابها المشدودة كوتر القوس؟

أطلقت منى ضحكةً خافتةً مجيبة: لا أعرف.. اختفت تمامًا على ما يبدو.

- بركاتك طبيبنا الهُمام.

قالتها بسمة ضاحكةً بدورها ثم أردفت: أراهن أنك لا تقضين في المذاكرة ما تقضينه في عد الليالي والأيام التي تفصلك عن نهاية الاختبارات والدراسة بأكملها.

تنهدت منى بحرارة، فعادت بسمة تضحك قائلة: رفقًا بي يا فتاة.. سأحترق.

دفعتها منى لتُسرع وهي تقول: كُفي عن العبث معي وأسرعي.. أريد تصوير نسخةً من تلخيصك لبعض المحاضرات والعودة سريعًا.. لم أحظى بنومٍ كافٍ منذ فترة.

تنحنحت بسمة وقالت: آه.. بالمناسبة.. لا أنصحك بإعارة دفترك لأي أحد لتصوير ملخصات المحاضرات.

سألتها منى باستغراب: ولمَ؟ هل وجدت ملخصاتي سيئةً إلى هذا الحد؟

أجابت بسمة بابتسامةٍ عابثة: كلا.. جيدةٌ هي في الواقع، لكنها تحوي على كميةٍ لا بأس بها أبدًا من "Amr" مزخرفةً في شتى الأركان.. لم أجد صفحةً واحدة تخلو منها.

توقفت منى وقد التقى حاجباها، ثم فتحت دفترها تقلب صفحاته بسرعة تبحث عما تتحدث عنه بسمة لتجد أنه حقيقةً بالفعل!

غمغمت ووجهها يحمر إحراجًا: ما كل هذا؟ يبدو أنني أصبحت أشرد كثيرًا.

ثم أردفت بزفرة: حسنًا.. سأخفيها ببعض الملصقات.

مالت بسمة عليها تشير إلى نهاية إحدى الصفحات وقالت بتسلي: وماذا عن "زيديني عشقًا" وبقية أبيات الأغنية العتيقة.. أشك في أن لها علاقةً بالكيمياء والعقاقير.

أغلقت منى الدفتر وأشاحت بوجهها تخفي إحراجها المتزايد.. لم تخبر بسمة بسر هذه القصيدة وكل ما يتعلق بها، لذا قالت: سمعتها مؤخرًا وعلقت بذهني.. هذا كل شيء.

أومأت بسمة برأسها في تفهمٍ مصطنع وابتسامتها تتسع، ثم ربتت على كتفها قائلة: أعانك الله يا بنيتي على اختياز الاختبارات بهذا الذهن الشارد دائمًا الولهان حاليًا.

غمغمت منى بتبرم: أصبحت تتحدثين مثل أمي.

****

*** تعلقت عينا باسل بجانب مقدمة السيارة المشهم بجزع ثم غمغم: يا إلهي.

كانت السيارة مصفوفةً في مكانها المعتاد في ساحة المستشفى، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يندفع إلى المبنى يسأل كل من يمر به عن عمرو..

وجده في أحد الممرات فاقترب هاتفًا: عمرو.. ماذا حدث؟ أأنت بخير؟

رفع عمرو بصره إليه مندهشًا، خاصةً عندما وجده يفحصه ببصره من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه والقلق يقفز من وجهه، فقال: أنا بخير يا رجل.. ماذا دهاك؟

أطلق باسل زفير ارتياح، لكنه لم يلبث أن قال بحنق وهو يشير إلى ما خلفه: ماذا دهاني؟! السيارة.. ماذا كنت تتوقع عندما أراها مهشمةً بهذا الشكل؟

بدا على عمرو الاستيعاب وقال: آه.. السيارة.

ثم ربت على كتفه وقال بابتسامةٍ ممتنة: آسف إن أقلقك هذا.. لقد كان حادثًا بسيطًا.

قال باسل بقلق: كيف يكون بسيطًا وقد تضررت السيارة إلى هذا الحد؟

أجابه عمرو بهدوء: يمكنك القول إني اعتبرته بسيطًا لأني لم أكن بداخل السيارة حينها.

ثم تأبط ذراعه ليسير معه بينما يقص عليه ما حدث باختصار..

أخبره أنه أثناء عودته من المستشفى أمس، صفّ السيارة على جانب الطريق ليبتاع شيئًا للغداء، عندما فقد سائق سيارة أجرة سيطرته على سيارته فجأة إثر محاولته إشعال سيجارة والرد على هاتفه في الوقت ذاته، لينتهي بها الحال في عناقٍ بائس مع سيارته المسكينة..

تمتم باسل بـ "تبًا" محنقة، وقال بغضب: وكيف تصرفت معه؟

ثم تابع وهو يضرب راحته بقبضة يده الأخرى: أقسم أنني لو كنت مكانك لهشمت وجهه وسحبته من قفاه لقسم الشرطة لتحرير محضر يُلزمه بتحمل تكاليف ما أتلفه استهتاره.

مط عمرو شفتيه وقال: كنت غاضبًا جدًا بالفعل، لكن الرجل كان كبيرًا في السن.. ومع اعتذاره الشديد والمتكرر ووصفه لبؤس حاله، تركته يرحل.

التفت إليه باسل باستنكارٍ وقال: لم يكن عليك تصديقه.. بالطبع كان يختلق الحجج ليتهرب من المأزق الذي زج بنفسه فيه.

استمرت وصلة استنكار باسل لبضع دقائق استمع لها عمرو صابرًا رغم أن الأمر لم يعد يشغل باله..

صحيحٌ أنه ترك الرجل يرحل بإرادته بالفعل، إلا أن غضبه لم يتبدد من تلقاء نفسه، بل عندما تلقى اتصالًا من المهندس محمد بعدها بدقائق يخبره فيه بما أثلج قلبه وطال انتظاره له ليومين كاملين.. غمره حينها ارتياحٌ غامر طغى على كل شعورٍ غيره، فبدا تضرر سيارته الشديد كشيءٍ لا يستحق الذكر.. ببساطةٍ أكمل طريقه مؤجلًا إصلاح السيارة لما بعد..

ورغم أنه لم يشغل باله منظرها المزعج، إلا أنه تركها في الشارع الخلفي للمنزل تجنبًا لأن يراها أحد حتى يُعيدها سيرتها الأولى..

- حمدًا لله على كل حال.. المهم أنك بخير.

أنهى بها باسل حديثه تصحيها تنهيدة، قبل أن ينشغل كلٌ منهما بعمله..

التقيا ثانيةً عند انتصاف النهار أثناء نقاشٍ آخر جمعهما ببعض الزملاء حول أمورٍ خاصة بالمستشفى..

حينها اهتز هاتف عمرو معلنًا قدوم اتصال.. ألقى نظرةً على هوية المتصل فوجده رقمًا غير مسجلٍ لديه، فتجاهله ليواصل حديثه..

بضع دقائق وتكرر الاتصال من نفس الرقم، فاستأذن زملاءه بإشارةٍ من رأسه ثم ابتعد خطوتين ليجيب هذا المُلحّ..

"د. عمرو.. هل أنت بخير؟"

كان هذا سؤالًا قلقًا من زميل آخر اقترب منه في هذه اللحظة.. حجب الصوت سريعًا عن المكالمة ليُجيبه ببضع عباراتٍ مقتضبة ويشكره على سؤاله بامتنان.. هذه السيارة سببت له مشكلةً اليوم! ويبدو أنه الوحيد الذي لا يُلقي بالًا لمنظرها المقلق..

عاد إلى محدثه على الهاتف لتصل إلى مسامعه "مرحبًا" بدا من الواضح أنها ليست الأولى.. التقى حاجباه ونبرة الصوت تثير داخله اضطرابًا.. لم يقصد أن يلزم الصمت لكنه فعل، لتأتيه "مرحبًا" أخرى جعلت عيناه تتسعان وانفعاله يحتشد..

هذا الصوت.. مهزوزٌ متوترٌ قلِق، يحاول صبغ كل ذلك بالهدوء، لكنه...

لكنه صوتها!

أو هكذا ظن.. معقول؟

تردد الأنفاس التي تسرب إليها التوتر جعله ينتبه إلى أنه لازال يلزم الصمت، فأسرع يقول: مرحبًا.

بلغ مسامعه زفير ارتياح تبعه صمتٌ مطبق..

كان في حيرةٍ حقيقة من أمره عقدت لسانه، لكن الابتسامة شقت طريقها إلى شفتيه شقًا عندما أتاه ذات الصوت يقطع شكه باليقين وهو يقول بتردد: السلام عليكم.

وكأن "مرحبًا" لم تكن إلقاءً للتحية!

تحرك يبتعد أكثر، ثم رد بهدوءٍ لا يعكس ما يجيش في صدره: وعليكم السلام.

إنها هي ولا شك.. وأيًا كان ما تحادثه بشأنه، ممتنٌ هو لسماعه صوتها الذي أشعره بحجم اشتياقه.. لها..

لحظاتٌ أخرى من الصمت مرت، ثم وبارتباكٍ يشي بكونها لا تعرف كيف تصوغ ما تريد قوله، قالت: أنا... أنا منى.

"أعلم حبيبتي بالطبع"

قالها لنفسه، لكن ما قاله لها وابتسامته تتسع كان: لا يمكنني أن أُخطئ صوتك.

زادها ما قال ارتباكًا، ولم تكن فعليًا تعرف ما الذي تفعله الآن..

منذ الأمس والقلق يمزقها.. كانت قد خرجت إلى المكتبة القريبة الكائنة بحيهم لتشتري بعض الأقلام والدفاتر، وأثناء عودتها ومرورها من بين المنازل، رأت السيارة في الشارع الخلفي..

أصابها الهلع ولم تعرف ماذا تفعل..

ماذا أصابه؟ وكيف هو الآن؟ أتراه بخير أم أصابه مكروه؟

كلها أسئلة طفقت تطوف بذهنها بلا توقف..

أرادت إخبار والدها فبالتأكيد سيهاتفه ويطمئن عليه، لكنها لم تستطع حينها التحلي بالهدوء الكافي للتحدث مع أبيها في أمرٍ يخصه..

لم تتمكن من التركيز في أي شيءٍ تفعله بقية يومها، ولم تذق طعم النوم طوال الليل..

صورته وهو طريح الفراش في مستشفى ونصف جسده مغطى بالضمادات هي فقط ما كانت تُلح على عقلها..

في الصباح كانت بحالٍ سيئة وخرج والدها إلى عمله مبكرًا..

بضعة ساعاتٍ أخرى كانت كافية لينتصر عليها القلق..

تعرف هي رقم هاتفه فقد لمحته على هاتف والدها ذات مرة وحفظته عن ظهر قلب..

أرادت الاطمئنان ولم تعرف كيف، فقررت التحدث إليه وليكن ما يكون..

- كنتُ... أقصد أبي.. أبي كان يتساءل عما إذا كنتَ... بحالٍ جيدة.

كان هذا ما قالته بارتباكها المحبب ذاك، والذي بدأ على إثره يفهم..

لابد أنها رأت السيارة رغم حرصه على إخفائها تجنبًا لإثارة قلقها هي بالذات..

ولابد أن قلقها هذا هو ما دفعها إلى مهاتفته للاطمئنان عليه..

صمتَ يستمع إلى صوت أنفاسها المضطربة والتي اضطربت لها خفقات قلبه..

ضايقه كونه تسبب في إقلاقها بهذا الشكل، إلا أنه استلذ بحق شعوره به، فقال قاصدًا ألا يمنحها إجابةً شافية: الحمد لله على كل حال.

"غرفة العمليات جاهزة.. هل أنت مستعد؟"

عبارةٌ ألقاها أحد الأطباء مخاطبًا بها آخر وهما يمران بجواره في تلك اللحظة.. رد الآخر بما لم يبلغ مسامعه واضحًا ولم يُلقِ له بالًا، لكنه لم ينتبه إلى أن العبارة الأولى وصلتها عبر الهاتف إلا عندما هتفت بجزعٍ وقلقٍ بالغ: عمرو.. هل أنت بخير؟

التقى حاجباه ونطقها لاسمه بهذه الطريقة يثير انفعاله..

دفء..

دفءٌ ساحر يحيط به، بل يغمره..

هذا هو ما يشعر به الآن..

هذه هي منى وهذا ما تمنحه إياه مشاعرها نحوه بسخاءٍ لا تدركه..

لم يستطع أن يطيل عليها أكثر فقال بسرعة: اطمئني أنا بخير.

ظلت أنفاسها على اضطرابها، فعاد يقول: صدقًا أنا بأفضل حال.

عادت لصمتها الذي لا تعلم أنه أشد وطأةً على قلبه من أي حديث، لكنها لم تلبث أن قطعته

بهمس: حمدًا لله.

ثم أردفت وقد هدأت قليلًا وعاد إليها ارتباكها: أردتُ الاطمئنان فحسب.. أقصد أبي.. سأطمئنه حالًا.

ابتسم..

ما ألذها! وما ألذ اعتقادها بأن تتخفى فعلًا خلف ذكر أبيها..

قال يجاريها: أعتقد أني أدين له بالاعتذار.. ما كان عليّ أن أثير قلقه بهذا الشكل.

عادت للصمت فلم تكن تعرف بمَ تجيب، فعاد يقول: ربما من الأفضل أن أراكِ في أقرب فرصة لتتأكدي بنفسك وتؤكدي له أني لا أزال قطعةً واحدة ولم تتهشم مني أية أجزاء.

قالت بارتباكٍ وخفوت: لا مشكلة.. طالما أنت بخير.

قال بخفوتٍ مماثل: المشكلة لديّ أنا.. فقد اشتقتُ ولم أعد أحتمل.

صمْت .....

لابد أن عينيها اتسعتا وتوردت وجنتاها.. لابد أن ارتباكها بلغ أقصاه.. لابد أنها ستفر الآن وتُنهي الـ...

- عن إذنك.

قالتها سريعًا وأنهت الاتصال بغتةً بالفعل، فخفض الهاتف مطلقًا ضحكةً خافتة..

أما هي فتجمدت على مقعدها وهي تقبض على الهاتف بقوة تحاول عبثًا تنظيم تنفسها..

أمالت رأسها تُسند جبهتها على سطح المكتب مطلقةً تنهيدةً حارة..

ها هي ذي قد تورطت في تهورها مجددًا..

لم تكن تعلم أنه -وفي هذه اللحظة بالذات- تُلحّ على خاطره بشدة عبارةٌ لا يذكر منها إلا النذر اليسير..

كان يهوى الشعر فيما مضى لكنه انشغل عنه لسنوات.. الآن يسترجع عقله كل علق به سابقًا باحترافٍ يثير دهشته هو نفسه، لكنه يعلم السبب على الأقل!

لم يستطع تنحية تلك العبارة عن تفكيره، فبحث عنها على الشبكة العنكبوتية حتى وجدها..

كان قد تأكد من أنها تستخدم هاتفها الشخصي من الرقم في ورقة بياناتها التي بحوزته، ولم يشعر سوى وهو يكتب لها..

"دافئةٌ أنتِ كليلةِ حُب.. من يومِ طرقتِ الباب علىَّ، ابتدأ العُمر"

توقفت سبابته طويلًا أمام زر الإرسال..

تردد..

يرى بوضوح أن مشاعره تقوده ثانيةً..

أغمض عينيه وتنهد بقوة و...

وألغى ما كتبه للتو..

سيصبر..

سيصبر حتى يكون بإمكانه إلقاء كل قصائد الدنيا على مسامعها..

****

*** طال الصبر لثلاثة شهور..

كثلاثة أعوامٍ على قلبيهما كانت، لكنها في النهاية مضت بعدما حملت لهما نهايتها حفل خطوبةٍ وعقد قرآن بسيط جمع المقربين من الأهل والأصدقاء..

بابتسامةٍ حالمة رفعت منى يدها تتأمل خاتم الخطبة رائع الجمال الذي طوّق به بنصرها ليلة أمس.. كان شعورها بالسعادة حينها لا يوصف وهي إلى جواره..

صحيحٌ أنهما لم يتبادلا إلا القليل من الحديث وسط ضوضاء الموسيقى والتصاق والدته به ووالدها بها، إلا أن التقاء عيونهما كان يقول الكثير..

يده التي أحاطت يدها طوال الوقت كانت تبثها ما أهو أثمن وأعمق من الكلمات..

كانت منبهرةٌ به، وكان مفتونًا بها.. ولم يعد ذلك يخفى على كليهما أو على أحد!

ثم انتهى الحفل سريعًا كلحظات حلمٍ جميل..

رنّ هاتفها بنغمةٍ معينة كانت قد خصصتها له، فاندفعت نحو الهاتف بقلبٍ مبعثر الخفقات.. التقطت نفسًا عميقًا تستعيد به هدوءها، ثم أجابته قائلةً والابتسامة تحتل ثغرها تلقائيًا: مرحبًا.

- مرحبًا حبيبتي.. كيف حالك؟

تبعثر هدوؤها ونبضها ثانيةً على الفور والكلمة التي تسمعها للمرة الأولى من بين شفتيه تعيث داخلها مشاعر هوجاء، بينما تابع هو بلهجةٍ خافتةٍ دافئة يزيد من بعثرتها: اشتقت إليك..

لم يلقَ منها ردًا وكان يعرف يقينًا أنها لن تفعل، فأكمل هامسًا دون أن ينتظر طويلًا: كثيرًا جدًا.

بقيت على صمتها دون قصدٍ منها.. تاهت منها الكلمات وتاهت هي نفسها في مشاعرها..

صمت هو الآخر مستلذًا صوت أنفاسها المضطربة التي تنسمت على قلبه كنسماتٍ ربيعٍ دافئة.. لكنه عاد يقول بمرح مؤجلًا بث شوقه إليها لحين رؤيتها: كنتُ قد تلقيت بالأمس دعوةً من والديك لنتاول الغداء، فهل يا تُرى لازالت الدعوة سارية أم أن أباكِ قد قرر إلغاءها؟

بضحكةٍ صغيرةٍ قالت: ولماذا قد يفعل أبي ذلك؟

أجابها قائلًا: لا أعرف.. بدأت أشعر أنه يغار عليك مني وأنه لا يطيق وجودي بجوارك.

عادت تضحك، فأردف ضاحكًا بدوره: سامحك الله أنت السبب.. كنا صديقين حميمين من قبلك.

قالت وابتسامةٌ متسلية تغفو على ثغرها: ألست تبالغ قليلًا؟ أبي رجلٌ طيب.

رد بجدية مصطنعة: صدقًا هذا ما شعرت به في الفترة الأخيرة ولا ألومه في الواقع.

ثم أردف وصوته يعود ويكتسب ذلك الخفوت المهلك: لو كانت لدي ابنةٌ فاتنةٌ مثلك بعينين ساحرتين ورقةٍ طاغية، لهشمت أنف كل من تسول له نفسه الاقتراب.

ها قد عاد يبعثرها!

أفلتت منها ضحكةٌ خجلة قبل أن تستطيع بصعوبةٍ بالغة لملمة نفسها وتجاوز وصفه الذي رقص له قلبها طربًا، لتقول: هذا يعني أن والدتك أيضًا تغار، فلم تبرح جانبك أمس للحظةٍ واحدة.

قال ضاحكًا: أنت محقة.. اكتشفت هذا مؤخرًا أيضًا.. لقد قالت لي أمس صراحةً بعد الحفل "لقد اختطفت هذه الصغيرة قلبك" لكني أخبرتها أن هذا ليس صحيحًا.

صمتت لحظة، ثم قالت بترقب: و... وما هو الصحيح؟

صمت هو الآخر لبضع لحظاتٍ شعرت خلالها أن صمته كحديثه.. كلاهما يفتك بها!

لكنه لم يلبث أن قال وابتسامةٌ تغزو ثغره: أخبرتها أن قلبي لم يستطع مقاومة سحر هذه الصغيرة طويلًا فغادرني إليها بملء إرادته.

رسمت ملامحها صورةً مجسمة للسعادة والخجل وهي تزيح خصلات شعرها خلف أذنها مكتفيةً بصمتها مجددًا..

أما هو فتنهد وعقله ينبهه أن أمنيته بأن يرى وجهها الآن مستحيلةٌ تقريبًا..

- لستُ صغيرة.

قالتها بخفوت بعدما دام صمتها لبرهة، فقال بصوتٍ مثقل بالعاطفة: بالطبع.. أنت صغيرتي أنا.. وحبيبتي.

أفلتت من قلبها نبضاته لمرةٍ لا تحصي عددها والكلمة تعود وتمس شغاف قلبها، بل تذيبها تمامًا..

فجأةً آثرت اللجوء إلى الشيء الوحيد الي تُجيده أمامه..

الهروب..

قالت بسرعة: أنا بانتظارك.. وأمي وأبي بالطبع.. حسنًا؟

أطلق ضحكةً خافتة وقد اعتاد هروبها بهذه الطريقة.. لم يكن ليدعها تهرب بهذه السهولة لولا وجوده في المستشفى.. المكان غير مناسب لمكالمةٍ طويلة فبالكاد يستطيع الانفراد بنفسه بضع دقائق، لذا قال ضاحكًا: هكذا إذًا! حسنٌ.. سأدعك تهربين هذه المرة أيضًا، لكن ثقي بأنها ستكون الأخيرة.. إلى اللقاء.

دس هاتفه في جيبه ثم خرج ليواصل عمله..

التقى أثناء مروره على مرضاه بباسل الذي قال فور رؤيته: عمّور.. كيف حالك؟

تصافحا في قوة وباسل يكمل غامزًا بعينه: لابد أنك في أحسن حال.

ضحك عمرو وقال: أظن ذلك.

- لا أدري لماذا يسألني الجميع عنك ولا يسألونك أنت مباشرة.. لا تمر بضع دقائق حتى يسألني أحدهم أو إحداهن "هل خطب د. عمرو فعلًا؟! " نعم يا جماعة.. و الله خطب فعلًا وأخيرًا.. ارحموني أرجوكم!

عاد عمرو يضحك وقال: بالفعل لم يسألني أحد وهذا أفضل.

أشار باسل بسبابته محذرًا بمزاح: سيتجمهرون عليك دفعةً واحدة ما إن يجدوك، لذا لا تفرح كثيرًا.

مشيا متجاورين وباسل يستطرد بابتسامة: كانت حفلةً رائعة أمس.. مبارك.

ربت عمرو على كتفه ممتنًا: العقبى لك يا صديقي في حفل زفافك إن شاء الله.

هز باسل رأسه وقال: لقد حددت له موعدًا الشهر القادم.

- حقًا! هذا رائع.

قالها عمرو بسرور، فقال باسل بكياسة: لم أكن أخطط له في الوقت الحالي، لكني وجدت أنه من غير المعقول أن أخطب قبلك بعام وتتزوج قبلي.

تعالت ضحكات عمرو ثم قال: جميلٌ أن يدفع المرء صديقه للأمام، وها أنا ذا أفعل.. أعتقد أنك مدينٌ لي بالشكر.

هز باسل رأسه باعترافٍ ضمني وهو يضحك هو الآخر..

مع قرب انتهاء ساعات عمله تجمهر عليه زملاؤه بالفعل يهنئونه.. كان يستعد للمغادرة لكنه اضطر إلى البقاء معهم حتى يقرروا تركه.. لم يكن هذا ليضايقه أبدًا سوى أن توقيتهم كان مستفزًا..

مر الوقت وهم يتراشقون بالدعابات على شرفه.. حسنًا لا بأس.. قولوا ما تريدون لكن بسرعة!

انفضوا من حوله أخيرًا فغادر المستشفى على عجل..

كان متلهفًا لا يُنكر.. بل كان يتحرق شوقًا منذ الصباح لانتهاء ساعات دوامه..

يتحرق شوقًا لشراء باقةٍ من الزهور..

يتحرق شوقًا ليراها..

بالأمس كانت رائعة الجمال بثوبٍ بسيط وزينةٍ أبسط ولكن برقةٍ جديرةٍ بملاك!

وواثقٌ هو بأن ملاكه اليوم سيكون أكثر رقةً وجمالًا..

مر من الشارع الخلفي لمنزله وترك السيارة هناك..

لا يحب شيئًا أكثر من مفاجأتها بوجوده، ففي كلٍ تمنحه شعورًا ألذ من سابقيه..

كانت في هذه الأثناء قد بدأت تشعر بالتوتر.. لا تكاد تمر بضع دقائق حتى تُلقي نظرةً عبر ستائر النافذة، ثم إلى نفسها في المرآة فيزيد على توترها الخجل والارتباك..

لا تعرف كيف ستخرج له هكذا..

تتأمل ثوبها الأرجواني القصير الذي بالكاد يغطي ركبتيها ويكشف كامل ذراعيها وتمرر أصابعها على التفافته الناعمة حول جسدها على نحوٍ يبرز مفاتنها فيتضاعف خجلها وتغمغم: سامحك الله يا بسمة.

كانت بسمة هي من شجعها على اقتنائه من أجل هذا اليوم بالذات وأخبرتها أنه جميلٌ للغاية ويليق بها..

عدلت من وضع شعرها الذي زادت من تموجه وتركته حرًا، ثم وضعت بعض اللمسات الأخيرة على زينتها وفكرة تغيير الثوب تراودها بشدة..

في النهاية حسمت ترددها.. ستغيره.. سترتدي الثوب الوردي فهو أكثر طولًا و...

تعالى صوت جرس الباب فجأةً يقطع أفكارها فاندفعت نحو النافذة لترى مكان السيارة الخالي..

بالتأكيد ليس هو.. لابد أنه والدها وقد عاد مبكرًا من أجل استقباله..

تناهى إلى مسامعها صوت خطوات أمها وهي تتجه نحو الباب، فأجلت تغيير الثوب قليلًا وخرجت لتُلقي السلام على أبيها..

توقفت في منتصف الردهة بتفاجؤ وعمرو يخطو إلى الداخل بكامل أناقته تسبقه رائحة عطره، يحمل وجهه ابتسامته العذبة التي تعشقها وتحمل يده باقةً ضخمة من الزهور..

تجمدت حيث هي وتعلقت عيناها به وقد نسيت أمر ثوبها القصير مؤقتًا، بينما التفت هو نحوها بنظرة شوقٍ ولهفة دغدغت مشاعرها فأطلت من عينها بوضوحٍ صارخ أصاب قلبه في مقتل..

التهمتها عيناه من قمة رأسها حتى أخمص قدميها فتلاشت ابتسامته دون أن يشعر والتقى حاجباه..

هي..

هي ليست أكثر جمالًا ورقة من أي وقتٍ مضى فحسب، بل أكثر مما كان يتخيل!

لقد أراد مُفاجأتها فكانت المفاجأة من نصيبه هو!

شعر بمشاعره تجتاحه فأبعد ناظريه عنها ملتفتًا نحو أمها التي استقبلته بترحيبٍ حار..

استعادت شفتيه الابتسامة وهو يصافحها في حرارة ويرد عليها بلباقة..

ظلت منى تقف حيث هي تائهةً في تأمل ملامحه خاصةً بعد انشغاله بأمها، لكنها وبعد عدة لحظات انتبهت إلى أنه مازال يحمل باقة الزهور ولم يقدمها لها ولم يخاطبها بحرفٍ واحدٍ بعد!

قادته والدتها إلى حيث يجلس وتبعتهما هي.. وقبل أن يستقر في مجلسه التفت إليها وقرّب منها باقة الزهور في صمت..

تطلعت إليه فابتسم ابتسامةً صغيرة وقربها أكثر قائلًا بخفوتٍ أقرب للهمس: تفضلي.

مدت يدها لتلتقطها فتلامست أصابعهما..

عادت ابتسامته تتلاشى وتراجعت هي خطوةً للخلف وقشعريرةٌ لذيذة تعبر جسدها من أعلاه إلى أدناه..

دفنت بصرها في باقة الزهور تتأملها بدون تركيزٍ فعلي رغم جمالها الأخّاذ، بينما أخذ هو وأمها يتبادلان الحديث في ود..

دقائق ودخل والدها ملقيًا السلام فاتجهت نحوه..

نقل بصره بينها وبين عمرو قبل أن ينتابه الضيق وهو يطالع هيئتها الملفتة..

هل ازدادت البنت جمالًا أم يُهيأ له!

كوردةٍ في ريعان نضارتها بدت.. أكُل هذا الاهتمام من أجله!

تسرب الضيق إلى قلبه وهو يشعر بأن طفلته غاليته قد امتلك قلبها أحدهم وشاركه فيها!

غالب ضيقه بصعوبة وهو يميل نحوها يطبع قبلةً على وجنتها، ثم اتجه نحو عمرو -الذي نهض لاستقباله- محييًا..

جلسوا جميعًا وتواصل الحديث بينهم عداها هي!

كانت تجلس صامتة مكتفيةً بابتسامةٍ صغيرة، وبدا وكأن عمرو يحاول قدر الإمكان ألّا ينظر نحوها على نحوٍ أثار حيرتها وضيقها في الوقت ذاته، بعكس والدها الذي أراحه ذلك فاندمج في حواره معه وكأنما يقصد شغله عنها!

لم يطل الوقت حتى أتى الوالد اتصالٌ بدا واضحًا من تعبير وجهه وهو يطالع شاشة الهاتف أنه مهم، فقام مضطرًا ليُجيبه بعدما أستأذن عمرو وأرسل نظرةً تحذيرية لزوجته مفادها ألا تغادرهما قط حتى يعود..

لكن الأم بمجرد ابتعاده ابتسمت ونقلت بصرها بينهما.. تحدثت قليلًا مع عمرو تسأله عن أحوال والدته، ثم قامت متعللةً بإتمام تجهيز الطعام..

حينها، التفت إليها ببطء..

تمردت نبضات خافقها فجأةً وأفلتت من عقالها بمجرد أن تلاقى ناظراهما..

حملت لها عيناه ما لم تحمله لها من قبل وما لم تفهمه، وبرغم ذلك أثار مشاعرها وبعثرها كرمالٍ في وجه عاصفة..

أرادت أن تبتسم له وتفتح بابًا للحديث، لكن الفكرة تبخرت فور أن شعرت بنظراته تتحرك لتحاصرها من كل اتجاه حتى لم تعد تعرف أين يوجهها بالضبط..

غمرها الارتباك والخجل فأزاحت خصلةً من شعرها إلى الوراء دون سببٍ واضح، قبل أن تخفض بصرها إلى يدها لتداعب خاتم الخطبة في محاولةٍ منها للتهرب من نظراته والتفكير في أي شيءٍ تقوله..

انتبهت حينها إلى ثوبها الذي انحسر مع جلوسها إلى ما فوق ركبتيها، فأخذت تجذبه للأسفل بسرعة، لكن.. بلا فائدة!

تضاعف خجلها وتسربت الحمرة إلى وجنتيها، فقررت النهوض واللحاق بأمها..

أما هو فكان في عالمٍ آخر لا يوجد به سواها هي..

منذ أن وقع بصره عليها وهو ليس على ما يُرام.. وحينما أصبحا بمفردهما لم يستطع أن يكبح جماح نفسه أكثر..

أخذ يتأملها كلها مدمرًا كل القيود التي قيدته سابقًا..

ترك لجميع مشاعره العنان فخرجت ترمح نحوها تحاوطها من كل صوب..

مرت لحظاتٌ ولحظات..

عادت عيناه إلى وجهها فأحس أن خجلها وارتباكها قد بدآ يتحولان إلى توتر وقد أخذت تتململ في جلستها محاولة عبثًا زيادة طول ثوبها!

ابتسم على الرغم منه.. يبدو أنه قد أطال النظر دون أن يشعر..

وجدها تقوم فجأةً وتقول: سأحضر العصير.

تحركت بالفعل دون أن تنتظر رده، فقام هو الآخر بسرعة يمسك معصمها ويوقفها مرغمة..

التفتت إليه مندهشة فوجدته يقول: لا أريد أي شيء...

ثم جذبها نحوه برفق مردفًا: سواك أنتِ.

و قبل أن تدرك ماذا يقصد كان قد أحاطها بذراعيه و ضمها إلى صدره في قوة..

شعرت بقلبها يتوقف لحظة، ثم يعود فيخفق بمنتهى العنف..

شعرت بروحها تنسحب منها وكادت تهتف معترضة: عمرو!!

لكنها خرجت همسًا رغمًا عنها، والدفء يغمر كيانها بأكمله..

شعرت وكأن ذراعيه اللتان تحيطانها الآن قد أصبحت حدود عالمها الذي لا تريد الابتعاد عنه..

تدفقت مشاعرها و...

وتركت نفسها تغرق في بحارها..

استسلمت لأمواجها التي أخذت تدفع قلبها بنعومةٍ ذهابًا وإيابًا نحو شواطئ حضنه الدافئ..

أحس هو بتفاجئها وكان يقصده..

أحس باعتراضها وقد أحبه..

همست باسمه تزيد اعتراضها فزادت مشاعره تأججًا..

حرك ذراعيه على ظهرها يضمها أكثر، فشعر باعتراضها يذوب وبرأسها يرتاح على صدره..

شعورٌ لم يتخيل لذته من قبل..

أن تضم إليك من تُحب..

أن تحيطه بذراعيك لتدخله إلى عالمك..

ضمها أكثر وأكثر وكأنه يريد أن يخفيها داخل صدره وأسند رأسه إلى رأسها هامسًا: كم اشتقت إليك.

أبعدت رأسها قليلًا لتطالع وجهه..

عيناها الساحرتان.. ها هما ذان يغوص فيهما..

ملامحها التي يعشق.. ها هي ذي ملء عينيه..

مشاعرها البريئة.. ها هي ذي تفيض لتغرقه..

كل ما فيها كان لوحةً تنطق بألف كلمة "أحبك"..

أطال كلٌ منهما النظر إلى وجه الآخر قبل أن يرفع يده نحو خصلةٍ من شعرها كانت تخفي جزءًا من عينها ووجنتها فأزاحها إلى ما خلف أذنها..

غاصت أصابعه في غياهب شعرها قليلًا ثم عادت إلى وجهها تحتويه بينما يهمس: هل أخبرتك من قبل أني أُحبك؟

أشرق وجهها بقبسٍ من السعادة وبدا أنها ستومئ برأسها إيجابًا، لكنها حركتها بالنفي بدلًا من ذلك منتزعةً منه ضحكةً قصيرة خافتة..

هبطت عيناه إلى شفتيها مقاومًا إغرائهما بصعوبة ثم قال: سيقتلني أحدهم لو رآك بين ذراعي الآن، لذا سأخبرك فيما بعد بطريقةٍ أخرى وأكتفي بهذه.

مال نحو خدها الذي تورد مع كلماته يطبع قبلةً أرادها صغيرةً لكنها لم تكن كذلك أبدًا، بينما عادت هي تهمس باعتراض: عمرو!

تسللت إلى أذنه حروف اسمه يحملها صوتها الهامس..

مرةً أخرى ذلك الاعتراض المتخاذل بتلك اللهجة التي تُعيث في قلبه الفساد..

أحقًا تعترض بهذه اللهجة أم تطلب منه المزيد!!

تنهد بقوة وهو يُرغم نفسه على الابتعاد..

أمسك يديها بكلتا يديه وضغطهما في رفق قائلًا: لا تذهبي لتحضري أي شيء.. فقط ابقي بجواري.

بإحساس طفلةٍ حظيت بحلوى العيد، جلست إلى جواره كما رغب، لكن انحسار ثوبها القصير وهو بهذا القرب منها أعاد إليها الارتباك والتوتر..

همّت بالنهوض ثانيةً، فاعترض بنظرة رجاء..

لم تعرف ماذا تقول ولا كيف تشرح له الأمر، لكنه لم يكن بحاجةٍ لذلك..

التقط باقة الزهور ووضعها أمامها مخفيًا ما تخجل أن تُظهره قائلًا ببساطة: أهكذا أفضل؟

ابتسمت له في حب وهي تومئ برأسها إيجابًا وتسترخي في جلستها..

قالت و هي تداعب الأزهار: إنها جميلة.

- ليست أجمل منك.

جاوبته بضحكةٍ خجلى، فقال وهو يميل نحوها مسندًا ذراعه خلفها على ظهر الأريكة حيث جلسا: كل ما فيكِ اليوم يتآمر معك ضدي، حتى ثوبك ولونه.

"حبيبتي يا بسمة.. كنت أعلم أن ذوقك رائع"

قالت ذلك في سرها بالطبع، أما أمامه فتمتمت تحاول إخفاء سعادتها بإطرائه والتظاهر بالوقار: لكنه قصيرٌ أكثر من اللازم.

رفع أحد حاجبيه وهو يطالع الزهور وقد بدأ يندم على لجوئه لها: هذا أحد أهم أسباب جماله!

قالت بخفوت وهي تنظر إلى عينيه: أعجبك؟

لم تكن تريد بسؤالها إجابة.. ما كانت تريده هو ذاك الذي حملته لها عيناه لحظة أن وقع بصره عليها..

وكان لها ما أرادت!

نطقت عيناه بكل ما لا يمكن للكلمات أن تصوغه، ثم همس وهو يميل نحوها أكثر: وهل كان لديك شكٌ في ذلك.. أنت فاتنةٌ في كل أحوالك.

تضرُج وجهها بحمرة الخجل كان أكثر من كافٍ بالنسبة له، فالتقط بطاقة الاهداء من بين الزهور.. لم يكن قد كتب لها شيئًا بعد، فأخرج قلمه وكتب..

"هل عندكِ شكٌ أنك أحلى وأغلى امرأةٍ في الدنيا.. وأهمُ امرأةٍ في الدنيا..

هل عندكِ شكٌ أن دخولك في قلبي هو أعظمُ يومٍ في التاريخِ وأجملُ خبرٍ في الدنيا"

****

*** في المطبخ.. لم يكن هناك شيءٌ بحاجةٍ إلى تجهيز فالطعام كان جاهزًا بالفعل..

صبت أمها بعض العصير ثم خرجت إليهما مغمغمة: أظن عشر دقائق كافية ليقولا ما يريدان.. يكفي هذا حتى لا يتهورا.

رأتهما يجلسان متجاوران على مسافة فتنهدت بارتياح..

استقبلها عمرو بابتسامةٍ كبيرةٍ بريئة، في حين قالت هي لمنى: ها قد أنساك عمرو وكلامه الترحيب به كما يجب.

قامت منى تلتقط منها صفحة كؤوس الشراب البارد وهي تقول ضاحكة: إن كان هو السبب فهو يستحق.

أتى والدها الذي سُرّ لانشغالها وأمها بإعداد المائدة، ثم تناول الجميع الغداء في جوٍ حميمي..

بعدها قام عمرو مستأذنًا ومتحججًا بالعيادة.. بدا على منى الاحباط لكنه كان قد تأخر بالفعل..

ودعه والدها أمام باب المنزل ثم فوجئ بزوجته تجذبه من ذراعه إلى الداخل رغمًا عنه..

بدا معترضًا لكنها همست وهي تواصل جذبه بإصرار: امنحهما دقيقةً أخيرة ليتحدثا بحريةٍ يا رجل.

كتم عمرو ومنى ضحكاتهما وقد بلغهما ما تهامسا به، ثم قال وهو يغمز لها: ذكريني أن أُبلغ والدتك تحياتي الحارة..

عادت تضحك قائلة: حسنًا.. سأفعل.

التقط عمرو يدها واحتواها.. كان كفه يعانق كفها لا يصافحه تمامًا كحال عينيه أمام عينيها، وبخفوتٍ قال: أراكِ قريبًا.

همست له: سأشتاق إليك.

قال متظاهرًا بالشك: حقًا؟

ردت في خجلٍ وخفوت: بالتأكيد.

ظل محتفظًا بيدها يضغطها في رفق وكأنما يبثها مشاعره، ثم قال بغتة: لديّ اقتراح..

بدا عليها التساؤل فأردف: ما رأيك لو تزوجنا غدًا؟

أطلقت ضحكةً طويلة، رقيقةً ساحرة مست شغاف قلبه وقالت: غدًا؟! وكيف ذلك؟

هز كتفه وقال مبتسمًا: لا أعرف.. وافقي أنت وسأتصرف أنا.

عادت تضحك ثم صمتت..

تطلعت إليه طويلًا تملأ عينها بملامحه وابتسامته..

لم تعلم أبدًا أن ما أظهرته ملامحها في المقابل قد أضرم في قلبه النيران..

وجدت نفسها فجأة وقد أحاطتها ذراعاه وأسكنتها ثانيةً بين أحضانه..

قبّل جبينها ثم همس: سأرسل لك شيئًا بعد قليل.. وددت لو قلته لك، لكني لا أضمن نفسي إطلاقًا أمام عينيك.

انتزع نفسه منها انتزاعًا وغادر مسرعًا على الفور..

لملمت كلها المنصهر بصعوبة، لكن كل محاولاتها ضاعت هباءً عندما استقبل هاتفها..

"يا نارًا تجتاح كياني.. يا فرحًا يطرد أحزاني..

يا جسدًا يقطعُ مثل السيف ويضربُ مثل البركانِ..

يا وجهًا يعبقُ مثل حقول الورد ويركض نحوي كحصانِ..

من أين أتيتِ.. وكيف أتيتِ.. وكيف عصفت بوجداني"

****

*** أغلقت بسمة ألبوم الصور الضخم وربتت على رأس ابنتها ذات الثمانية أعوام قائلة: وهكذا تزوج عمك عمرو من خالتك منى.

ابتسمت الفتاة الصغيرة وقالت بحماس: صور زفافهما كلها رائعة.

ثم أردفت بحماسٍ أكبر: والآن أخبريني يا أمي كيف تزوجت أنت وأبي؟

ابتسم باسل وتبادل مع بسمة النظرات، ثم ضم ابنته وحملها ليجلسها على رجله وقال ضاحكًا: إنها قصةٌ معقدة، ربما أقصها عليك فيما بعد فقد تأخر الوقت الآن.

أشارت بسبابتها وقالت: وعد؟

غمز لها بعينه وقال: وعد.

قامت الفتاة إلى غرفتها، فمال باسل على بسمة وهمس: هلّا ذكرتني حبيبتي بقصتنا.

ابتسمت له وأسندت رأسها على كتفه فأحاطها بذراعه يضمها إلى صدره..

رأتهما ابنتهما الصغيرة فابتسمت.. لم يبلغ مسامعها ما تهامسا به، لكنها قالت بحماسها الطفولي: يبدو أنها هي الآخرى قصةٌ حبٍ ملتهبة.

****

تمت